

روايات عالمية



12.6.2015

إدواردو غاليانو

# سفر التكوين



ترجمة : أسامة إسبر

إدواردو غاليانو

# سفر التكوين

@ketab\_n

ترجمة: أسامة إسبر

دار الحوار

# سفر التكوين

ذاكرة النار

الكتاب: سفر التكوين  
ذاكرة النار  
تأليف: إدواردو غاليانو  
ترجمة: أسامة إسبر  
الطبعة الأولى: 2015/1  
الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للكتاب الإنكليزي:

# GENESIS

## Memory Of Fire

**By: Eduardo Galeano**

**ISBN: 978 - 9933 - 523 - 30 -5**



**تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار**

دار الحوار للنشر والتوزيع [www.daralhiwar.com](http://www.daralhiwar.com)  
سورية- اللاذقية - ص. ب 1018  
هاتف وفاكس: +963 41 422 33  
البريد الإلكتروني [daralhiwar@gmail.com](mailto:daralhiwar@gmail.com)  
[info@daralhiwar.com](mailto:info@daralhiwar.com)



Twitter: @ketab\_n

## مقدمة

كنت طالبَ تاريخٍ بائساً. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوفاً وأخرس. علمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صنَّع سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانتته في النصوص الأكاديمية، كذبَ عليه في المدارس، أُغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الورود ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري.

ربما يساعده كتاب "ذاكرة النار" على التنفُّس ويستحضر حرَّيته والكلمة.

جُرِّدَتْ أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهكت ذكرتها.

حكَمَ عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراض عسكري لطفة يرتدون بزات عسكرية لم تُستخدم من قبل.

لست مؤرخاً. أنا كاتب يحب أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحترقة والمحبوقة: أحب أن أتحدث معها، أن أشاطرها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق وُلدت، ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس "ذاكرة النار" مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن

كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو.. إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسبب لي الأرق، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية التي وضعها ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي في هذا السرد التاريخي. ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقفاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست أسفاً.

على أية حال، إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. ما يُروى في هذا الكتاب حدث سابقاً غير أنني أرويه بأسلوبي وبطريقتي.

**إدواردو غاليانو**

# الأصوات الأولى

”إن العشب الجاف سيحرق العشب الرطب“

مثل أفريقي أحضره العبيد إلى الأمريكيتين





## الخلق

حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما.

كان الإله يغني ويهزّ خشاخشيه حين حلم حلمه في سحابة من دخان التبغ شاعراً بالسعادة، إلا أن الشك يبلبله واللغز يحيّره.

يعرف هنود "الماكيريتير" أن الإله إذا حلم بتناول الطعام يمنح الخصب والطعام، وإذا حلم بالحياة يولد ويمنح الولادة.

حين حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما كانا داخل بيضة كبيرة متألّثة يغنيان ويرقصان ويخطبان بقدميهما محدثين جلبة وصخباً، لأنهما كانا يتلهفان بجنون إلى أن يولدا. كانت السعادة في حلم الإله أقوى من الشك واللغز، وهكذا خلقهما الإله وهو يغني حالماً:

"أكسر البيضة فتولد المرأة ويولد الرجل. معاً سيعيشان ويموتان إلا أنهما سيولدان ثانية، ثم سيولدان ويموتان من جديد ثم سيولدان. لن يتوقفا عن الولادة أبداً لأن الموت كذبة".

## الزمن

يعتقد هنود المايا أن الزمن ولد وسُمّيَ قبل أن توجد السماء وتستيقظ الأرض:

انطلقت الأيام من جهة الشرق وبدأت تمشي.

خلق اليوم الأول السماء والأرض من أحشائه.

نصب اليوم الثاني سلماً لينزل عليه المطر.

أما البحار والأراضي وتعدد الأشياء فكانت من عمل اليوم الثالث.

شاء اليوم الرابع أن يجمع بين السماء والأرض.

قرر اليوم الخامس أن الجميع يجب أن يعملوا.  
 انبثق النور من اليوم السادس.  
 ملأ اليوم السابع الأمكنة الخاوية بالتربة.  
 دفن اليوم الثامن يديه وقدميه في التربة.  
 خلق اليوم التاسع العوالم السفلية. ووضع العاشر علاماتٍ على  
 أولئك الذين يمتلكون أرواحاً مسمومة.  
 داخلَ الشمس صاغ اليوم الحادي عشر الشجر والحجر.  
 صنع اليوم الثاني عشر الريح. هبَّت الريح وسُمِّيت الروح لأنه لم  
 يكن يوجد فيها موت.  
 بلَّل اليوم الثالث عشر التراب وصاغ من الطين جسداً مثل أجسادنا.  
 هذا ما يُذكرُ في "يوكاتان".

## الشمس والقمر<sup>1</sup>

حملَ الطوفان الشمس المائية الأولى. تحوَّل جميع من يعيش في  
 العالم إلى أسماك.  
 افتردت النور الشمس الثانية.  
 دمرَ مطرٌ نارياً الشمس الثالثة وهيجَ البشر.  
 بعثرتُ العاصفة الشمس الرابعة، شمسَ الريح. تحوَّل البشر إلى  
 قرود انتشرت في التلال.  
 بدأت الآلهة بالتفكير ثم اجتمعت في "تيوتيهواكان".  
 - من سيجعل الفجر يبرز؟

<sup>1</sup> في هذا الكتاب يذكر المؤلف الشمس ويونث القمر ويجوز في العربية تذكير أو تأنيث أي منهما رغم أن الدارج هو تذكير القمر وتأنيث الشمس.

خطا إله الأصداف المشهور بقوته إلى الأمام وقال:

- سأكون أنا الشمس.

- من أيضاً؟

خيم الصمت.

نظر الجميع إلى الإله المزهور<sup>2</sup> الأكثر دمامة وسوءاً بين الآلهة وقالوا: "أنت".

انسحب إله الأصداف والإله المزهور إلى التلال التي هي الآن أهرامات الشمس والقمر. هناك صاما وتأملاً.

بعد ذلك جمعت الآلهة حطباً وأوقدت ناراً ودَعَتْهُمَا.

أسرع الإله الصغير ورمى نفسه في ألسنة اللهب وبرز حالاً متوهجاً في السماء.

نظر إله الأصداف مقطباً إلى النار وبدأ يتقدم ويتراجع متردداً ثم دار دورتين. كان عليهم أن يدفعوه لأنه لم يستطع أن يقرر. صعد إلى السماء بعد تأخر طويل. غضبت الآلهة وضربته على وجهه بأرنبٍ عدة مرات إلى أن أطفأت توهجه. وهكذا أصبح إله الأصداف المغرور قمراً. أما البقع الظاهرة على القمر فهي الندوب الناجمة عن ذلك الضرب.

إلا أن الشمس المتوهجة لم تتحرك. طار الباشق السبجي نحو الإله المزهور الصغير وسأله: "لماذا لا تتحرك؟".

أجابه الإله الصديدي الأحذب المشلول المحتقر: "لأنني أحتاج إلى الدم والقوة".

منحت الشمس الخامسة، الشمس التي تتحرك، الضوء "للتوليكس" ومنحته للآزتيكيين. لها مخالِب وتغذى على قلوب البشر.

2 المزهور: المصاب بالسفلس أو بالزهري.

## الغيوم

أسقطت غيمة قطرة مطر على جسد امرأة فأنجبت توأمين بعد تسعة أشهر.

حين كبرا رغبا بأن يعرفا من هو والدهما.

قالت: "انظرا إلى جهة الشرق في الصباح الباكر وستشاهدانه في السماء مرتفعاً كبرج".

يمّما عبر الأرض والسماء بحثاً عن والدهما.

شكّت الغيمة بهما فطلبت: " برهنا أنكما ولداي".

أرسل الأول لمعة برق إلى الأرض والثاني قصف رعد. وحين استمر شك الغيمة عبرا طوفانا وخرجا سالمين.

رُتبت الغيمة لهما مكاناً قربها بين أخوتها وأولاد أخوتها الكثيرين.

## الريح

حين خلق الإله الأوائل بين هنود "الواوينوك". بقيت بعض نتف الصلصال على الأرض. من هذه النطف خلق "غلوساكابي" نفسه.

من عل، سأله الإله مندهشاً: "كيف نشأت؟"

أجاب غلوساكابي: "أنا صانع معجزات. لم يخلقني أحد.

وقف الإله إلى جانبه ومدّ يده نحو الكون متحدياً: "انظر إلى خلقي. إذا كنت صانع معجزات أرني أشياء خلقتها".

"أستطيع أن أخلق ريحاً إذا أردت". ونفخ غلوساكابي بملء رئتيه. ولدت الريح وماتت حالاً.

اعترف غلوسكابي خجلاً: "أستطيع أن أخلق الريح لكن ليس بوسعي أن أجعلها تعيش".

عندئذ نفخ الإله بقوة حتى إن غلوسكابي سقط وفقد كل شعره.

## المطر

اكتشفت فتاة فجأة أنها حية في إقليم البحيرات الشمالية الكبرى . فتحت عجائب العالم عينيها فانطلقت خبط عشواء.

حين اقتفت أثر صيادي أمة "المينوميني" والخطابين وصلت إلى كوخ خشبي يعيش فيه عشرة أخوة وطيور الرعد ، فاستقبلوها وقدموا لها الطعام والمأوى.

في صباح سيء ، حين كانت تُحضر الماء من النبع قبض عليها ثعبان مُشعرٌ وحملها إلى أعماق جبل صخري. كانت الثعابين على وشك أن تلتهمها حين غُنت.

من بعيد ، سمعتُ طيور الرعد الغناء فهاجمت الجبل الصخري بالبروق وأنقذت الفتاة وقتلت الثعابين.

وضعت طيور الرعد الفتاة في قفل شجرة وقالت لها:

"ستعيشين هنا وسنعود في كل مرة تغنين فيها".

وفي كل مرة تغني فيها ضفدعة الشجرة الخضراء يقصف الرعد وتمطر على العالم.

## قوس قزح

نصبَ أقزام الغابة كميناً لـ "يوبوينا هوابوشكا" وقبضوا عليه وقطعوا رأسه.

<sup>3</sup> طيور الرعد: طيور خرافية يعتقد الهنود الحمر أنها تحدث البرق والرعد.

تخبّط الرأس عائداً إلى أرض "الكاشيناهاواز".

ورغم أنه تعلّم أن يقفز برشاقة وأن يوازن نفسه لم يرغب أحد برأس بلا جسد.

قال متنهداً: "أمي، أخوتي، أبناء بلدي، لماذا ترفضونني؟ لماذا تشعررون بالعار مني؟".

في محاولة منها لتوقف الشكاوى وتتخلص من الرأس اقترحت الأم أن يُحوّل نفسه إلى شيء ما، إلا أن الرأس رفض أن يتحوّل إلى شيءٍ وُجد سابقاً. فكر الرأس وحلم وخمن. لم يكن القمر قد وجد أي قوس قزح.

طلّب سبع كراتٍ من الخيوط الصغيرة من جميع الألوان.

صوّب ورمى الكرات نحو السماء واحدة بعد أخرى.

علقت الكرات وراء الغيوم وبدأت الخيوط تنحلُّ بنعومةٍ نحو الأرض.

قبل أن يصعد قال الرأس محذراً: "إن من لا يتعرّف عليّ سيُعاقب. حين تشاهدونني هناك قولوا هذا هو "يوبوينا هوايوشك العالي والأنيق".

ضفر الخيوط السبعة المتدلّية وتسلق على الحبل إلى السماء.

في تلك الليلة تبدّى جُرْحٌ بليغٌ للمرة الأولى بين النجوم. رفعت فتاةٌ عينيها وسألت: "ما هذا؟".

انقضّ عليها حالاً ببغاء أحمر. دار دورةً مفاجئة ونخسها بذيله الحادّ المدبّب بين ساقيهما. نرّفت الفتاة ومنذ تلك اللحظة تنزف النساء حين تأمر القمر بذلك.

في الصباح التالي توهج حبل الألوان السبعة في السماء.

أشار رجل إليه بإصبعه: "انظروا! انظروا كم هو فائق للعادة" قال ذلك وسقط. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يموت فيها أحد ما.

## النهار

كان الغراب الذي يهيمن الآن على طوطم أمة الهايدا حفيد الرئيس الكبير المقدس الذي خلق العالم.

حين بكى الغراب طالباً القمر التي كانت تتدلى عبر جذوع الأشجار أعطاه جده القمر. رماها الغرابُ نحو السماء من فتحة المدخنة ثم بكى ثانية طالباً النجوم. حين حصل عليها نثرها حول القمر ثم بكى وقفز وصرخ إلى أن أعطاه جده الصندوق الخشبي الذي حُفِظ فيه ضوء النهار. منعه الرئيس الكبير المقدس أن يُخرج الصندوق من المنزل لأنه قرّر أن العالم يجب أن يعيش في الظلام.

لعب الغراب بالصندوق متظاهراً بالقبول وبدأ يراقب من زاوية عينه الحراس الذين كانوا يراقبونه.

في إحدى المرات وحين أشاحوا بصرهم عنه حمل الصندوق بمخالبه وطار عبر المدخنة فانشق مخلبه واحترق ريشه وأصبح أسود اللون منذ ذلك الوقت.

وصل الغراب إلى بعض الجزر الواقعة ناحية الشاطئ الشمالي. سمع أصواتاً بشرية فطلب الطعام. لم يمنحه أحد شيئاً. عندئذ هدّد بأن يحطم الصندوق الخشبي محذراً:

“إن النهار موجود معي هنا إذا خرج لن تُطفئَ السماء ضوءها أبداً ولن يقدر أحد على النوم أو على حفظ الأسرار وسيعرف الجميع من هم البشر وما هي الطيور والحيوانات والغابة.”

سخرُوا منه. فتح الغراب الصندوق فانتشر النور في الكون.

## الليل

لم تتوقف الشمس أبداً عن الإضاءة ولم يذق هنود “الكاشيناهوا” طعم الراحة.

ولأنهم بحاجة إلى الهدوء ومرهقون من الضوء المتواصل استعاروا الليل من الفأر.

خيم الليل، إلا أن ليل الفأر لم يكن طويلاً بما يكفي للقمة طعام وتدخين سيجارة قرب النار. حين طلع الفجر كان الناس قد جلسوا في أراجيحهم.

بعد ذلك جربوا ليل التابير<sup>4</sup> في ليل التابير استطاعوا أن يناموا بعمق وتمتعوا بالراحة الطويلة المستحقة. ولكن حين استيقظوا كان قد مر وقت طويل حتى إن نباتاً معرّساً هجم من التلال غزا أراضيهم ودمر منازلهم.

وبعد بحث طويل استقروا على ليل المدرع<sup>5</sup>. استعاروه منه ولم يعيدوه أبداً.

مجرداً من الليل، ينام المدرع أثناء النهار.

## النجوم

بالعزف على المزمار يُعلن عن الحب أو عودة الصيادين. يستدعي هنود الواي ضيوفهم بإطالة أصوات المزمار. بالنسبة "للتوكانوز" المزمار يبكي. أما بالنسبة "للكاليناس" فهو يتحدث لأنه البوق الذي يصيح.

على ضفاف نهر "النيغرو" يؤكد المزمار قوة الرجال. إن المزامير مقدسة ومخبأة وأي امرأة تقترب منها عقابها الموت.

في الأزمنة الغابرة، حين كانت النساء تمتلك المزامير كان الرجال يجمعون الحطب ويحضرون خبز "المنيهوت". وكما يروي الرجال، شعر الشمس بالإهانة لأن النساء يدرن العالم فنزل إلى الغابة وحبّل عذراء واضعا عصير أوراق بين ساقئها. هكذا ولد "جوروباري".

<sup>4</sup> التابير: حيوان أميركي استوائي شبه بالخنزير.

<sup>5</sup> المدرع: حيوان ثديي يعيش في أميركا الجنوبية من الدرداوات لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة يستطيع أن ينكمش فيه إذا هوجم على صورة كرة.



سرق جوروباري المزامير المقدّسة ومنحها للرجال. علّم الرجال أن يخبئوها ويدافعوا عنها ويقيموا احتفالات طقسية بدون نساء. كشف لهم أيضاً الأسرار التي يجب أن ينقلوها إلى أبنائهم الذكور. حين اكتشفت والدة جوروباري مخبأ المزامير المقدّسة حكمت عليه بالموت ومن النتف التي بقيت منه صنعت نجوم السماء.

## درجة التبانة

أكل قلب الطيور وليس أكبر من دودة. كان والده أفضل صياد في شعب "الموسيتين".

تحول حالاً إلى ثعبان يبلغ طوله ذراعاً وبدأ يطلب قلوباً أكثر. كان الصياد يقضي اليوم كله في الغابة ويقتل من أجل ولده.

حين أصبح الكوخ لا يتسع للثعبان فرغت الغابة من الطيور. أحضر له والده، رامي السهام الخبير قلوب اليغاور.

كان الثعبان يلتهمها ويكبر. فرغت الغابة من اليغاور.

فقال الثعبان: "أريد قلوباً بشرية".

أفرغ الصياد قريته وجوارها من الناس إلى أن جاء يوم قُتل فيه في قرية بعيدة.

مدفوعاً بالجوع والحنين خرج الثعبان ليبحث عنه.

لفّ جسده حول القرية المذبذبة كي لا ينجو أحد. وبينما كان الرجال يرشقون الحلقة العملاقة التي فرضت عليهم الحصار بسهامهم أنقذ الثعبان جسده والده وانطلق إلى الأعالي. هناك ما يزال مرثياً متموجاً مشعاً بسهام مضيئة في سماء الليل.

## نجم السماء

سألت القمر، الأم المنحنية ولدها: لا أعرف أين والدك: اعثر عليه وانقل له كلمتي.

انطلق الولد ليبحث عن الضوء الأكثر توهجاً بين الأضواء.

لم يعثر عليه في ضوء الظهيرة حين يحتسي شمس شعب "التاراسكان" خمرة ويرقص مع نسائه على قرع الطبول. لم يعثر عليه في آفاق وأقاليم الموتى. لم يكن الشمس في أي من منازل الأربعة. ما يزال نجم السماء يبحث عن والده في السماء ودائماً يصل مبكراً جداً أو متأخراً جداً.

## اللغة

نهض الأب الأول "للكوارنيين" في الظلمة التي أضاءتها تأملات قلبه وخلق اللهب والضباب الشفيف. خلق الحب ولم يكن يوجد أحد ليقدمه إليه. وخلق اللغة ولم يكن هناك أحد ليستمع إليه.

ثم طلب من الآلهة أن تبني العالم وحملها مسؤولية النار والضباب والمطر والريح ثم منحها الموسيقى وكلمات الأغنية المقدسة لتمنح الحياة للرجال والنساء.

وهكذا أصبح الحب مشتركاً ودخلت اللغة إلى الحياة وتخلص الأب الأول من عزله ليرافق الرجال والنساء الذين يغنون حين يمشون:

نحن نمشي على هذه الأرض

نحن نمشي على هذه الأرض المضيئة.

# النار

كانت الليالي جليديةً لأن الآلهة أخذت النار بعيداً. كان البرد يقطع لحم وكلمات البشر. كانوا يتوسلون مرتجفين بأصواتٍ منكسرة فيما الآلهة تدير آذاناً صماءً.

مرة، أعادت الآلهة النار فرقص البشر من الفرح وعبروا عن امتنانهم بالأغاني. إلا أن الآلهة أرسلت حالاً المطر والبرد وأطفاً النيران.

تحدثت الآلهة وطلبت. "لكي يحظوا بالنار، على البشر أن يشقوا صدورهم بخناجر سبجية ويقدموا قلوبهم".

قدّم هنود الكويتشي دم سجنائهم وأنقذوا أنفسهم من البرد.

لم يقبل "الكاكيكويتشليون" الصفقة. "الكاكيكويتشليون". أبناء عمومة الكويتشيين والذين ينحدرون مثلهم من "المايا"، انسلوا بأقدام مريشة عبر الدخان وسرقوا النار وخبأوها في كهوف جبلهم.

# الغابة

لح والد هنود "الويتوتو" في حلمه ضباباً مشعاً. كان الضباب حياً بالطحالب والأشنيات وصداحاً بالرياح والعصافير والثعابين. استطاع الأب أن يمسك بالضباب وحمله بخيط من نفسه وسحبه خارج الحلم ومزجه بالتراب.

بصق عدة مراتٍ على الأرض الضبابية وفي الخليط الزبدي نهضت الغابة ونشرت الأشجار تيجانها الضخمة وأينعت الثمار وتفتحت الأزهار. وعلى الأرض المنداة أخذ الخنزير البري والمدرع والأيل والفهد وآكل النمل شكلاً وصوتاً. وحلق في الجو النسر الذهبي والمقو والصقر والطنان ومالك الحزين الأبيض والبطة والخفاش.

وصل الدبور بسرعة كبيرة. وضع صفادع الطين وبشراً لا أذيال لهم ثم استراح بعد ذلك.

## شجرة الأرز

استحضر الأب الأول العالم إلى الولادة بطرف صولجانه وغطاه بالزغب.

من الزغب خرجت شجرة الأرز، الشجرة المقدسة التي تتدفق منها الكلمة. ثم أخبر الأب الأول الكورانيين أن يجوفوا الجذع ويصغوا لما يوجد داخله. قال إن كل من يستطيع أن يصغي إلى شجرة الأرز، علبة الكلمات، سيعرف أين يبني موقده ومن لا يستطيع سيعود إلى الغبار المحترق.

## شجرة الغويقم<sup>6</sup>

خرجت امرأة شابة من شعب "النيفاكل" لتبحث عن الماء. شاهدت شجرة الغويقم ناسوك وشعرت بنداؤها. عانقت جذعها الضخم ضاغطة عليه بجسمها وحفرت بأظفارها على لحائها. نزت الشجرة.

تركتها قائلة: "كم أرغب ياناسوك لو كنت رجلاً".

تحولت شجرة الغويقم إلى رجل ركض وراءها. حين وجدها أراها كتفه المخدوش واستلقى إلى جانبها.

## الألوان

كان الأبيض مرة ريشاً للطيور وجنداً للحيوانات.

<sup>6</sup> الغويقم: شجر أميركي استوائي.

أما الأزرق فهو الذين استحموا في بحيرة لا يصبُّ فيها ولا يخرج منها نهر. الأحمر هو الذين غمسوا في بحيرة الدم الذي سفحه طفل من قبيلة كاديو". أما لون التراب: فهو الذين تدرجوا في الطين، والرمادي هو الذين بحثوا عن الدفء في نيران المخيم المطفأة. الأخضر: هو الذين حكوا أجسادهم بالأوراق. والأبيض: هو الذين بقوا صامتين.

## الحب

في الغابة الأمازونية نظر الرجل الأول والمرأة الأولى إلى بعضهما بفضول. لم يعرفا ما كان يوجد بين ساقيهما.

سأل الرجل: "هل قطعوه؟"

أجابت: "لا، كنت دائماً هكذا".

تفحصها عن كثب. حك رأسه، كان يوجد جرح مفتوح هناك. قال: "من الأفضل ألا تأكلي المنيهوت أو الموز أو أية فاكهة تنشق حين تنضج. سوف أشفيك، أدخلني الآن إلى الأرجوحة الشبكية واستريحي".

أطاعته. وبصبر ابتلعت الشاي المعطر وتركته يدلكها بالمرامح العطرية. صرّت على أسنانها لتمتنع عن الضحك حين قال لها: "لا تقلقي".

أمتعتها اللعبة رغم أنها بدأت تتعب من الصيام في الأرجوحة، سال لعابها من تذكر الفاكهة.

وفي أحد المساءات جاء الرجل راكضاً عبر الغابة. قفز من الاهتياج وصاح: "وجدتها".

كان قد شاهد لتوه قرداً يعالج أنثاه على ذراع الشجرة.

قال الرجل وهو يقترب من المرأة: "هكذا يفعل".

حين انتهى العناق الطويل، امتلأ الجو بشذى كثيف من الأزهار والفاكهة. ومن الجسدين المستلقين صعدت أبخرة وسطعت توهجات لم يسمع بها من قبل. كان كل شيء جميلاً حتى إن الشمس والآلهة ماتت من الارتباك.

## الأنهار والبحر

لم يكن يوجد ماء في غابة الشوكوز. عرف الإله أن النملة كانت تمتلكه فطلب منها بعضاً منه. لم ترغب بالإصغاء، شدَّ الإله خصرها وجعلها نحيلة بشكل دائم فأخرجت النملة الماء الذي كانت تحتفظ به في جوفها. -والآن أخبريني من أين حصلت عليه.

قادت النملة الإله إلى شجرة لم يكن فيها أي صفة غير عادية. أربعة أيام وأربع ليال ضربها البشر والضفادع بالفؤوس ولم تسقط. كان يوجد نبتة متسلقة تمنعها من لمس الأرض. أمر الإله طائر الطوقان: "اقطعها".

لم يستطع الطوقان ولهذا حُكم عليه بأن يأكل ثمرة كاملة. قطع المقو النبتة بمنقاره الحاد الصلب. حين سقطت شجرة الماء ولد البحر من جذعها والأنهار من أغصانها.

كانت المياه كلها عذبة. وكان الشيطان هو الذي يواصل إلقاء حفنات من الملح فيها.

## المدّ والجزر

في الأزمنة الغابرة كانت الرياح تهبّ بلا انقطاع على جزيرة "فانكوفر". لم يسد طقس جيد أبداً ولم ينخفض المد.

قرر الرجال قتلَ الرياح. أرسلوا الجواسيس، فشل شحروور الشتاء وأيضاً فشل السردين، ورغم ضعف بصره وذراعيه المكسورتين كان النورس هو الذي استطاع أن يراوغ حارس الأعاصير الكامن حول بيت الرياح.

ثم أرسل جيشاً من الأسماك بقيادة النورس. اندفعت الأسماك جسداً واحداً وضربت الباب. الرياح المندفعة إلى الخارج دعست عليها وانزلقت وسقطت واحدة بعد أخرى على سمك الراي اللساع الذي وخزها بذيله واتهمها.

أسرتُ الريح الغربية. بعد أن أصبحت سجيناً لدى البشر. وَعَدَّتْ أنها لن تهب بشكل متواصل وبأنه سيكون هناك هواء عليل ونسائم خفيفة وأن المياه ستتراجع مرتين في اليوم بحيث يمكن أن تجمع قواقع الأسماك في مد منخفض. تمَّ العفو عنها.

وحافظت الريح الغربية على وعدّها.

## الثلج

قال سيد المنزل: "أريدك أن تطير". أقلع المنزل وطار، سافر في الجو والظلام وهو يُصفر إلى أن أمره السيد: "أريدك أن تقف هنا". وقف المنزل وتدلّى في الليل والثلج المتساقط.

لم يكن يوجد دهن حوت لإشعال المصابيح وهكذا جمع السيد حفنة من الثلج الطري فمنحه الثلج الضوء.

هبط المنزل في قرية "أكوليك". جاء شخص ليحييه وحين رأى المصباح مضاً بالثلج تعجّب قائلاً: "الثلج يشتعل..؟!"، فانطفأ المصباح.

## الطوفان

في سفح جبال الآنديز عقد رؤساء الجماعات اجتماعاً وتناقشوا.

رفعت شجرة الوفرة تاجها الغني عالياً فوق سقف العالم. من الأسفل، بدت الأغصان العالية مثقلة بالثمار ومليئة بالأناس وجوز الهند والببايا والفواناباز والحنطة والنيهوت واللوبياء.

كانت الفئران والطيور تستمتع بالوليمة أما البشر فلا. كان الثعلب يتسلق، يقيم لنفسه الولايم ولا يشارك أحداً. البشر الذين حاولوا الصعود سقطوا وتكسروا.

- ما الذي يجب أن نفعله؟

استحضر أحد الزعماء فأساً أثناء نومه. استيقظ وفي يده صفة ضرب بها الجذع الضخم لشجرة الوفرة إلا أن المخلوقة الصغيرة تقيأت كبدها.

- كان الحلم كاذباً.

توسل زعيم آخر في حلمه إلى أب الجميع كي يمنحه فأساً. حذره الأب أن الشجرة ستسترجع أشياءها إلا أنه أرسل ببغاء أحمر. ضرب الرئيس جذع الشجرة وهو ممسك بالببغاء. سقط مطر من الطعام على الأرض وصمّت الأرض من الصخب. عندئذ هبت عاصفة غريبة من أعماق الأنهار ارتفعت المياه وغمرت العالم.

نجا شخص واحد فقط وبدأ يسبح أياماً وليالي إلى أن استطاع التمسك برأس شجرة نخيل نثاً فوق الماء.

## السلحفاة

عندما انحسر الطوفان تحول وادي أوهاكا إلى مستنقع.

عاشت حفنة من الطين وبدأت تمشي؛ مشى ذكر السلحفاة ببطء شديد، تحرك برأس يمتد إلى الأمام وبعينين مفتوحتين مكتشفاً العالم الذي كانت تعيده الشمس إلى الحياة.

في المكان الذي أُنْتَنَ شاهد ذكر السلحفاة نساً يلتهم الجثث.



قال له: "خذني إلى السماء، أريد أن أقابل الإله".

أجبره النسر على الاستمرار في الطلب لأن الجثث كانت طيبة المذاق. أخرج ذكر السلحفاة رأسه متوسلاً ثم أعاده إلى تحت درعه غير قادر على تحمل الرائحة الكريهة.

توسل إليه: "أنت، يا من يملك جناحين خُذني".

متأففاً من إلحاحه بسط النسر جناحيه الكبيرين وحمل ذكر السلحفاة على ظهره وطار. طار به عبر السحاب. اشتكى ذكر السلحفاة الذي كان يشيح برأسه: "رائحتك مقرفة جداً".

تظاهر النسر بأنه لا يسمعه.

كرّر ذكر السلحفاة: "يا للنتانة!"

أبقاه الطائر الكريه إلى أن فقد صبره ثم رماه بفضافة إلى الأرض.

جاء الإله، جمع بقاياها ورمّمها.

تبدو على الدرع آثار الترميم.

## البيغاء

كانت الغابة خضراء بعد الطوفان إلا أنها خالية. أطلق الذي بقي على قيد الحياة سهامه عبر الأشجار، لم تُصب السهام شيئاً سوى الظلال والأوراق.

في مساء أحد الأيام، وبعد أن بحث طويلاً، عاد الذي بقي على قيد الحياة إلى معتزله فوجد لحمًا مشويًا وكعك منيهوت. حدث الشيء نفسه في اليوم التالي. وبسبب الجوع البائس والعزلة بدأ يتساءل من سيشكر على هذا الحظ الجيد، في الصباح اختبأ وانتظر.

ظهر ببغاوان من السماء، وحالما حطا على الأرض تحولوا إلى امرأتين، أشعلتا النار وبدأتا تطبخان.

اختار الرجل الوحيد المرأة ذات الشعر الأطول والريش الأروع الأكثر بهاء. طارت المرأة الأخرى المرفوضة.

يلعن هنود "المينا" المنحدرون من هذا الزواج جدّهم حين يزداد كسل نساءهم أو تدمرهن. يقولون لقدٍ أخطأ لأنه اختار المرأة التي لا فائدة منها، أصبحت الأخرى أما وأباً لجميع الببغاوات التي تعيش في الغابة.

## الطائر الطنان

يُحْيِي الشمس حين يبزغ الفجر، يخيم الليل وهو ما يزال يعمل. ينتقل وهو يطنّ من غصنٍ إلى آخرٍ ومن زهرةٍ إلى أخرى سريعاً وضرورياً كالنور، ينتابه الشك أحيانا فيقف متدلّيا في الهواء ويطير أحيانا أخرى إلى الخلف كما لا يستطيع طائر أن يفعل. أحيانا يسكره العسل الذي يمتصه، حين يحلق يطلق ومضاتٍ من اللون.

يُحْضِرُ الرسائل من الآلهة، يتحوّل إلى سهم من البرق لِيُنْفِذَ انتقامها، ينفخ النبوءات في آذان العرافين وحين يموت طفل كواراني وترقد روحه في تويج زهرة ينقذها ويحملها بمنقاره الإبري إلى الأرض التي تخلو من الشر. عرف الطريق إلى هناك منذ بداية الزمن. وُجد قبل أن يولد العالم. أنعش فم الأب الأول بقطرات الندى وسكن جوعه بنكتار الآلهة.

قاد الرحلة الطويلة "للتولتيكز" إلى مدينة "تولا" المقدسة قبل أن يُحْضِرَ دَفء الشمس إلى "الآرتيكيين".

كقائد "للشونتالز" يُحَلِّقُ فوق مخيمات الأعداء، يحصي عددهم ينقض عليهم ويقتل زعيمهم في أثناء نومه. كشمس "للكيتشي" يطير إلى القمر، يفاجئها في مخدعها ويمارس معها الحب.

بحجم اللوزة جسده، من بيضة ليست أكبر من حبة فاصولياء ولد في عش تتسع له جوزة. حين ينام يتغطى بورقة صغيرة.

## طائر الليل (أوروتاو)

“أنا ابنة النحاس”، هذا ما قالته نيمبيو ابنة الزعيم حين منعها والدها من حب رجل من الأعداء.  
قالت ذلك وطارت.

عثروا عليها بعد فترة في جبال الإوكوازو، عثروا على تمثال. كانت نيمبيو تنظر دون أن تشاهد، كان فمها صامتا وقلبها نائما.

طلب الرئيس إحضار الشخص الذي يقرأ الأسرار ويشفي المرض، جاءت القبيلة كلها لتشهد الانبعاث.

طلب الشامان النصيحة من المتة وخمرة المنيهوت. اتجه إلى نيمبيو وأسرّ في أذنيها.

– لقد مات الرجل الذي تحببته لتوه.

حوّلت صرخة نيمبيو البشر إلى صفاف باك، طارت وتحولت إلى عصفور.

يمكن أن تُسمع صرخة الأوروتاو التي تهزّ الجبال في الليل على بعد أكثر من فرسخ. من الصعب رؤية الأوروتاو، من المستحيل اصطياده. لا أحد يستطيع أن يصطاد الطائر الشبح.

## الطائر الفران<sup>7</sup>

حين وصل إلى سن الاختبارات الثلاثة للبطولة ركض الفتى وسبح بشكل أفضل من أي شخص آخر وأمضى تسعة أيام دون طعام وتمدد

<sup>7</sup> طائر أمير يبنّي عشه على الأرض بشكل قبة أو فرن.

على السير الجلدي دون أن يتحرك أو يشكو. سمع في أثناء  
الاختبارات صوت امرأة تغني له من بعيد فساعده هذا على التحمل.  
قرّر زعيم القبيلة أن يزوج ابنته للفتى إلا أنه طار وضاع في غابات  
نهر البارغواي باحثاً عن المغنية.

هناك، ما يزال بوسعك أن ترى الطائر الفران يخفق جناحيه بقوة  
ويطلق أصواتاً بهيجة حين يعتقد أن الصوت الذي يبحث عنه يطير  
في طريقه نفسها. بنى منزلاً من الطين بباب مفتوح باتجاه نسيم  
الشمال في مكان آمن من الضوء منتظراً مالا يجيء.  
يحترمه الجميع. كل من يقتل الطائر الفران أو يخرب عشه تنقض  
عليه العاصفة.

## الغراب

جافةً كانت البحيرات وفارغةً مجاري الأنهار، فأرسل هنود  
"التاكيلا" الذين كانوا يحتضرون من العطش ذكر الغراب وأنشاه  
ليبحث عن الماء.

تعب ذكر الغراب حالاً. بال في وعاء وقال إن هذا هو الماء الذي  
أحضره من مكان بعيد.

تابعت الأنثى الطيران ثم عادت فيما بعد بحمّل من الماء العذب  
وأنقذت شعب التاكيلا من الظمأ.

عوقب الغراب وحُكم عليه بأن يعاني من العطش في الصيف.  
ولأنه غير قادر على ترطيب حنجرته يتحدث بصوت أجش حين  
يكون الطقس حاراً.

## 8 الكندور

كانت كويلاكا تنسج القماش في ظلّ شجرةٍ وفوقها يحلق كونيرايا الذي تحوّل إلى طائر. لم تكثر الفتاة مطلقاً بشدوه ورفرفته.

كان كونيرايا يعرف أن الآلهة الأخرى الأكبر سناً والأكثر أهميةً تشتعل بالشهوة من أجل كويلاكا .

على أية حال أرسل إليها من الأعلى بذرتة على شكل ثمرة ناضجة، حين رأت الثمرة المتوردة عند قدميها التقطتها وأكلت منها. شعرت بلذّة غريبة وحملت.

بعد ذلك تحوّل إلى رجل حزين يرتدي ثياباً رثة فضفاضة وطاردها في جميع أنحاء البيرو .

طارت كويلاكا نحو المحيط حاملةً طفلها الصغير على ظهرها وخلفها كان كونيرايا الغاضب يحاول اصطيادها.

سأل الظربان<sup>9</sup> . أجاب الظربان الذي شاهد قدميه النازفتين واستياه العام: "أيها الأبله ألا ترى أنه لا فائدة من ملاحقتها؟"

صبّ عليه كوينرايا لعناته: "سوف تتجوّل في الليل وتترك خلفك رائحة كريهة أينما ذهبت وحين تموت لن يلتقطك أحد عن الأرض".

أمّا الكندور فقد شجّع معنويات الصياد قائلاً له: "أسرع وسوف تمسك بها".

وهكذا باركه كونيرايا: "سوف تطير في أي مكان تريد، لن يوجد مكان في السماء أو على الأرض لا تستطيع الذهاب إليه، لن يصل أحدٌ إلى حيث بُني عشك ولن تفتقد الطعام أبداً، ومن يقتلك ستكون عقوبته الموت".

<sup>8</sup> الكندور: نسر أميركي ضخم.

<sup>9</sup> الظربان: حيوان ثديي صغير نتن الرائحة.

بعد أن تسلق عدداً من الجبال، وصل كونيرايا إلى الساحل متأخراً  
جداً إذ تحولت المرأة وولدها إلى جزيرة وسط المحيط.

## اليغور

كان اليغور يصطاد بالقوس والنشاب حين رأى ظلاً، حاول  
اصطياده غير أنه لم يفلح، رفع رأسه. كان صاحب الشبح الشاب  
بوتوك من قبيلة كايابو، وكان على وشك أن يموت من الجوع ممدداً  
على قمة صخرة.

لم يمتلك بوتوك القوة ليتحرك. كان بوسعه فقط أن يتمتم ببعض  
الكلمات. أنزل اليغور قوسه ودعاه إلى عشاء من اللحم المشوي في  
منزله. ورغم أن الشاب لم يعرف معنى كلمة مشوي وافق ورمى نفسه  
على ظهر الصياد.

قالت زوجة اليغور: "أنت تحمل ولد أحد الغرباء".

قال اليغور: "إنه لي الآن".

شاهد بوتوك النار للمرة الأولى. تعرّف على الفرن الحجري وعلى  
رائحة التابير المشوي ولحوم الطرائد. تعلم أن النار تضيء وتبعث  
الدفع. أعطاه اليغور قوساً ونشاباً وعلمه أن يدافع عن نفسه.

هرب بوتوك في أحد الأيام بعد أن قتل زوجة اليغور.

ركض يائساً مسافةً طويلةً ولم يتوقف إلى أن وصل إلى قريته. هناك  
روى قصته وكشف الأسرار: السلاح الجديد واللحم المشوي. قرّر  
"الكايابوس" أن يستولوا على النار والأسلحة فقادهم إلى المنزل البعيد.  
لم يبق شيء لليغور من النار سوى انعكاسها المشع في عينيه.

منذ ذلك الوقت كره اليغور البشر. كل ما يمتلكه من أجل الصيد  
أنيابه ومخالبه التي يأكل بها لحم ضحيته نيئاً.

## الحديد

اجتمعت حيوانات النهار وحيوانات الليل لتقرر ما الذي ستفعله حيال الشمس التي تأتي وتذهب على هواها. قرّرت الحيوانات ترك المسألة للقدر. ستقرر المجموعة الراححة في لعبة الأسرار كم ستطول فترة حصول العالم على ضوء الشمس في المستقبل.

كانوا ما يزالون يتحدثون حين اقتربت الشمس التي سحرتها المحادثة. اقتربت الشمس فكان على حيوانات الليل أن تتبعثر. كان الدب ضحية الإهتياج العام؛ وضع قدمه اليمنى في فِردة حذائه اليسرى وقدمه اليسرى في فِردة حذائه اليمنى، وانطلق راكضاً قدر استطاعته. استناداً إلى الكوماننتشيز، منذ ذلك الوقت يمشي الدبّ متمايلًا.

## التمساح

كان شمس شعب الماكيوزي قلقاً. كان عدد الأسماك في البرك ينقص كل يوم.

عُين التمساح حارساً، ازداد نقص الأحواض من السمك، لفق التمساح الحارس والسارق قصةً جيدة عن مهاجمين لامرئيين إلا أن الشمس لم يصدقها فتناول منجلاً وأحدث في التمساح صلباناً من الجراح.

ليسترضيه قدم له التمساح ابنته الجميلة زوجة.

قال الشمس: "سأنتظر وصولها"

وبما أن التمساح لا يمتلك فتاةً نحت امرأة على جذع شجرة برقوق بريّة.

قال: "هذه هي"، ثم غاص في الماء وبدأ ينتظر من طرف عينه وهذه هي الطريقة التي ينظر فيها دائماً.

كان نقار الخشب هو من أنقذ حياته. قبل أن يصل الشمس نقر نقار الخشب الفتاة الخشبية تحت بطنها. وهكذا أصبحت المرأة التي لم تكن مكتملة مفتوحة لدخول إله الشمس.

## المدرع

أُعلنَ عن احتفالٍ ضخمٍ قرب بحيرة تيتيكاكا، فرغب المدرع الذي كان مخلوقاً متفوقاً جداً، أن يدهش الجميع.

كان قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل بحياكة رداء فائق الروعة يخرج جميع العيون من محاجرها.

رآه الثعلب وهو يعمل: "هل مزاجك متعكر؟"

- لا تقاطعني أنا مشغول.

- من أجل ماذا أنت تفعل هذا؟

شرح له المدرع.

قال الثعلب مستمتعاً بالكلمات: "آه الحفلة ستبدأ اليوم".

- ماذا تعني، الليلة؟

غاص قلب المدرع، لم يكن متأكداً أبداً من حساباته للوقت:

"كيف ولم ينته سوى نصف الرداء بعد؟".

بينما كان الثعلب يغادرُ بضحكةٍ مختنقةٍ أنهى المدرع الرداء. كان عليه أن يستخدم خيطاناً أكثر خشونة حين كان الوقت يمر. وهكذا أصبح الرداء كبيراً. لهذا السبب تبدو قوقعة المدرع مشدودة حول العنق ومفتوحة جداً من الخلف.



أراد الأرنب أن يكبر.

وعده الإله أن يزيد حجمه إذا أحضر له جلد نمر وقرود وسحلية وشعبان.  
ذهب الأرنب ليزور النمر. قال له بثقة: "لقد كشف الإله لي سراً"  
رغب النمر أن يعرف السر فأعلن الأرنب عن إعصار وشيك:  
"سوف أنقذ نفسي لأنني صغير الحجم سأختبئ في ثقب. لكن ماذا  
ستفعل أنت؟ لن يعفو عنك الإعصار".

تدحرجت دمعة بين شاربي النمر.

قال الأرنب: "هناك طريقة واحدة لإنقاذك؛ اعثر عن شجرة  
جذعها قوي جداً، سأربطك إلى الجذع من مخليبك وعنقك وهكذا لن  
يقدر الإعصار على حملك".

سمح النمر بأن يقيد وهو شاكر، ثم قتله الأرنب بضربة واحدة  
وسلخ جلده وتابع طريقه إلى غابات بلاد "الزيبوتك".

توقف تحت شجرة كان يوجد فيها قرد يأكل. أخذ الأرنب سكيناً  
وبدأ يضرب رقبتة بالجزء الكليل منها، كان يقوقى بخفوت مع كل  
ضربة سكين. بعد أن ضرب نفسه كثيراً وضحك كثيراً رمى السكين  
على الأرض وركض بعيداً.

اختبأ بين الأغصان مراقباً. نزل القرد حالاً، فحص الأداة التي سببت  
الضحك وحك رأسه أمسك بالسكين ومن الضربة الأولى قطع حنجرتة.

بعد أن حصل على جلدين دعا الأرنب السحلية إلى لعب الكرة.  
كانت الكرة حجرية، ضرب السحلية على قاعدة الذيل وقتلها.

تظاهر الأرنب أنه نائم قرب الأفعى.. تماماً قبل أن تتوتر الأفعى  
وقبل أن تقدر على القفز ضرب عينيها بمخليبيه.

صعد إلى السماء حاملاً الجلود الأربعة.

طلب من الإله: "والآن زد من حجمي".

فكر الإله: "هذا الأرنب صغير ورغم ذلك فعل جميع هذه الأشياء فإذا جعلته يكبر لن يعجز عن فعل أي شيء. إذا كبر الأرنب ربما لن أستمِر إليها".

انتظر الأرنب، مسد الإله ظهره بنعومة وفجأة أمسكه من أذنيه ودوره وقذفه إلى الأرض.

منذ ذلك الوقت أصبح للأرنب أذنان كبيرتان وقدمان أماميتان قصيرتان لأنه استخدمهما ليوقف سقطته وأصبحت عيناه قرنفليتين من الهلع.

## الثعبان

قال له الإله: "ستمر ثلاثة قوارب في النهر. سيسافر الموت في اثنين منهما. إذا حذرت أياً منهما يخلو من الموت سأجعلك خالداً".

ترك الثعبان القارب المحمل بسلال اللحم الفاسد يَمُرُّ. لم يكتثر بالثاني الذي كان مليئاً بالبشر، بدا الثالث فارغاً وحين وصل استقبله.

لهذا السبب أصبح الثعبان خالداً في إقليم شيببياس.  
وفي كل مرة يدبّ فيه الهرم يمنحه الإله ثوباً جديداً.

## الضفدعة

جاء هنود "التينو" الأوائل من كهفٍ في هايبتي.

لم يشفق الشمس عليهم، فجأة وبدون سابق إنذار خطفهم وبدأ بمسخهم. حوّل الشخص الذي كان يحرس الليل إلى حجر، صنع من

الصيداء أشجاراً وحوّل الشخص الذي ذهب ليجمع الأعشاب العطرية إلى طائر يغني في الصباح.

هرب أحدهم من الشمس آخذاً معه جميع النساء.

لا يوجد ضحك في أغنية الضفادع الصغيرة في الجزر الكاريبية. كان هؤلاء هم أطفال "التينو" في تلك الأيام حين كانوا ينادون أمهاتهم كانوا يقولون: "تو، تو".

## الخفاش

حين كان الزمن ما يزال في مهده، لم يكن يوجد في العالم مخلوق أقبح من الخفاش.

صعد الخفاش إلى السماء ليبحث عن الإله. لم يقل له أنا ضجر من كوني أبدو قبيحا وأريدك أن تمنحني ريشا ملونا. قال له: "من فضلك امنحني ريشا فأنا أموت من البرد".

ولأنه لم يبق لدى الإله ريشة واحدة قرّر: "سيمنحك كل طائر ريشة".

وهكذا حصل الخفاش على الريشة البيضاء من الحمامة وعلى الخضراء من الببغاء وعلى القزحية من الطنان وعلى الوردية من البشروس وعلى الحمراء من قنزعة الكاردينال وعلى الزرقاء من ظهر الرفراف وعلى الصلصالية من جناح النسر وعلى الريشة الشمسية التي تتوهج في صدر الطوفان.

وبدأ الخفاش الغني بالألوان والنعمومة يطير بين الأرض والسماء وفي كل مكان يذهب إليه يصبح الهواء منعشاً وتخرس الطيور إعجاباً. يروي شعوب الزابوتيك أن قوس قزح ولد من صدَى طيرانه .

نفخ الغرور صدره واكتسب نظرةً ازدرائيةً ووجهه ملاحظاتٍ مهينة.

دعت الطيور إلى مؤتمر ثم طارت جميعاً إلى الإله. شرحت له: "إن الخفاش يسخر منا ونشعر بالبرد بسبب الريش الذي أخذناه منا".

في اليوم التالي حين حلق الخفاش أصبح فجأة عارياً وسقط مطر من الريش على الأرض.

ما يزال يبحث عنه ، هذا الأعمى الدميم ، عدو الضوء يحيا مختبئاً في الكهوف ، حين يخيم الليل يخرج للبحث عن الريش المفقود طائراً بسرعة كبيرة ولا يتوقف أبداً لأنه يشعر بالعار إذا رآه أحد ما.

## البعوض

كان هناك كثير من الموتى في قرية النكتاز. كان يوجد في كل جسم ميت ثقبٌ يُسرقُ منه الدم.

كان المجرم طفلاً بدأ يقتل قبل أن يتعلم المشي ، تلقى الحكم بالموت وهو يزار من الضحك ثقبوه بالرماح فأخرجها من جسمه وهو يضحك كأنها أشواك.

قال الطفل: "سأعلمكم كيف تقتلونني".

اقترح على جلاديه أنه يجب عليهم أن يشعلوا ناراً كبيرة ويرموه فيها. تبعثر رماده في الجو وهكذا بدأت البعوضات الأولى المتلهفة للأذى بالطيران.

## العسل

هرب العسل من زوجتي أخيه بعد أن قامتا برمييه مرات عدة خارج الأرجوحة.

طاردها ليلاً ونهاراً ، شاهدتاه وهذا جعل اللعاب يسيل من فميهما. نجحتنا فقط في اللحم في لسه ولعقه وأكله.

استمر حقدهما بالنمو. وفي أحد الصباحات وبينما كانت زوجته أخيه تستحمان عثرتا على العسل على ضفة النهر. ركضتا نحوه فتبلل بالماء، وحالما أصبح رطباً انحلَّ العسل.

ليس من السهل العثور على العسل الضائع في خليج "باريا"، عليك أن تتسلق الأشجار وفأسك في يدك وتفتح الجذوع وتقوم بكثير من التنقيبات. يُؤكل العسلُ النادرُ بمتعة وخوف لأنه يقتل أحيانا.

## الجدور

صنع "باتشاكاماك" الذي كان ولداً للشمس رجلاً وامرأة في كئبان "لورين".

لم يكن يوجد شيء يؤكل فمات الرجل من الجوع.

حين كانت المرأة منحنية لتبحث عن الجدور دخل إليها الشمس وصنعت طفلاً.

غار باتشاماك فقبض على الطفل الحديث الولادة وقطعه إرباً لكنه تاب فجأة أو خاف من غضب أبيه الشمس، فبعثر في العالم أشلاء أخيه المقتول.

نبتت الذرة من أسنان الطفل الميت ونما المنيهوت من عظامه. أخصب دمه الأرض، وبزغت الأشجار المثمرة والتي تمنح ظلاً من اللحم المتناثر.

هكذا ولد الرجال والنساء على هذه الشواطئ، وحيث لا تمطر السماء أبداً يعثرون على الطعام.

## الذرة

صنعت الآلهة الكويتشيين الأوائل الذين ينتمون إلى المايا من الطين. عاش بعض منهم، كانوا هشيين يفتقرون إلى القوة، تساقطوا قبل أن يتمكنوا من المشي.

بعد ذلك جرّبت الآلهة الخشب. تحدثت الدمى الخشبية ومشت إلا أنها كانت يابسة ولم تمتلك دماً أو جوهرًا، ذاكراً أو هذفاً، لم تعرف كيف تتحدث مع الآلهة، أو لم تستطع أن تفكر بأي شيء تقوله لها.

بعد ذلك صنعت الآلهة الأمهات والآباء من الذرة، صنعت لحمها من الذرة البيضاء والصفراء.

النساء والرجال الذين ولدوا من الذرة رأوا مثل الآلهة وشملت نظرتهم جميع أنحاء العالم.

أرسلت الآلهة عليهم نفساً وتركت أعينهم مظلمةً إلى الأبد لأن الآلهة لم ترغب أن يرى الناس ما وراء الأفق.

## التبغ

توسّل هنود "الكاريري" إلى الجدّ أن يسمح لهم بتجريب لحم الخنازير البرية التي لم تكن قد وجدت بعد، إلا أن الجدّ، والذي يدعى مهندس الكون اختطف أطفال الكاريري الصغار وحولهم إلى خنازير برية ثم خلق شجرة مرتفعة جداً ليتمكنهم من الهرب إلى السماء.

طارد الناس الخنازير في الشجرة من غصن إلى آخر، واستطاعوا قتل بعضها. أمر الجد النمل بأن يقوّض الشجرة. حين سقطت تعرّض الصيادون لكسور في عظامهم، ومنذ أن حدث السقوط الكبير أصبحنا جميعاً نمتلك عظاماً مقسمة وأصبحنا قادرين على تحريك أصابعنا وأرجلنا وأجسادنا.

أقيمت مأدبة كبيرة من لحم الخنازير الميتة في القرية.

وجه الناس دعوة إلى الجد ليهبط من السماء حيث كان يعتني بالأطفال الذين نجوا من الصيد إلا أنه فضّل أن يبقى فيها.

أرسل الجدّ التبغ ليأخذ مكانه بين البشر. حين يدخنون يتحدثون مع الإله.

## المتة

كانت القمر متلهفةً لتخطو على الأرض. رغبت بأن تتذوق الفاكهة وتسبح في أحد الأنهار.

شكراً للسحاب الذي مكنها من النزول. غطت السحب السماء من الغيب إلى الفجر فلم يلاحظ أحد غياب القمر.

كان الليل مدهشاً على الأرض. مشت القمر في غابة "البارانا" وحصلت على عطور سرية واستمتعت وسبحت طويلاً في النهر. أنقذها فلاح عجوز مرتين. حين كان الينغور على وشك أن يغرز أنيابه في عنقها قطع العجوز حنجرة الوحش بمديته. وحين جاءت القمر أخذها إلى منزله، قدمت لها زوجة الفلاح كعكات الذرة المدوّرة ثم اعتذرت شاكية من الفقر.

في الليلة الثانية نظرت القمر من السماء إلى الأسفل حيث كان منزل صديقها الذي بناه في فسحة غابية بعيدة جداً عن القرى وعاش فيه منفياً مع زوجته وابنته.

ورأت القمر أنه لم يعد يوجد طعام في الكوخ بعد أن قدّمت لها آخر كعكات الذرة، فالتفتت إلى أنوارها الأكثر إشعاعاً وطلبت من الغيوم أن تمطر مطراً خاصاً جداً حول الكوخ.

في الصباح نمت أشجار مجهولة وظهرت بين أوراقها السوداء أزهار بيضاء.

لم تمت ابنة الفلاح العجوز أبداً؛ أصبحت ملكة المتة وبدأت تتجول في أنحاء العالم لتقدمها إلى الآخرين. إن المتة توظف النائمين وتُنشّط الخاملين وتواخي بين البشر الذين لا يعرف بعضهم بعضاً.

## المنيموت

لم يمسه رجل، إلا أن ولدنا في حوض ابنة الزعيم.

سموه ماني، بعد بضعة أيام من ولادته بدأ يجري ويتحدث، جاء البشر من زوايا الغابة البعيدة ليقابلوا ماني الاستثنائي.  
لم يُصَب ماني بأي مرض لكنه حين بلغ العام قال: "سأموت"، ومات.

بعد وقت قصير نمت نبتة لم تُر من قبل على قبر ماني وكانت الأم تسقيها كل يوم. نمت النبتة، أزهرت وأثمرت. كانت الطيور التي تنقرها تطير بشكل غريب. تغني وتدور بجنون.

في أحد الأيام انشقت الأرض في المكان الذي يستلقي فيه ماني. أدخل الزعيم يده وسحب جذرا لحميا كبيرا، طحنه بالحجر وصنع عجينة ثم عصرها وبدفء النار صنع الخبز للجميع.

سموا الجذر "ماني أوكا"، "منزل ماني"، ويسمى "مانيوك" في الحوض الأمازوني وأماكن أخرى.

## الوطاطس

رغب زعيم من جزيرة "تشيلو" المزدحمة بنوارس البحر أن يمارس الحب مع الآلهة.

حين تعانقت الآلهة المتزوجة اهتزت الأرض وارتفعت أمواج كبيرة. كان هذا معروفا كثيرا جدا إلا أنه لم يشاهد أحد ذلك.

سبح الزعيم إلى الجزيرة المنوعة متلهفاً كي يفاجئ الآلهة. كل ما استطاع رؤيته عذاء عملاقة، فمها مفتوح ومليء بالزبد، لسانها كبير بشكل غير مألوف وتخرج من رأسها النار.

دفنت الآلهة الزعيم الذي لا يمتلك حكمة في الأرض وحكمت عليه بأن يأكله الآخرون وكعقاب على فضوله غطت جسده بأعين عمياء.



## المطبخ

عثرت امرأة من شعب "التيلاموك" على كوخ في وسط الغابة كان يصدر دخاناً، دفعها الفضول إلى الاقتراب والدخول.

كانت النار تشتعل بين أحجار في وسط الكوخ وتتدلى من السقف أسماك السلمون. سقطت واحدة على رأسها، التقطتها المرأة وعلقتها في مكانها، سقطت السمكة مرة ثانية وضربتها على رأسها، علقتها ثانية إلا أنها كررت السقوط.

رمت المرأة الجذور التي جمعتها لتأكلها النار، أحرقتها النار في ومضةٍ غاضبةٍ، ضربت المرأة النار بالمسعر بعنفٍ حتى إن النار كانت على وشك الانطفاء حين وصل صاحب المنزل وهدأ ذراعها.

بعث الرجل الغامض الحياة في السنة اللهب وجلس إلى جانب المرأة وشرح لها: "لم تفهمي"

كانت على وشك إطفاء النار لأنها ضربتها وبعثرت جمارها. وهذا عقاب لا تستحقه. أكلت النار الجذور لأنها اعتقدت أن المرأة قدمتها إليها. وقبل ذلك كانت النار هي التي سببت سقوط السمكة عدة مرات على رأس المرأة لا لتؤذيها بل لتخبرها أنه بوسعها أن تطبخها.

-أطبخها؟ ماذا يعني هذا؟

وهكذا علم صاحب المنزل المرأة كيف تتحدث مع النار وتشوي السمك على الجمر وتأكله بشهية.

## الموسيقا

حين أصدر الروح (بوبي - جوكو) لحناً بزغت الذرة من الأرض دون توقف، نيرةً وقدمت قروناً كبيرة مليئة بالحبوب.

قطفت امرأة الذرة بطريقة خاطئة، شدت قرناً بقوة فأذته. انتقم القرن وجرح يدها. أهانت المرأة (بوبي جوكو) ولعنت صفيرة.

حين أغلق بوبي جوكو شفتيه ذبلت الذرة ويبست ولم يُسمع بعد ذلك الصفير المرح الذي جعل حقول الذرة تتبرعم ومنحها القوة والجمال. كان شعب "البورورو" يحرق الذرة بألم ومشقة ويحصد محاصيل بائسة.

إن الأرواح تعبر عن نفسها بالصفير وحين تبزغ النجوم في الليل تحييها بهذه الطريقة، وتستجيب كل نجمة إلى نغم هو اسمها.

## الموتى

بنى "كومومكز" هندياً المودوك الأول قرية على ضفة نهر. ورغم أنها تحتوي مساحة واسعة لتتحرك فيها الدببة وتنام، شكّت الأيائل أن الطقس بارداً جداً ولا يوجد عشب كاف.

بنى "كومومكز" قرية أخرى بعيدة وقرّر أن يقضي نصف سنة في كل من القريتين. وقسم السنة من أجل هذا إلى ستة أشهر صيفية وستة أشهر شتوية وخصّص الشهر المتبقي للحركة.

مضت الحياة هانئة في القريتين، ازدادت الولادات بشكل مدهش إلا إن الموتى رفضوا أن يخرجوا من القرية فأصبح عدد السكان كبيراً ولم يعد يوجد طريقة لإطعامهم.

قرّر "كومومكز" أن يتخلّص من الموتى. كان يعرف أن رئيس أرض الموتى رجل عظيم لا يسيء معاملة أحد.

حين توفيت ابنة "كومومكز" الصغيرة غادرت بلاد المودوك كما أمر والدها.

يائساً، استشار "كومومكز" الشيهم فقال له:

"أنت اتخذت القرار ويجب أن تتحمّل عواقبه كأى شخص آخر".

إلا أن "كوموكمز" سافر إلى أرض الموتى البعيدة وطالب باسترداد ابنته.

فقال له الهيكل العظمي الكبير الذي كان مسؤولاً هناك: "إن ابنتك هي ابنتي الآن ليس فيها لحم ولا دمٌ فما الذي تستطيع أن تفعله في بلادك؟"

قال كوموكمز: "أريدها مهما حصل".

فكر رئيس الموتى وقتاً طويلاً.

قال له محذراً: "خذها. ستمشي خلفك، وعندما تقترب من أرض الأحياء سيعود اللحم ويغطي عظامها. ولكن لا تلتفت إلى الورا إلى أن تصل، أتفهم؟ سأمنحك هذه الفرصة".

انطلق "كوموكمز" ومشى الفتاة خلفه.

لمس يدها عدة مرات. كان لحمها ينمو ودفنها يزداد في كل مرة. ولم ينظر أبداً إلى الخلف ولكن حين ظهرت الغايات الخضراء في الأفق لم يستطيع أن يتحمل القيد فأدار رأسه ملتفتاً، عندئذٍ تفتتت حفنة من العظام أمام عينيه.

## الانزعاج

كان من عادة الميت أن يعود بعد خمسة أيام في البيرو. كان يشرب كأساً من "الشيكّا" ويقول: "أنا الآن خالد".

كان يوجد كثير من البشر في العالم. كانت المحاصيل تزرع في قاع الجروف وعلى حواف المهاولي ومع ذلك لم يكن الطعام كافياً.

بعد ذلك مات رجل في "هوروتشيري".

اجتمعت القبيلة كلها في اليوم الخامس لتستقبله. انتظروه من الصباح إلى ما بعد حلول الليل، بردت الصحون الساخنة وبدأ النوم يطبق الجفون. لم يعد الرجل الميت.

جاء في اليوم التالي، كان الجميع غاضبين، صرخت زوجته التي شعرت بالإهانة أكثر من الجميع: "أنت لا تصلح لشيء، دائماً لا تصلح لشيء. يتقيد جميع الأموات بالمواعيد إلا أنت".

تلثم المنبعث مطلقاً بعض الأعذار إلا أن المرأة ضربته بعرنوس ذرة على رأسه وتركته في الخارج ممدداً على الأرض. عندئذ غادرت الروح الجسد وطارَت متحوّلة إلى حشرة سريعة تصدر طنيناً ولم تعد أبداً. منذ ذلك الوقت لم ينبعث أي ميت ليختلط بالأحياء وينافسهم على طعامهم.

## المصر

عاقبت امرأة عجوز من "التوكونا" بعض الفتيات اللواتي لم يقدمن لها الطعام؛ نزعت في الليل عظامهن من سيقانهن والتهمت لبيها وهكذا لم تستطيع الفتيات أن يمشين أبداً.

تلقت العجوز في طفولتها وبعد ولادتها حالاً قوى العلاج والانتقام من الضفدعة. علمتها الضفدعة أن تشفي وتقتل، أن تسمع أصواتاً لا تُسمع وأن ترى ألواناً لا تلمح. تعلمت أن تدافع عن نفسها قبل أن تكتسب النطق. وقبل أن تتمكن من السير عرفت كيف تكون حيث لم تكن لأن رماح الحب والكراهية تخترق حالاً الأدغال الأكثر كثافة والأنهار الأكثر عمقا.

حين قطع "التوكوناز" رأسها جمعت العجوز دمها بيديها ونفخته باتجاه الشمس وصرخت:

- "روحي تدخل إليك أيضاً".

منذ ذلك الوقت يتلقى أي شخص يمارس القتل في جسده ودون أن يريد أو يعرف، روح ضحيته.

## الضحك

رأى الخفاش الذي كان معلقاً إلى غصن من قدميه محارباً من  
"الكايابو" منحنيّاً على جدول .

أراد أن يصادقه .

نزل إلى المحارب وعانقه ، وبما أنه لم يكن يعرف لغة "الكايابو"  
تحدث معه بيديه ، سحبت مداعبات الخفاش من الرجل الضحكة  
الأولى ، وكلما كان يضحك كان يدبُ فيه الضعف . ضحك كثيراً إلى أن  
فقد كل قوته وسقط مغشياً عليه .

حين علم القرويون بذلك غضبوا كثيراً ، حرق المحاربون كومة من  
الأوراق الجافة في كهف الخفاش وأغلقوا مدخله .

بعد ذلك تناقشوا ، قرّر المحاربون أن الضحك يجب أن يقوم به  
الأطفال والنساء فقط .

## الخوف

نادتهم الأجساد التي لا تُصدّق إلا أن رجال "النيفاكل" لم  
يتجاسروا على الدخول . شاهدوا النساء تأكل وتبتلع لحم السمك بالفم  
الأعلى بعد أن تمضغه بالفم الأسفل . كان يوجد أسنان بين سيقانهن .

وهكذا أشعل الرجال نيراناً ونادوا النساء وغنوا ورقصوا معهن .

جلست النساء في حلقة .

رقص الرجال طوال الليل ، تموجوا ، التفتوا ، طاروا كالدخان  
والعصافير . وحين جاء الفجر سقطوا أرضاً مغشياً عليهم ، رفعتهم  
النساء بلطف وقدمت لهم الماء ليشربوا .

كانت الأرض منقطة بالأسنان حيث كن يجلسن .

كانت النساء في الأزمنة الغابرة تجلس في مقدمة المركب والرجال في مؤخرته، كانت النساء تصطاد الحيوانات والأسماك، ويغادرن القرية ويعدن إليها أثنى شئن. كان الرجال يبنون الأكواخ، يحضرون الطعام، يغذون النار ليتردوا البرد ويدبغون الجلود من أجل الملابس.

هكذا كانت حياة هنود "الأونا" و"الياغان" في تيبيرا ديل فويغو، إلى أن جاء يوم قتل فيه الرجال جميع النساء، وارتدوا الأقنعة التي صنعتها النساء لتخيفهم بها.

أعفيت فقط الفتيات حديثات الولادة من القتل. حين كن يكبرن كرر القتل لهن أن قدرهن خدمة الرجال، صدقن ذلك، أيضا بناتهن صدقن ذلك وبنات بناتهن.

## القوة

في الأراضي التي وُلد فيها نهر "جوروا" كان "ميني" العجوز مالك الذرة يقدم الحبوب مشوية وهكذا لم يستطع أحد أن يزرعها.

نجحت العظاءة في سرقة حبة طازجة منه، قبض عليها العجوز "ميني" ونزع حنكها وأصابها إلا أنها نجحت في تخبئة الحية وراء ضرسها الخلفي، ثم بصقتها في الأرض المشاع. كان فكها كبيرا وأصابها طويلة جدا صعبة الانتزاع.

كان العجوز ميني مالك النار أيضاً. انسلت الببغاء إلى جوارها، بدأ تصرخ بصوت مرتفع .

ضربها العجوز ميني بكل شيء كان في متناول يده إلا أن الببغاء صدت القذائف إلى أن شاهدت عصا مضاءة في طريقها إليها، عندئذ أمسكتها بمنقارها الذي كان ضخماً كمنقار الطوقان وهربت.

تبعها سيل من الشرر. أحرقت الجمار، التي كانت تهويها الرياح، منقارها، إلا أنها كانت قد وصلت إلى الأشجار حين قرع العجوز ميني طبله وحرك عاصفة مطرية.

وضعت البيغاء العصا المحترقة في جوف شجرة تحت حماية الطيور الأخرى، وطارَت راجعة إلى المطر. أراحت المياه حروقها إلا أن منقارها قصر وتحدب وما يزال يظهر فيه ندبة بيضاء سببتها النار. حمت الطيور النار المسروقة بأجسادها.

## الحرب

حين طلع الفجر، أعلن البوق من الجبل أن الوقت قد حان للقوس والنشاب وبنادق النفخ.

حين خيم الليل لم يبق شيء في القرية سوى الدخان.

استلقى رجل بين الموتى دون أن يتحرك، لطخ جسده بالدم وانتظر. كان الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من شعب "البلاوينغ".

حين ذهب العدو نهض الرجل وتأمل عالمه المدمر، سار بين البشر الذين تقاسموا معه الجوع والشبع، وبحث بلا جدوى عن شخص أو أثر لم يُمخ. خدره الصمت المرعب، أمرضته رائحة الدم والنار، شعر بقرف من كونه حياً فرمى نفسه بين أبناء قومه.

مع الضوء الأول جاءت النور، لم يبق شيء داخل ذلك الرجل سوى ضباب، وتوق للنوم، وبقي أيضاً، كي يلتهم.

إلا أن ابنة الكندور فتحت باباً عبر الطيور آكلة الجثث المتحلقة، ضربت بقسوة بجناحيها وغاصت، فتمسك بقدميها وأخذته ابنة الكندور بعيداً.

كان رجل من "الأنويت" يصطاد رنةً حين ظهر خلفه فجأة نسر.  
قال النسر: "لقد قتلتُ شقيقك، إذا أردت أن تنقذ نفسك يجب  
أن تقيم حفلة في قريتك ليغني الجميع ويرقصوا"  
-حفلة؟ غناء؟ ما هذا؟ ما هو الرقص؟  
-تعال معي.

أراه النسر حفلةً. كان يوجد الكثير من الطعام الجيد والشراب،  
والطبل يقرع بقوة كقوة قلب أم النسر العجوز، وإيقاعه يرشد أبناءها  
عبر المساحات الواسعة للجليد والجبل. كانت الذئب والثعلب  
وضيوف آخرون يرقصون ويغنون إلى شروق الشمس.  
عاد الصياد إلى قريته.

فيما بعد، وبعد وقت طويل، عرف أن أم النسر العجوز وجميع  
عجائز العالم النسري كانوا أقوياء ورشيقين وسريعين. تعلم البشر  
أخيراً أن يُغنوا ويرقصوا وأرسلوا إليهم، من بعيد، مباحج أدفأت الدم.

## الخبير

حين انخفضت مياه نهر "الأورينوكو" أحضرت القوارب الكاربينيين  
بغفؤوس قتالهم.

لم يمتلك أحد فرصةً ضدّ أبناء البِغُور. دمروا القرى وصنعوا العيدان  
من عظام ضحاياهم، لم يخشوا أحداً؛ كان الشيء الوحيد الذي زرع  
الهلع فيهم شبح ولد في قلوبهم.

كان الشبح ينتظرهم خلف الأشجار، هدم جسورهم ووضع في ممراتهم  
نباتات معترضة ومتشابكة، كان يسافر في الليل، وليحرفهم عن الطريق  
كان يمشي إلى الخلف. كمن في المنحدر الذي تحطمت عليه الصخور، في



الطين الذي غاص تحت أقدامهم، في ورقة النبات السام، في لسة العنكبوت. بنفس صرعهم، أدخل الحمى عبر آذانهم وسرق منهم الظل. لم يكن الماء، إلا أنه يؤدي. لم يكن موتاً، إلا أنه يقتل. كان اسمه "كاينما" ولد بين الغزاة لينتقم للمغزوين.

## المدينة المقدسة

أمر "ويراكوتشا"، الذي هرب من الظلمة، الشمس أن يرسل فتاة وفتى إلى العالم ليضيئا الطريق للعميان.

وصل ولدا الشمس إلى ضفة بحيرة "تيتيكاكا" وانطلقا عبر الوهاد "الآندية". كانا يحملان سارية ذهبية. أينما غاصت من الضربة الأولى كانا يعثران على مملكة جديدة. وعلى العرش كانا يتصرفان كوالدهما الذي يمنح الضوء والوضوح والدفء ويسقط المطر والندى ويقوي المحاصيل ويكاثر القطعان ولا يترك يوماً يمر لا يزور فيه العالم.

حاولا أن ينصبا السارية في كل مكان إلا أن الأرض كانت تعيدها. اجتازا المرتفعات وعبرا الشلالات والهضاب، كانت أقدامهما تغير أي شيء فتنحول الأرض القاحلة إلى خصبة وتجف المستنقعات وتعود الأنهار إلى مجاريها. في الفجر كان يرافقهما إوز أبيض وفي المساء النسور.

غرس ولدا الشمس أخيراً السارية قرب جبل "وانا كوري" حين ابتلعتهما الأرض صعد قوس قزح في السماء.

بعد ذلك قال الآنكي الأول لأخته وزوجته:

- لنجمع البشر سوية.

كان الوادي الذي يمتد بين الجبال والروج مغطى بأشجار خفيضة. ولم يكن أحد يمتلك منزلاً.

كان الناس يعيشون في الثغور أو خلف الصخور يقتاتون على الجذور ولم يعرفوا كيف ينسجون القطن أو الصوف ليحموا أنفسهم من البرد.

تبع الجميع ولدي الشمس. آمن الجميع بهما وعرف الجميع من تألق كلمتهما وأعينهما أن ولدي الشمس لم يكونا كاذبين. رافقوهما إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه مدينة كوزكو العظيمة التي لم تكن قد ولدت بعد.

## الرحلة

جاء الكويتشيون الذين ينتمون إلى المايا من الشرق.

حين وصلوا إلى الأراضي الجديدة حاملين آلهتهم على ظهورهم خافوا من أنه لن يوجد فجر.

تركوا السعادة خلفهم في "تولان" ووصلوا مقطوعي النفس بعد رحلة طويلة مؤلمة. انتظروا عند حافة غابة "إزماتشي" صامتين محتشدين معاً دون أن يجلس أحد منهم أو يمتدّد ليسترخح إلا أن الوقت مرَّ وخيم الليل.

أخيراً ظهر نجم الصباح في السماء.

حزن الهنود الكويتشيون بعضهم ورقصوا، ثم، وكما يقول الكتاب المقدس: أشرق الشمس كرجل.

منذ ذلك الوقت يجتمع الهنود الكويتشيون في نهاية كل ليلة ليحيوا نجم الصباح ويراقبوا ولادة الشمس حين يكون الشمس على وشك الظهور، يقولون:

— لقد جئنا من هناك.

— أرض الميعاد.

تنقلوا لأكثر من قرنين ليلاً ونهاراً، بلا نوم، عراً ومسحوقين. ذهبوا للبحث عن مكان تمتدّ فيه الأرض بين القصب والسعادي.

ضاعوا مراراً. تبعثروا وتجمعوا ثانيةً. ضربتهم الرياح، اندفعوا إلى الأمام وانطلقوا ارتطموا ببعضهم وتدافعوا، سقطوا من الجوع ونهضوا، سقطوا ثانية ثم نهضوا من جديد. وفي الإقليم البركاني حيث لا ينمو عشب أكلوا لحم الثعابين.

حملوا رايةً وعباءة الإله الذي تحدث مع الكهنة في الحلم ووعدهم بمملكة من الذهب وريش الكتزل قال لهم: "ستخضعون جميع الشعوب والمدن من الماء إلى الماء، وليس بالسحر بل بشجاعة القلب وقوة الذراع".

حين اقترب من البحيرة المتلألئة تحت شمس الظهيرة بكى الشعب الأزتيكي للمرة الأولى. كان هناك جزيرة الصلصال الصغيرة: فوق الصبار الشوكي والأسل والأعشاب البرية كان النسرين يفرد جناحيه.

حين رآهم قادمين أخفض رأسه، كان هؤلاء المنبوذون المحتشدون على حافة البحيرة، القذرون، المرتجفون، الشعب المختار الذي ولد في الأزمنة الغابرة من أفواه الآلهة.

رحب بهم هوينزيلو بوتشلي: "هذا هو مكان راحتنا وعظمتنا". تعالى رنين صوته: "أمر أن تدعى هذه المدينة التي ستكون ملكة على جميع المدن الأخرى "تينوشيتلان": "هذه هي المكسيك".

## أخبار

حذر الذي خلق الشمس والقمر "التينوز" وطلب منهم أن يراقبوا الموتى.

يختبئ الموتى في النهار ويأكلون ثمار الجوافة، ولكن في الليل يتجولون ويتحدون الأحياء. كان الرجال الموتى يطلبون المبارزة والنساء الميتات ممارسة الحب. كانوا يختفون فوراً في المبارزات، وفي ذروة الحب كان يجد العاشق نفسه وحيداً ولا شيء بين ذراعيه. على المرء أن

يتحسّس البطن بيده قبيل أن يقبل مبارزة رجل أو النوم مع امرأة لأن الموتى لا يمتلكون سرّاً.

حذر إله السماء "التينوز" أيضاً أن يحترسوا من البشر الذين يرتدون ثياباً كثيرة.

صام الزعيم كايسميو لمدة أسبوع وكان صادقاً في كلامه : أعلن الواحد اللامرئي، الذي له أم ولا بداية له أن متعة الحياة ستكون قصيرة. سيأتي رجال يرتدون الملابس وسوف يهيمنون ويقتلون.

## بيت عنكبوت

حلم كاهن "السيو" شارب الماء أن مخلوقات أجنبية تنسج بيت عنكبوت ضخم جدا حول شعبه. استيقظ عارفاً أن هذا سيحدث وقال لشعبه: "حين يحدث هذا ستعيشون في منازل رمادية مربعة على أرض عارية وقرب تلك المنازل الرمادية المربعة ستموتون من الجوع".

## النبي

أصغى الكاهن - اليفور "لليوكاتان" إلى رسالة الآلهة وهو ممدد على الحصير. تحدثوا معه عبر السقف بلغة لم يكن يعرفها أحد. تذكر شيلام بيلام، الذي كان الناطق باسم الآلهة ما لم يحدث بعد:

"سيتبعثر في أنحاء العالم النساء اللواتي يغنين والرجال الذين يغنون.. لا أحد سينجو.. لا أحد سينقذ. سيسود البؤس في سنوات حكم الجشع.. سيحوّل الرجال إلى عبيد. حزيناً سيكون وجه الشمس.. سيخلو العالم من السكان. سيصبح صغيراً وذليلاً".

# عالم جديد قديم

## 1492 م: البحر المحيط

### مسار الشمس إلى الأنديز

النسائم عذبة وعليلة كالتى يجود بها ربيع إشبيلية والبحر يشبه نهرا الوادي الكبير. لكن حالما ترتفع الموجة سرعان ما يصيبهم دوار البحر فيتقيؤون وهم مضغوطون في مقدمات السفن، الرجال الذين يشقون البحر المجهول، البحر الذي بلا إطار، على متن ثلاث سفن صغيرة متجاورة. رجال، قطرات صغيرة في الريح. ولنفترض أن البحر لا يحبهم؟ الليل يخيم على السفن الشراعية، هل ستؤرجحها الريح؟ يقفز الأدورادو وهو يطارد سمكة طائرة على سطح السفينة ويزداد الهلع. لا يُقدّر الطاقم العطر الزعترى للبحر الذي يتموج لا مباليا، ولا يصغي إلى ضجيج النوارس وطيور الطيش التي تجيء من الغرب. ذلك الأفق: هل تبدأ الهاوية من هناك؟ هل ينتهي البحر؟

عيون تشعّ منها الحمى لبحارة ضربهم الطقس في ألف رحلة، أعين لامعة لمجرمين مزمنين يُجرّون من السجون الأندلسية إلى السفن بالقوة: هذه الأعين لا ترى الانعكاسات النبوية للذهب

والفضة في زبد الأمواج، ولا في طيور الجبال والأنهار التي تُحلّق فوق السفن، ولا في الأسل الأخضر والأغصان الكثيفة التي تعلق بها القواقع، ولا في الطحلب البحري. أهذا قاعُ الهاوية حيث يبدأ الجحيم بالاشتعال؟ إلى أي نوع من الأنياب ستقذف الرياح التجارية<sup>11</sup> هؤلاء الرجال الصغار؟ يحدّقون بالنجوم باحثين عن الله، إلا أن السماء غامضة كهذا البحر الذي لم يُسبر من قبل. يسمعون زئيره، إنه البحر الأم، ذو الصوت الأجش، يجيب الرياح بعبارات الإدانة الأبديّة. طبول غامضة تقرع في الأعماق، يرسمون إشارة الصليب أو يصلون ويتمتمون: الليلة سننسحب من العالم، الليلة سننسحب من العالم.

## 1492 م: غواناهاني

### كولومبس

يركع على ركبتيه باكياً، يقبل الأرض، يخطو إلى الأمام، يترنح لأنه لم ينم منذ شهر، ويقطع رؤوس بعض الأغصان بسيفه.

بعد ذلك يرفع الراية، مستنداً إلى ركبة واحدة بعينين مرفوعتين إلى السماء يلفظ ثلاث مرات اسمي إيزابيلا وفرديناند. إلى جانبه كان الناسخ رودريغو إيسكوبيدو، البطئ بالكتابة، يخط السند:

بدءاً من هذا اليوم يصبح كلّ شيء ملكاً لهذين الملكين البعيدين: البحر المرجاني، الشواطئ، الصخور المخضرة من الطحالب، الغابات، البيغاوات، والبشر العراة الذين لا يعرفون شيئاً إلى الآن عن الثياب والخطيئة أو النقود، والذين كانوا ينظرون إلى المشهد بحذر.

<sup>11</sup> رياح تهب بإطراد نحو خط الإستواء.

يترجم لوي توغي أسئلة كريستوف كولومبس إلى العبرية: "هل تعرفون مملكة الخان العظيم؟ من أين هذا الذهب الذي تعلقونه على أذانكم وأنوفكم؟".

يحدق به الرجال الذين تشبه جلودهم ورق الغار بأفواه فاغرة، يحاول المترجم أن يستخدم ذخيرته من اللغة الكلدانية: "الذهب؟ المعابد؟ القصور؟ ملك الملوك؟ الذهب؟".

يحاول بعد ذلك باللغة العربية، بالقليل الذي يعرفه منها: "اليابان، الصين؟ الذهب؟".

يعتذر المترجم لكولومبس باللغة القشتالية. يشتم كولومبس باللغة الجنوبية ويرمي أوراق اعتماده على الأرض، وهي مكتوبة باللاتينية وموجهة إلى الخان العظيم. يراقب الرجال العراة غضب المتطفل ذي الشعر الأحمر والبشرة الخشنة الذي يرتدي قبعة مخملية وثياباً برّاقة جداً.

حالا سينتشر الخبر في جميع الجزر.

"تعالوا وشاهدوا الرجال الذين جاؤوا من السماء. أحضروا لهم الطعام والشراب".

## 1493م: برشلونة

### يوم المجد

يعلن عن حضوره المنادون بأبواقهم. تجلجل الأجراس، وتُقرع الطبول مصدرّة إيقاعات احتفالية. يصعد الأميرال الذي جاء مؤخراً من الأنديز الدرجات الحجرية، ويتقدّم على السجادة القرمزية وسط الانبهار المترف لتصفيق حاشية البلاط الملكي. يصل الرجل الذي جعل نبوءات القديسين صادقة إلى المنصة، يركع، ويقبل يدي الملكة والملك.

خلفه تتقدّم الغنائم، تتوهج على الأطباق قطع الذهب التي استبدلها كولومبس بمرايا صغيرة وقلنسوات حمراء في الحقائق البعيدة

التي بَزَعَتْ حديثاً من البحر. على الأغصان والأوراق الذابلية عُرِضت جلود العظاءات والثعابين، ودخلت خلفها مرتجفة وباكية الكائنات التي لم تُشاهد أبداً من قبل. إنهم القلة التي نجت من نزلات البرد وداءِ الحصبة والقرف من الطعام المسيحي والرائحة السيئة. ليسوا عراةً كما كانوا حين اقتربوا من السفن الشراعية الثلاثة وأسروا. كانوا مكسوين بالسراويل والقمصان وبعض الببغاوات التي وُضِعَتْ على أيديهم ورؤوسهم وأكتافهم؛ تبدو الببغاوات بريشها الذي سَرَقَتْهُ الريح القذرة للرحلة هاجعة كالرجال. لم يبق على قيد الحياة أحد من الأطفال والنساء الذين أسروا.

سُمِعَتْ تمتماتٌ معاديةٌ في الصالون، الذهب قليل ولا أثر للفلفل الأسود، لجوزة الطيب والثوم أو الزنجبيل ولم يُحْضِر كولومبس أية حوريات ملتحياتٍ أو بشرًا لهم أذيال أو أشخاصا لهم عين واحدة أو رجل واحدة، وتلك القدم الكبيرة بما يكفي لتحمي من الشمس الحامية حين تُرْفَع إلى الأعلى.

## 1493م : روما

### عهد آدم

في الضوء الخافت لبني الفاتيكان الذي تفوح منه عطور شرقية يملئ البابا أمرا رسمياً.

مرّ وقت قصير منذ أن مُنِحَ رودريغو بورغيا من كسافيتا التابعة لفالنسيا اسم الإسكندر الرابع، ولم تمض سنة بعد على اليوم الذي اشترى فيه نقدا الأصوات السبعة التي كانت تنقصه في المجمع المقدس.

يخصص الإسكندر معظم وقته للانغماس في اللذات ولا يفكر بسر الثالوث المقدس. الجميع يعرفون أنه يفضل القداسات القصيرة جداً ما عدا تلك القداسات التي يحتفل بها مهرجه "غابرييلينو" وهو مقنّع



في غرفته الخاصة، ويعرف الجميع أن البابا قادر على إعادة تسيير  
موكب عيد القربان ليمر تحت شرفة امرأة جميلة.

إنه قادر أيضاً على تقطيع العالم كأنه فَرُوج: يرفع يداً ويرسم حداً  
من رأس الكوكب إلى ذيله، عبر البحر المجهول ويسلم ممثل الله إلى  
الأبد كل ما اكتشف أو هو قيد الاكتشاف، في غرب هذا الحد، إلى  
إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأرسغواني وإلى ورثتهم على العرش  
الأسباني، ويعهد إليهما بإرسال خبراء وحكماء ومثقفين، يخشون الله  
وطيبين إلى الجزر والأراضي المكتشفة أو التي ستُكتشف ليرشدوا  
السكان الأصليين إلى العقيدة الكاثوليكية وإلى العادات الحسنة. وتعود  
ملكية أي شيء يكتشف شرق الحد إلى التاج البرتغالي.

ألم وابتهاج أسرع تُنشر: كان كولومبس في الأندلس يجهز لرحلة  
ثانية إلى الأقاليم التي ينمو فيها الذهب عناقيد على الكرمة وتنتظر  
الأحجار الكريمة في جماجم العظام.

## 1493م: ويهوسينكو

### أين الحقيقة؟ أين الجذور؟

ويهوسينكو، مدينة الموسيقى لا الحرب، التي تقع في وادي  
تلاهكالا، هاجمها الأزتيكيون في ومضةٍ ودمروها وقدموا الأسرى  
أضاحي لآلهتهم.

في ذلك المساء جمع ليكايهواتزن ملك ويهوسينكو، الشعراء من  
مناطق أخرى. تحدث الشعراء في حدائق القصر عن الزهور والأغاني  
التي جاءت إلى الأرض، إقليم اللحظة الهاربة، والتي جاءت من  
داخل السماء والتي لا تستمر إلا هناك في منزل واهب الحياة.  
يتحدث الشعراء ويشكون:

هل يمكن أن يكون الرجال حقيقيين؟

هل ستكون أغنيتنا حقيقية غداً؟

تتبع الأصوات بعضها الآخر. حين يخيم الليل، يشكرهم ملكُ ويهوسينكو ويودعهم:  
نعرفُ شيئاً حقيقياً  
وهو قلوبُ أصدقائنا.

## 1493م : باستو

### الجميع يدفعون الجزية

وصل جابي ضرائب إمبراطورية الأنكا حتى إلى تلك المرتفعات البعيدة في الشمال.

لم يكن لدى شعب "الكويلاسينكا" شيءٌ يدفعه، ولكن في هذه المملكة الواسعة تدفع جميع القبائل الجزية سلعاً أو عملاً. لا أحد، مهما كان بعيداً أو فقيراً، يستطيع أن ينسى من هو المسؤول.

عند سفح البركان يخطو زعيم "الكويلاسينكا" إلى الأمام ويضع أسطوانة خيرزانية في يد مبعوث كوزكو. كانت الأسطوانة مليئة بالقمل.

## 1493م : جزيرة سانتا كروز

### تجربة ميغيل كينو من سافونا

ينتشر ظل الأشرعة على البحر. تعوم أعشاب الخليج وقناديل البحر التي تدفعها الأمواج على سطح الماء متجهة إلى الشاطئ.

كان كولومبس يتأمل عن ظهر إحدى السفن الشواطئ البيضاء التي نصب عليها مرة ثانية الصليب والمشنقة. هذه هي رحلته الثانية، لا يعرف كم ستطول إلا أن قلبه يخبره أنها ستنتجح. ولماذا لا يصدق الأميرال هذا؟ أليس من عادته أن يقيس سرعة السفينة ويده على صدره تُحصى خفقات قلبه؟

في سفينة أخرى وفي حجرة الكابتن كانت فتاة شابة تُظهر أسنانها. حين يمد ميكيل سوفيو يده إلى ثديها تخدشه وترفسه وتصرخ. حصل عليها ميكيل منذ فترة كهدية من كولومبس.

يجلدها بحبل، يضرب بقسوة على رأسها ومعدتها وساقها. يتحول صراخها إلى أنين وأنينها إلى عويل. وفي النهاية، كان كل ما يمكن سماعه هو مجيء وذهاب النوارس وصرير الأخشاب المهترئة، وبين فينة وأخرى كانت الأمواج تُدخل رذاذاً عبر فتحة الرمي.

يرمي ميكيل نفسه على الجسد النازف ويضغط، يشهق ويصارع. الهواء يفوح برائحة القار والملح الصخري والتعرق. بعد ذلك، وفجأة تثبت الفتاة، التي بدا كأنه أعْمى عليها أو ماتت، أظافرها على ظهر ميكيل ثم تلتفّ حول قدميه وتدخرجه في عناقٍ عنيف.

حين يقذف ميكيل، بعد وقت قليل، لا يعرف أين هو، وما الذي حدث. شاحباً، خلص نفسه منها ورماها بعيداً بقبضته.

يتعثّر على سطح السفينة، بغم فاغر يأخذ نفساً عميقاً من النسيم البحري، ثم يقول بصوتٍ مرتفعٍ وكأنه يعلن حقيقةً أبدية: "إن جميع النساء الهنديات عاهرات".

## 1495م: سالامنكا

### الكلمة الأولى من أميركا

ينشر إيليو أنطونيو نبريخا، عالم اللغات، قاموسه الإسباني - اللاتيني هنا. يتضمن القاموس المفردات الأميركية الأولى للغة القشتالية:

”كانو“: قارب مصنوع من لوح خشبي واحد.

جاءت الكلمة الجديدة من جزر الآنتيل.

رَحِبْتُ هذه القوارب غير الشراعية المصنوعة من جذوع أشجار السيبية بكريستوف كولومبس. جاء الرجال من الجزر، يجذفون القوارب بشعر أسود طويل وأجسادٍ موشومةً برموز الزنجفر، اقتربوا من السفن الشراعية وقدموا مياهاً عذبةً واستبدلوا الذهب بنوع من الأجراس التنكية التي تباع بقطعةٍ نقديةٍ نحاسيةٍ واحدةٍ في قشتالة.

## 1495م: لا إيزابيلا

### كاأونابو

يجلس السجين منفصلاً ومنعزلاً عند مدخل منزل كريستوف كولومبس، كان مقيداً بالأغلال من كاحليه ورسغيه.

كان هذا كاأونابو الذي أحرق حصن نافيداد الذي بناه أميرال البحر حين اكتشف جزيرة هاييتي. أحرق الحصن وقتل ساكنيه ولم يتوقف الأمر عند ذلك؛ عاقب لمدة عامين بالنشأب الأسباب الذين كان يصادفهم في منطقته الجبلية ”سيبو“ حيث جاؤوا ليصطادوا الذهب والبشر.

زاره ألونزوا أوخيدا الذي تمرّس في الحروب ضد المغاربة بحجة السلام. دعاه إلى ركوب حصانه ثم قيده بأغلال من الحديد المصقول قائلاً: ”هذه كانت جواهر يرتديها ملوك قشتالة في أثناء حفلاتهم الراقصة“.

يمضي الزعيم ”كاأونابو“ الآن الأيام جالساً قرب الباب، عيناه مثبتتان علي لسان ضوئي يغزو الأرض عند الفجر ويتراجع ببطء في المساء. لا يُرْفُ له جفن حين يأتي كولومبس، أما حين يظهر ”أوخيدا“ فيحاول الوقوف ويحييه بانحناءةٍ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يهزمه.

## 1496م: لاكونسيون

### انتهاك المقدّسات

يحضر يارثولوميو كولومبوس ، شقيق كريستوفر وقائم مقامه حرق لحم بشري. ستة رجال يحترقون في محرقة هاييتي.

يسأل الجميع من الدخان، يحترق الستة كعقوبة ودرس: لقد دفنوا صور المسيح والعذراء التي منحها لهم رامون باني لتحميهم وتنصحهم. علمهم فراي رامون أن يصلوا على ركبهم ويرددوا السلام المريمي والصلاة الربانية وأن يتحصنوا باسم يسوع ضد الإغراء والأذى والموت.

لم يسألهم أحد لماذا دفنوا الصور. كانوا يأملون أن هذه الآلهة الجديدة ستخصب حقول الذرة والمنيهوت واللوبياء.

تضيف النار الدفء إلى الحرارة الرطبة اللاصقة التي تنذر بمطر غزير.

## 1498م: سانتو دومينغو

### الجنة الأرضية

كان كريستوف كولومبوس يكتب رسالة في المساء قرب نهر أوزما. كان جسده يصر من الروماتيزم أما قلبه فكان يقفز من الفرح. كان المستكشف يشرح لصاحبي الجلالة الكاثوليكيين أنه يمتلك دليلاً على أن الجنة الأرضية تقع على حلمة ثدي امرأة.

أدرك هذا منذ شهرين حين دخلت سفنه الشراعية إلى خليج "باريا". هناك بدأت السفن تصعد بهدوء نحو السماء... مبحراً ضد التيار إلى حيث يفقد الهواء وزنه وصل كولومبوس إلى الحدّ الأبعد

للشرق. هنا في أكثر أراضي العالم جمالاً يظهر الرجال الذكاء والبراعة والشجاعة ولا ترتدي النساء الرائعات سوى شعرهن الطويل وعقود اللؤلؤ الملتفة حول أجسادهن. هنا يوقظ الماء العذب النقي الظمأ. الشتاء لا يعاقب والصيف لا يحرق وتداعب النسائم ما تلامسه. الأشجار تهبُّ الظلال المنعشة وتتدلى على مسافة ذراع ثمار فائقة البهجة تثير الجوع.

لكن لا تستطيع أية سفينة أن تبخر خلف هذا الاخضرار والجمال. هذا هو حدّ الشرق، هنا تنتهي المياه والأراضي والجزر. هنا ترفع شجرة الحياة عالياً وبعيداً تاجها الكبير ويزيدُ منبع الأنهار المقدسة الأربعة. يُدعى أحدُ هذه الأنهار "أورينوكو"، وأشك إن كان نهر عظيم وعميق كهذا معروفاً في العالم.

ليس العالم كروياً، العالم حلّمة امرأة؛ تبدأ الحلمة في خليج "باريا" وتصعد إلى نُقطة قريبة جداً من الفردوس السماوي. أما القمة التي تتدفق عليها أنساغ الفردوس فلن يصل إليها أيّ إنسان أبداً.

## لغة الجنة

يسمّي "الكواروس" الذين يعيشون في ضواحي الجنة الأرضية قوس قزح ثعبان العقود، والسماء البحر الأعلى. يسمّون البرق توهج المطر، والصديق قلبي الآخر، والروح شمس الصدر، والبومة سيدة الليلة المظلمة، والعكاز الحفيد المستمر، وبدلاً من: غفرنا لكم. يقولون: نسينا.

## 1499م: غرناطة

### من هم الأسبان؟

بقيت المساجد مفتوحة في غرناطة، بعد سبع سنواتٍ من استسلام معقل العرب الأخير في إسبانيا. كان تقدّم الصليب بطيئاً خلف نصر السيف. قرّر رئيس الأساقفة سيزينيروس أن المسيح لا يستطيع الانتظار.

”المغاربة“، هو الاسم الذي أطلقه المسيحيون الإسبان على إسبانيي الثقافة الإسلامية، الذين عاشوا هنا ثمانية قرون. حُكِمَ على آلاف مؤلفة من الإسبان ذوي الثقافة اليهودية بالنفي. كذلك خيّر المغاربة بين العمادة والنفي، أما بالنسبة للمرتدين المزيّفين فقد أوقدت نيران محاكم التفتيش. إن وحدة إسبانيا، إسبانيا التي اكتشفت أميركا، لن تنتج من حاصل جميع أجزائها.

يُساق فقهاء غرناطة المسلمون إلى السجون بأمر من رئيس الأساقفة سيزينيروس. تلتهم أسنة لهبٍ عالية الكتب الدينية والشعرية والفلسفية، النسخ الوحيدة التي حرست كلمات ثقافة روت هذه الأراضي وعاشت فيها. كانت قصور الحمراء المزدانة بالنقوش تشهد صامتةً على العبودية بينما كانت ينابيعها ما تزال تُقدّم الماء إلى الحدائق.

## 1500م: فلورنسا

### ليوناردو

يعود من السوق حاملاً أقفاصاً متنوعةً على ظهره، يضعها على الشرفة، ويفتح أبوابها الصغيرة وتنطلق الطيور. يراقب الطيور وهي تضع في السماء مرفرفةً بفرح ثم يجلس ليعمل.

يدفئ يده شعاع الظهيرة، وعلى لوح عريض يرسم ليوناردو دافينشي العالم، وفي العالم الذي يرسمه ليوناردو تظهر الأراضي التي اكتشفها كولومبوس وقت الغروب. يبتكرها الفنان كما ابتكر الطائرة والدبابة والمظلة والغواصة ويعطيها شكلاً كما جسّد لغز العذارى وأهواء القديسين. يتخيّل جسد أميركا، التي ما تزال لا تملك اسماً، ويحددها كأرض جديدة وليس كجزء من آسيا.

كولومبوس، الذي كان يبحث عن الشرق اكتشف الغرب. خمّن ليوناردو أن العالم كبير.

## 1506م: فالادوليد

### الرحلة الخامسة

أملى وصيته ليلة أمس وسأل في الصباح إذا وصل مبعوث الملك ثم نام. أطلق أنينا وصدرت عنه كلمات فارغة، ما يزال يتنفس ولكن بصعوبة كأنه يصارع الهواء.

غادر كريستوف كولومبوس عارفاً أنه لا يوجد حباً أو مجد لا يقود إلى ألم. ولكنه، من جهة أخرى لا يعرف أن الراية التي نصبها لأول مرة سوف تترفرف بعد خمسة أعوام فوق مملكة الآرتيك في أراض مجهولة وفوق مملكة الأنكا. تحت السماوات المجهولة للصليب الجنوبي، لا يعرف أنه رغم كل كذبه ووعوده وتهويماته ما يزال مقصراً. الأميرال الأعلى للبحر المحيط ما يزال يؤمن أنه وصل إلى آسيا من الخلف.

لن يُسمّى المحيط بحر كولومبوس، ولن يحمل العالم الجديد اسمه، بل اسم صديقه الفلورنسي أمريكوفسبوتشي، البحار والربان الماهر. إلا أن كولومبوس هو الذي اكتشف لونا مذهباً غير موجود في قوس قزح الأوروبي. فقد بصره ومات دون أن يشاهده.



# 1506م: تينوشيتلان

## الإله الكوني

غزا موكيتزوما تيوكتيبيك.

النار تلتهم المعابد، الطبول تقرع، يصعد السجناء واحداً بعد آخر الدرجات إلى حجر الأضاحي الدائري. يطعن الكاهن كل صدر بالخنجر المقدس وينتزع القلب، يرفعه إلى الأعلى ويريه للشمس الذي يشرق فوق البراكين الزرقاء.

إلى أي إله كان يمنح الدم؟ الشمس يطلبه ليولد كل يوم ويسافر من أفق إلى آخر. إلا أن طقوس الموت المذهلة تخدم أيضاً إلهاً آخر لا يظهر في المخطوطات ولا في الترانيم.

لو لم يحكم ذلك الإله العالم لما كان هناك عبيد وأسياد، إقطاعيات ومستعمرات، لما استطاع تجار الآرتيك أن يغتصبوا ماسة مقابل حبة لوبياء من الشعوب المهزومة، ولا الكاكاو مقابل الأحجار، لما عبر الحمّالون الإمبراطورية الشاسعة حاملين أطنانا من الضرائب على ظهورهم، ولا تمكن العامة من ارتداء الأردية القطنية ولا شربوا الشوكولاته وتزيّنوا بجرأة بريش الكتزل المنوع وخلاليل الذهب ونبات المغنولية والسحلبية الخاصة بالنبلاء، ولسقطت عندها الأفتنة التي تحجب وجوه الزعماء المحاربين: منقار النسر، أنياب النمر، الريش الذي يتموج ويتلألأ في الجو.

تتلطخ درجات المعبد العظيم بالدم وتتكوّم الجماجم وسط الساحة العامة. ليس هكذا فقط يجب أن يتحرك الشمس، لا، أيضاً هكذا سيقرّر الإله السريّ بدلاً من الإنسان تبجيلاً لذلك الإله وعبر البحر يشوي وكلاء محاكم التفتيش الهراطقة في النيران أو يزجون بهم في غرف التعذيب. إنه إله الخوف؛ إله الخوف الذي له أسنان جرد وجناحا عقاب.

# 1511م :نهر كوارافو

## أكوينابا

وصل الكابتن بونس ليون إلى جزيرة بويرتوريكو منذ ثلاثة أعوام على ظهر سفينةٍ شراعية. فتح له الزعيم أكوينابا باب منزله وقدم له طعاماً وشراباً وطلب منه أن يختار إحدى بناته، منحه اسمه أيضاً وبدأ بونسدي ليون يدعو نفسه أكوينابا واستبدل أكوينابا اسمه باسم الغازي.

منذ ثلاثة أيام جاء الجندي سالسيدو وحده إلى ضفة نهر كوارافو . قدّم الهنود ظهورهم له ليعبر عليها. حين وصلوا إلى منتصف النهر رموه عن ظهورهم ثم حملوه باتجاه قاع النهر إلى أن توقف عن الرقص بقدميه، ثم مددوه على العشب.

تحول سالسيدو إلى كرة أرجوانية من اللحم الملوي عُصرت إلى أن تحولت إلى درع تهاجمه الحشرات ويتعفن بسرعةٍ تحت الشمس. نظر إليه الهنود وأيديهم على أنوفهم، توسّلوا ليلاً ونهاراً إلى الغريب طالبين الصفح، إن ما دفعهم إلى ذلك هو الشك. لا فائدة الآن، تذيع الطبول الأخبار الجيدة: "الغزاة غير خالدين".

غداً ستبدأ الانتفاضة بقيادة أكوينابا. سيعود زعيم المتمردين إلى اسمه القديم. سيستعيد اسمه الذي استخدم ليدل شعبه.

كو - كوي، كو - كوي: تصيح الضفادع الصغيرة. أوقفت الطبول التي تدعو إلى الحرب أنغامها الكريستالية الرتيبة المضادة.

## بيسيريللو

أُخْمِدَ العصيان المسلح للزعيمين أكوينايا ومابوداماكا وقُتل جميع الأسرى. عثر الكابتن ديبغو سالزار على المرأة العجوز المختبئة بين الأشجار المتشابكة ولم يطعنها بسيفه. قال لها: "خذي هذه الرسالة إلى الحاكم في كابارا".

فتحت العجوز عينيها قليلاً ثم سحبت أصابعها مرتجفةً.

مشت مترنحة كولد صغير حاملة الظرف كأنه راية.

بينما كانت العجوز ما تزال في المدى المجدي لقوس النشاب أطلق الكابتن سراح بيسيريللو. أمر الحاكم بولس دي ليون أن بيسيريللو يجب أن يحصل مرتين على ما يُدفع لرامي القوس، كخبير أدغال وصياد هنود. ما من عدو لهنود بويرتوريكو أسوأ منه.

أسقط السهم الأول المرأة. بيسيريللو، ذو الأذنين الناتئتين والعينين الجاحظتين، افترسها بعضة واحدة.

توسّلت إليه: "أيها السيد الكلب: أنا أحمل رسالة إلى الحاكم".

لم يفهم بيسيريللو اللغة المحلية فأرته المرأة الظرف الفارغ.

- "لا تؤذني أيها السيد الكلب" -

شَمَّ بيسيريللو الظرف، دار عدّة مرات حول حقيبة العظام التي كانت تتنّ، رفع حافره وبال عليها.

## هاتوي

في هذه الجزر، في مواضع الصلب هذه، الذين يختارون الموت بشنق أنفسهم، أو بشرب السم مع أولادهم، عددهم كبير. لا يستطيع الغزاة أن يتجنبوا هذا الانتقام ولكنهم يعرفون كيف يشرحونه: الهنود متوحشون، يظنون أن كل شيء مشاع كما قال أفيديو. إنهم بشر كسالى بالفطرة وماكرون ويقومون بعمل قليل. وانتحر كثير منهم بالسم كي لا يعملوا وشنق آخرون أنفسهم بأيديهم.

لم يقتل هاتوي الزعيم الهندي لإقليم الكواهايا نفسه، هرب مع قومه من هاييتي في قارب واختبؤوا في كهوف الجبال إلى الشرق من كوبا.

هناك أشار إلى الذهب وقال: "هذا هو إله المسيحيين، إنهم يطاردوننا من أجله ومات آباؤنا وأخوتنا من أجله. دعونا نرقص له، إذا أفرحه رقصنا سيأمرهم هذا الإله بألا يسيئوا معاملتنا".

قبضوا عليه بعد ثلاثة أشهر.

قيدوه وساقوه إلى المحرقة.

قبل أن تشعل النار التي حولته إلى فحم ورمادٍ وعده الكاهن بالمجد والراحة الأبدية إذا وافق على العمادة. سأل هاتوي:

- "هل يوجد مسيحيون في ذلك الفردوس؟"

- "نعم".

اختار هاتوي الجحيم وبدأ الخشب بالصرير.

# 1511: سانتو دومينغو

## الاحتجاج الأول

في الكنيسة المبنية من جذوع الأشجار والمسقوفة بأغصان النخيل يصخب الراهب الدومينيكاني أنطونيو مونتيسينوس كالرعد مستنكراً الإبادة الجماعية.

من منحكم حق استعباد الهنود بهذا النير المتوحش والمريع؟ تقومون بقتلهم لتحصلوا على الذهب كل يوم. أحبّوهم كما تحبون أنفسكم؟ ألا تفهمون هذا؟ ألا تشعرون؟

تعالت همسات الغضب، لم يساوم على هذا فلاحو استريمادوريا ورعاة الأندلس الذين أنكروا أسماءهم وتوارى عنهم وتحركوا عشوائياً حاملين بنادق صدئة على أكتافهم بحثاً عن جبال الذهب والأميرات العاريات في هذه الجهة من المحيط. لم يكن المغامرون الذين تمّ شراؤهم بالوعود على عتبات كاتدرائية إشبيلية، هؤلاء البحارة الذين لسعتهم البراغيث والذين لم يجربوا أية معركة، هؤلاء السجناء المحكومون الذين كان عليهم أن يختاروا بين أميركا أو السجن والمشنقة، لم يكونوا بحاجة إلى قدّاس صفح وعزاء.

- "سوف نبلغ الملك فرديناند عنك. سيتمّ ترحيلك".

رجل حائرٍ يبقى صامتاً جاء إلى هذه الأراضي منذ تسعة أعوام واستملك هنوداً ومناجم ومزارع وأسس ثروة صغيرة. هذا الرجل الذي يدعى بارتولومي لاس كاساس أصبح حالاً الكاهن الأول الذي تمت تسميته في العالم الجديد.

## 1513: كوارিকা

### ليونسيسو

عضلاتها بارزة، لا تتوقف أعينها الصفراء عن اللعان، تلهث. تشهر أنيابها وتعضّ محدثة ثقوبا في الهواء. لا تستطيع أية سلاسل أن تغلها حين تتلقى الأمر بالهجوم.

الليلة، وبأمر من القبطان بالبو ستغرز الكلاب أنيابها في اللحم العاري لخمسين هندياً من بنما.

ستنتزع أحشاءهم وتلتهمهم. ارتكبوا ذنباً فاحشاً وهو اللواط. سيحصل المشهد على قمة الجبل بين الأشجار التي اقتلعتها العاصفة منذ بضعة أيام؛ كان الجنود يتقاتلون بالمشاعل ليحصلوا على المقاعد الأفضل.

يترأس فاسكو نونيز بالبو الاحتفال، أما كلبه ليونسيسو فيترأس الذين ينتقمون من أجل إرضاء الإله. إن جسم ليونسيسو بن بيسيريللو مليء بالندوب؛ كان سيذا سابقاً للأسر والتقطيع. يحصل على راتب ملازم ثان وعلى حصة من كل غنيمة ذهباً وعبيداً.

بعد يومين اكتشف بالبو المحيط الهادي.

## 1513: خليج سان ميكيل

### بالبو

مخوضاً في الماء إلى خصره، يرفع سيفه ويصرخ بالرياح الأربع. يحفر رجاله صليباً كبيراً في الرمل، يُسجل الناسخ فالديرابانو أسماء الذين اكتشفوا لتوهم المحيط الجديد ويرتل الأب أندريه تسبيحة الشكر.

يخلع بالبو درعه الذي يزن خمسين كيلو غراماً، يرمي سيفه بعيداً ويقفز.

يطرطش ويترك الأمواج تجرّه، طائشاً من فرح لا يعيه. يفتح له البحر أبوابه يعانقه ويهدده. رغب بالبو أن يشربه إلى أن يجف.

## 1514: نهر سينو

### المثول أمام القضاء

عبروا كثيراً من المستنقعات والزمن وعذبتهم الحرارة والغابات والبعوض. نفذوا، على أي حال، أوامر الملك بأن لا يهاجموا السكان الأصليين إلا بعد أن يطلبوا منهم الاستسلام. أعلن القديس أوغسطين الحرب ضد الذين يسيئون استعمال حريرتهم لأنها ستجعلهم يشكلون خطراً إذا لم يروّضوا. ولكن، وكما قال القديس أسيدور: "لا تكون الحرب عادلة إذا لم يعلن عنها مسبقاً".

قبل أن يبدؤوا البحث عن الذهب وعن معادن نفيسة بحجم البيض، قرأ المحامي مارتين فردينانديز دي أنكيسو بشكل كامل، دون أن يغفل علامات الترقيم، الإنذار الذي ترجمه المترجم بألم وعلى نحو متقطع.

تحدث أنكيسو باسم الملك فردينانديز والملكة جوانا، ابنته، مروّضي الشعوب البربرية. أوضح لهنود "السينو" أن الله جاء إلى العالم وترك القديس بطرس ممثلاً له وأن وريث القديس بطرس هو البابا المقدّس، وأن البابا المقدس إله الكون منح ملك قشتالة، جميع أراضي الأنديز بالإضافة إلى شبه الجزيرة هذه.

تحمّص الجنود في دروعهم، طلب أنكيسو من الهنود ببطه ووسوسة أن يغادروا هذه الأراضي بما أنهم لا ينتمون إليها، أما

إذا أرادوا البقاء فعليهم أن يدفعوا الجزية لأسيادهم كدليل على الطاعة. يبذل المترجم جهده.

أصغى الزعيمان وهما جالسان لا يرفّ لهما جفن للشخصية الغريبة التي أعلنت لهما أنه في حال الرفض أو التأخير ستُشنّ الحرب عليهما وسيحولان إلى عبيد مع نساتهما وأطفالهما وسيتمّ التخلص منهما بالبيع ، وأن الأسباب لن يكونوا مسؤولين عن الحرب.

أجاب الزعيمان دون أن ينظرا إلى أنكيسو: إن الإله المقدس كريم جدا في التصرف بملكيات الآخرين، ولا بد أنه ثمل ليقرر مصير ما لا يملكه، وأن ملك قشتالة وقح لأنه جاء ليهدّد بشرا لا يعرفهم .

تدفق الدم.

ثم قرئت الخطبة الطويلة في الليل، بدون مترجم وعلى بعد نصف فرسخ من القرى التي سيفاجئها الهجوم. كان السكان المحليون نائمين، لم يسمعوا الكلمات التي أعلنت أنهم مذنبون بجريمة ارتكبت ضدّهم.

## 1514: سانتا ماريا ديل دارين

من أجل حب الفاكهة

جرب غوانزالو فردينانديز أوفيدو، الوافد الجديد، فاكهة العالم الجديد.

بدت له الجوافة متفوقة على التفاح. وبدت "الغوانا" حسنة المنظر وتمنح لباً أبيض مائياً يمتلك طعماً لذيذاً، ومهما أكلت منها لن يصيبك الأذى أو سوء الهضم.

للمامي مذاق يجبرك على لحس أصابعك وتصدر رائحة ذكية. قرّر غوانزالو أن لا شيء أفضل منها.



إلا أنه تذوق ثمار المشملة فغزا رأسه عطرًا لا يمكن مقارنته بالمسك. صحح خطأه وقرر أن المشملة هي أفضل ثمرة ولا يمكن العثور على شيء يضاهيها.

بعد ذلك قشر ثمرة أناناس ففاح من ثمرة الأناناس الذهبية عطر كالذي يصدره الخوخ، يمنح الشهية للبشر الذين نسوا مُتَع الطعام. لم يعثر أوفبيدو على كلمات جديدة بوصف فضائلها. تَمَتَّعُ عينيهِ وأنفه وأصابعه ولسانه. إنها تتفوق على جميع الثمار كما يتفوق ريش الطاووس على ريش جميع الطيور.

## 1515: أنتويرب

### اليوتوبيا

يصخب مغامرو العالم الجديد في حانات الميناء الفلمنكي. يقابل توماس مور، أو مخترع في الواجهة المائية، رافايل هيثلودي، وهو بحار في أسطول أمريكو فسبوتشي، قال إنه اكتشف جزيرة اليوتوبيا قبالة أحد الشواطئ الأميركية.

يروى البحار أنه لا يوجد في اليوتوبيا مال أو ملكية خاصة، هناك يُشجَعُ احتقار الذهب والاستهلاك ولا يفتخر أحد بارتداء الملابس، يقدم الجميع ثمار عملهم إلى المخازن العامة ويأخذون بحرية ما يحتاجون إليه. يسير الاقتصاد وفق خطة ولا يُخزَنُ النقد، الذي هو ابن الخوف، والجوع غير معروف. يختار الناس أميرهم ويمتلكون القدرة على الإطاحة به وينتخبون الكهنة. يكره سكان اليوتوبيا الحرب وأمجادها رغم أنهم يدافعون بوحشية عن حدودهم. يؤمنون بدين لا يسيء إلى العقل ويرفضون إماتة الجسد والإكراه في الدين. يسمح القانون بالطلاق إلا أنه يعاقب بقسوة الخيانات الزوجية ويجبر الجميع على العمل ست ساعات في اليوم، يتم تقاسم الراحة والعمل والمائدة. تعتني المجموعة بالأطفال

حين يذهب الآباء إلى العمل ويحظى المرضى بعناية مميزة ويخلص القتل الرحيم من الآلام المبرحة. تشغل الحداثق والبساتين معظم المكان وتُسمع الموسيقى أينما يذهب المرء.

## 1519م: فرانكفورت

### تشارلز الخامس

مرّ نصف قرن على موت غوتنبيرغ. تكاثرت المطابع في جميع أنحاء أوروبا: طبعوا الكتاب المقدس بأحرف قوطية وكتبوا الأرقام بأحرف فضية وذهبية. افترس الملك الرجال، تبرز البشر قطعاً ذهبية في لوحة هيرونيموس بوش: حديقة المتع. وبينما كان مايكل أنجلو يرسم وينحت أنبياءه وقديسيه كتب: "يباع دم المسيح بالملعة". لكل شيء ثمنه: عرش البابا وتاج الملك، قبعة الكاردينال وتاج الأسقف. اشترت صكوك الغفران والحرم الكنسي وألقاب النبالة. عدت الكنيسة الدين بالفائدة خطيئة إلا أن البابا رهن أراضي الفاتيكان لأصحاب البنوك، وعلى ضفة الراين قدّم تاج الإمبراطورية المقدسة إلى الذي دفع سعراً أعلى.

تنازع ثلاثة مرشحين على إرث شارلمان، أقسم الناخبون بطهارة أصواتهم وأيديهم وأدلووا بشهادتهم ظهراً، ساعة التبشير: باعوا تاج أوروبا إلى ملك أسبانيا، تشارلز الأول، ابن الغاوية والمجنونة وحفيده ملك الكاثوليكيين مقابل (٨٥٠،٠٠٠) فلورينا وضعها صاحباً المصارف الألمانيان "فوغر" و"فيلر" على الطاولة.

حول تشارلز الأول نفسه إلى تشارلز الخامس إمبراطور إسبانيا وألمانيا والنمسا ونابلس وصقلية والأراضي المنخفضة والعالم الجديد الكبير، المدافع عن العقيدة الكاثوليكية وحبر الله المحارب على الأرض.

في هذه الأثناء هدد المسلمون الحدود وقرع مارتن لوثر باب كنيسة  
ويتمبرغ بهرطقاته المتحدية. كتب ميكافيللي: يجب أن تكون الحرب  
للأمير فكرة وهدفاً وحيداً. أصبح الملك الجديد في سن التاسعة عشرة  
أقوى رجل في العالم. قبل السيف راکعاً على ركبتيه.

## 1519م: آكلا

### بدرارياس

صخبُ بحرٍ وطبول. يخيم الليل إلا أن هناك ضوءاً يجيء من القمر،  
تتدل حول الساحة الأسماك وقرونٌ الذرة الجافة من السقوف القشية.

يدخل بالبو مقيداً بالأغلال، يدها موثقتان خلف ظهره. يحلون  
وثاقه.، يدخل بالبو سيجاره الأخير، يضع رأسه على الوضم دون أن  
يتفوه بكلمة، يرفع الجلاذ الفأس.

يختلس بدرارياس أفيلا النظر من منزله عبر الحائط القسبي،  
إنه يجلس على التابوت الذي أحضره من أسبانيا، يستخدم  
التابوت ككرسي أو طاولة ويغطيه عاماً بعد آخر بالشموع أثناء  
قداس راحة نفس الميت الذي يحتفل بانبعثه. يسمونه بدرارياس  
المدفون منذ أن خرج من تابوته مغلفاً بكفن بينما كانت الراهبات  
يرتلن شعيرة الموتى والأقرباء يبكون بشكل هستيري. سموه سابقاً  
بدرارياس الباسل لأنه لا يقهر في المبارزات والمعارك، ورغم أنه  
يبلغ الثمانين من العمر الآن يستحق لقب غضب الله. حين استيقظ  
بدرارياس هازاً عرفه الأبيض، بعد أن فقد مائة هندي الليلة الماضية  
في القمار، كان من الأفضل تجنب نظرتهم.

منذ أن هبط بدرارياس على هذه الشواطئ لم يثق ببالبو. ولأن  
بالبو زوج ابنته لا يقتله من دون محاكمة، و لا يوجد الكثير من  
المحاميين هنا وهكذا يعمل القاضي كمستشار ونائب عام وتأخذ  
المحاكمة وقتاً طويلاً.

يتدحرج رأس بالبو على الرمال.

كان بالبو هو الذي أسس مدينة "آكلا" هذه بين أشجار حنّتها  
الريح. في اليوم الذي ولدت فيه "آكلا" انقضّ طير أسود مفترس من  
وراء الغيوم وخطف الخوذة المعدنية عن رأس بالبو ثم ألقه ناعبا.

هنا كان بالبو يبني قطعة بعد أخرى السفن الشراعية التي سترسل  
لاستقصاء البحر الجديد الذي اكتشفه.

سيكمل الجلال المشروع. سوف يغزو وسيكون بدرارياس شريكه.  
سيصبح هذا الجلال الذي جاء مع كولومبس في رحلته الأخيرة مركزياً  
يمتلك عشرين ألف خادم في الممالك الغامضة للجنوب اسمه  
فرانسيسكو بيزارو.

## 1519: تينوشيتلان

### بشائر النار والماء والتراب والهواء

مرة، في قديم الزمان، طار العرافون إلى كهف أم إله الحرب. لم  
تبتسم ولم تحيهم الساحرة التي لم تغتسل لمدة ثمانية قرون. قبلت  
تقدماتهم من الثياب والجلود والريش دون أن تشكرهم وأصغت  
متجهمة إلى أخبارهم. أخبرها العرافون أن المكسيك، السيدة والملكة،  
وجميع المدن هي تحت أمرها. تفوهت العجوز بتعليقها الوحيد قائلة:  
"هزم الآزتيكيون الجميع وسيأتي آخرون ويهزمونهم".  
مرّ الوقت.

كانت البشائر تتجمّع في الأعوام العشرة الماضية.  
سربت ناراً لسنة اللهب من وسط السماء لمدة ليلة كاملة.  
انبثقت فجأة نار بثلاثة لسنة من الأفق وطارت لتقابل الشمس.

انتحر منزل إله الحرب حارقاً نفسه بالنار. ألقيت عليه سطول الماء وكان الماء يغذي اللهب.

أحرق معبد آخر بسرعة البرق في إحدى الليالي دون أن تهب عاصفة.

تحولت البحيرة التي بُنيت المدينة على ضفتها إلى مرجلٍ يغلي. صعدت المياه البيضاء الساخنة في أبراج من الغضب مقتلعة المنازل، مستأصلة أسسها.

اصطادت شبك الصيادين طائراً بلون الرماد مع الأسماك. كانت توجد مرآة مستديرة على رأس الطائر، رأى الإمبراطور "موكيتزوما" في المرآة جيشاً يتقدم وجنوداً يركضون بأرجل الآيائل وسمع صرخاتهم القتالية. ثم عاقب العرافين الذين لم يستطيعوا قراءة المرآة ولم يمتلكوا أعيناً ليشاهدوا الوحوش ذات الرأسين التي كان "موكيتزوما" يشاهدها في نومه ويقظته. سجنهم الإمبراطور في أقفاص وحكم عليهم بالموت جوعاً.

كانت صرخات امرأة غير مرئية تُرعب كل ليلة جميع الذين ينامون في تينوشيتلان وتلاتياكو، كانت تصرخ: "يا أبناء الصغار علينا أن نذهب الآن بعيداً عن هنا". لم يوجد جدار لم تخترقه صرخة المرأة: "إلى أين سنذهب يا أبناء الصغار".

## 1519: سيمبولا

### كورتيز

ارتفعت السنة لهب على شاطئ فيراكروز. احترقت إحدى عشرة سفينة، واحترق أيضاً الجنود المتمردون الذين كانوا يتدلون من طرف عارضة شراع بارجة الأميرال. وبينما فتح البحر فكيه ليلتهم النيران، ضغط هيرنان كورتيز الذي يقف على الشاطئ رمانة مقبض سيفه كاشفاً رأسه.

لم تواجه السفنِ والمشنوقونِ نهايتهم فحسب. لا عودة الآن، ولن توجد حياة أكثر مما سيولد غدا: إما الذهب والمجد أو الطيور آكلة الجثث المهزومة. على شاطئ فيراكروز غاصت أحلام أولئك الذين رغبوا بالعودة إلى كوبا ليناموا في الاستراحة الاستعمارية ممدّين في الأراجيح الشبكية مغلفين بشعر النساء ودخان السيجار: البحر يقود إلى الماضي والأرض إلى الخطر. سيتقدّم الذين يستطيعون حل المشكلة على ظهور الأحصنة والآخرون على الأقدام: سبعمائة رجل يتجهون إلى المكسيك نحو الجبال والبراكين ولغز موكتيزوما.

عدّل كورتيز ريش قبّعه وأدار ظهره للهيب، ذهب إلى قرية سيمبولا، بينما كان الليل يخيم دون أن يقول شيئاً للرجال، سيعرفون حين يذهبون.

احتسى الخمرة وحيداً في خيمته، ربما فكر بالرجال الذين قتلهم دون اعتراف أو بالنساء اللواتي نام معهن بدون زواج منذ أن كان طالباً في سلمنكا التي تبدو بعيدة جداً، أو فكر بسنواته الضائعة كبيروقراطي في جزر الأنتيل في أثناء وقت الانتظار. ربما فكر بالحاكم ديبغو فيلاسكويز الذي سيرتعث حالاً من الغضب في سانتياغودي كوبا. بالتأكيد هو يبتسم بينما يفكر بذلك المغفل الذي يسبّب النعاس والذي لن يطع أوامره أبداً بعد الآن، أو ربما فكر بالمفاجأة التي كانت تنتظر الجنود الذين سمعهم يضحكون ويلعنون وهم يلعبون النرد والورق.

شيء من هذا القبيل دار في رأسه، أو ربما سحر رعب الأيام القادمة، بعد ذلك نظر فشاهاها على الباب وعرفه الضوء عليها، كان اسمها مالينالي أو مالينتش حين قدّما له زعيم تاباسكو. عرفت باسم مارينا لمدة أسبوع.

تفوّه كورتيز ببعض الكلمات بينما كانت تنتظر هادئة، بعد ذلك وبحركة واحدة أرخت شعرها وحلت ثيابها، سقط شلال ثياب ملونة عند قدميها العاريتين، أصمته توهج جسدها.

على بعد بضعة خطوات، وفي ضوء القمر، مستخدماً الطبل كطاولة كان الجندي برنال داياز ديل كاستيلو يدون أحداث اليوم.

# 1519م: تينوشيتلان

## موكتيزوما

وصلت جبال كبيرة متحركة فوق البحر إلى شواطئ "يوكاتان". لقد عاد الإله كويتزالكوتل. قَبَل البشر مقدمات السفن.

لا يثق الإمبراطور موكتيزوما بظله.

- "ماذا أفعل؟ أين أختبئ؟"

تمنى موكتيزوما أن يتحوّل إلى حجر أو إلى عصا، لم يستطع مهَرّجو البلاط أن يحرفوا انتباهه. جاء كويتزالكوتل، الإله الملتحي الذي منح الأرض والأغاني الجميلة ليطلب ماله.

غادر "كويتز" في الأزمنة الغابرة ميمماً باتجاه الشرق بعد أن أحرق منزله الذهبي ومنزله المرجاني. حلقت أجمل الطيور لتفتح له الطريق. خرج في البحر على طوف من الثعابين وغاب عن البصر مبحراً نحو الفجر، عاد الإله الملتحي، الثعبان المريش جائعاً الآن.

الأرض تهتز، ترقص الطيور في القدور التي تغلي. لا أحد سيبقى، كما قال الشاعر: لا أحد، لا أحد سيبقى حياً على وجه الأرض".

أرسل موكتيزوما هدايا ثمينة من الذهب إلى الإله "كويتزالكوتل". "أرسل خوذاً ملأى بغبار الذهب والبط الذهبي والكلاب الذهبية والنمور الذهبية والعقود الذهبية والصولجانات والأقواس والسهام ولكن الإله كان يطلب المزيد وهو يأكل متقدماً نحو تينوشيتلان ساخطاً. بين البراكين العظيمة، وخلفه تتقدّم آلهة أخرى ملتحية. كانت أيدي الغزاة ترسل الرعد والصواعق والنار التي تقتل.

- "ماذا أفعل؟ أين أختبئ؟"

يعيش موكتيزوما ورأسه مدفون بين يديه.

منذ عامين حين كان يوجد نذير بالشر، كانت الآلهة تعود وتنتقم. أرسل موكتيزوما عرّافيه إلى كهف "هويماك" ملك الموتى. هبط العرّافون إلى أعماق تشابلتوييك ترافقهم حاشية من الأقزام والمحدبين وقدموا إلى "هويماك" بأمر من الإمبراطور هدية من جلود السجناء الذين سلخت جلودهم مؤخراً. أرسل هويماك جوابه إلى موكتيزوما:

- "لا تكن مغفلاً، لا يوجد هنا راحة ولا فرح".

وطلب منه أن يصوم وينام من دون امرأة.

أطاعه موكتيزوما، وبدأ يتوب، أقفل الخصيان على زوجاته ونسي الطبّاخون وجباته الشهية، إلا أن الأمور ساءت؛ توافدت قطعان غربان السوء السوداء، فقد موكتيزوما حماية تلازولتيوتل، إلهة الحب، إلهة البراز أيضاً، التي تأكل قذارتنا ليصبح الحب ممكناً. وهكذا غرقت روح الإمبراطور في القذارة والسواد. زاد من عدد الرسل إلى هويماك في مناسبات عدة وتوسّل إليه مقدما الهدايا، إلى أن منحه إله الموتى موعداً.

ذهب موكتيزوما إلى مقابله في الليلة المتفق عليها واتجه قاربه إلى "تشابلتوييك". وقف الإمبراطور في المقدمة وتكشف الضباب فوق البحيرة عن الريش الفلمنكي.

بعد أن وصل إلى سفح الجبل سمع موكتيزوما صوت المجاذيف. اقترب قارب يتحرّك بسرعة وتوهج شخص عار ووحيد في الضباب الأسود، يرتفع مجذافه كالرمح.

- "هل هذا أنت يا هويماك؟".

استمر الشخص في الاقتراب إلى أن ضغط تقريباً على الإمبراطور ثم نظر في عينيه كما لا يستطيع إنسان أن ينظر وقال له: "أنت جبان، ثم اختفى".



# 1519م: تينوشيتلان

## عاصمة الأزتيكيين

مصعوقين بجمالها، عبر الغزاة الممر. بدت تينوشيتلان وكأنها منتزعة من أوراق أماديس، أشياء لم يُسمع بها أبداً، ولم تُشاهد أبداً، لم يُحلم بها أبداً. أشرقت الشمس من خلف البراكين، دخلت البحيرة وحطمت الضباب العائم إلى شظايا. توهجت المدينة بشوارعها وأقنيتها ومعابدها وأبراجها العالية أمامهم، خرج عدد كبير صامت وغير مستعجل ليرحب بهم، بينما شقت قوارب لا يحصى لها عدد أثلاما في المياه الكوبالتية.

وصل موكتيزوما على حمالة، جالساً على جلد يغور ناعم، تحت ظلة من الذهب والآلي، والريش الأخضر. تقدم أسياذ الملكة أمامه وكنسوا الأرض التي مر فوقها.

رحب بالإله كويتزالكوتل قائلاً:

- "ها قد جئت لتشغل العرش. ها قد جئت وسط الضباب. أنا لا أراك في الأحلام، أنا لا أحلم. إلى أرضك جئت.."

تلقي الذين يرافقون كويتزالكوتل أكاليل من المنغولية<sup>12</sup> ووضعت عقود الأزهار حول أعناقهم وعلى أذرعهم وصدورهم. كان فيها زهرة الدرغ وزهرة القلب وأزهار العطر الرائع واللون الذهبي.

كويتزالكوتل، أحد سكان استريمادورا، هبط على الشواطئ الأميركية حاملاً ملابسه على ظهره وبعض القطع الذهبية في محفظته. كان في التاسعة والعشرين حين وضع قدميه على رصيف المرفأ في سانتو دومينغو وسأل: "أين الذهب؟". إنه الآن في الثالثة والأربعين وأصبح قائداً عسكرياً جسوراً يرتدي درعا من الحديد الأسود ويقود جيشاً من الخيالة

<sup>12</sup> المنغولية: نبات من الفصيلة المنغولية جميل الورق والزهرة.

والرمّاحين ورمّاة النشاب والبنادق والكلاب المتوحّشة. لقد وعد جنوده:  
"سأجعلكم في وقت قصير أغنى الرجال الذين جاؤوا إلى الآنديز".

سينتهي الإمبراطور موكتيزوما الذي يفتح بوابات تينوستيتلان حالاً.  
سيسمّى بعد وقت قصير امرأة الإسبان وسيرجمه قومه بالحجارة حتى  
الموت. سيأخذ مكانه الشاب "كيواهتيموك" ويتابع القتال.

## أغنية الدرع الأزتيكية

على الدرع، أنجبت العذراء  
المحارب العظيم.

على الدرع، أنجبت العذراء  
المحارب العظيم.

على جبل الثعبان  
في وسط الجبال

يتجول الغازي

بصبغة الحرب ودرع النسر

لا أحد يستطيع مواجهته

بدأت الأرض تدور

حين ارتدى أصباغه الحربية

ورفع درعه

## 1520: تيوكالهوياكان

### ليلة الأسى

فحص هرنان كورتيز القلعة الناجية من جيشه، بينما خاطت مالينش الأعلام الممزقة.

كانت تينوشيتلان خلفهم وخلفهم أيضاً عمود الدخان الذي أطلقه البركان بوباكاتيبتل الذي لا تقدر ربح على إخفائه، والذي بدا كأنه يودّعهم.

استعاد الأزتيكيون مدينتهم. السقوف مليئة بالسهم والرماح والبحيرة مغطاة بالزوارق الحربية. هرب الغزاة مبعثرين تطاردهم عاصفة من السهام والحجارة بينما طبول الحرب والصرخات واللعنات تذهل الليل.

أنقذ الجرحى والمبتورون الذين تبقوا لكورتيز أنفسهم باستخدام الجثث كجسر، عبروا إلى الشاطئ الآخر ماشين على الخيول التي انزلقت وغرقت وعلى الجنود الذين قتلتهم السهام والحجارة أو أغرقهم ثقل الأكياس المليئة بالذهب، والتي لم يستطيعوا إقناع أنفسهم بتركها خلفهم.

## 1520: سيغورا ديلا فورتيرا

### توزيع الثروة

سُمعُ صخبُ المشاجرات والتذمير من المعسكر الإسباني. لا يوجد بديل أمام الجنود، يجب أن يسلموا سبائك الذهب التي أنقذت من الكارثة، سيشتق كل من يخبئ شيئاً.

صنع هذه السبائك صائغو ونحاتو المكسيك. كان الذهب قبل أن يحول إلى غنائم ويصهر في قوالب ثعباناً على وشك أن يعض، نمراً على وشك أن يقفز، نسراً على وشك أن يحلق أو خنجراً تحوّل إلى ثعبان وعام كنهر في الجو.

شرح كوريتز أن هذا الذهب مجرد فقاعات إذا ما قورن بالذي ينتظرهم. يأخذ خمساً له وخمساً للملك بالإضافة إلى حصص أبيه والحصان الذي مات تحته ويعطي كل ما تبقى لقواده. لم يبق شيء يذكر للجنود الذين لعقوا هذا الذهب وعضوه ورازوه في أيديهم وجعلوه مخدرات لنومهم وحكوا له قصص انتقامهم.

في أثناء ذلك، كانوا يسمون بالحديد وجوه العبيد الهنود الذين أسروا في تبيكا وهوأكوبتشولا.

كان الهواء يفوح برائحة اللحم المحروق.

## 1520: بروكسل

### دورير

يجب أن تكون هذه الأشياء انبثاقات من الشمس كالرجال والنساء الذين صنعوها في الأرض البعيدة التي سكنوها: خوذ وأحزمة، مراوح ريش، فساتين وعباءات، ملابس صيد، شمس ذهبية وقمر فضي، بندقية نفخ وأسلحة أخرى تمتلك جمالاً يجعلها تبدو وكأنها صنعت لتعيد إحياء الضحايا.

لن يتعب المصمم الأعظم في جميع العصور من النظر إليها. إنها جزء من الغنائم التي سرقها كورتيز من موكتيزوما، القطع الوحيدة التي لم تصهر وتحوّل إلى قوالب. يعرض الملك تشارلز، الذي عين حديثاً على عرش الإمبراطورية المقدسة، للعامة الغنائم التي جاءت من أجزاء عالمه الجديد.

لا يعرف ألبريخت دورير القصيدة المكسيكية التي تقول إن الفنان الحقيقي يجد المتعة في عمله ويتحدث مع قلبه، لأنه يمتلك قلباً غير ميت لم يأكله النمل. إلا أنه مشاهداً ما شاهده، سمع دورير تلك الكلمات واكتشف أنه جرب السعادة الأعظم في حياته التي بلغت نصف قرن.

## 1520: تلاهكالا

### إعادة فتح تينوشيتلان

أوشك العام على الانتهاء. حالما تشرق الشمس سيصدر كورتيز الأمر بالسير. قام جنوده الذين سحقهم الآزتيكيون بالردّ تحت حماية الهنود في تلاهكالا ويهوسينكو وتيهوكو. يقود جيشاً مؤلفاً من خمسين ألفاً من الهنود بالإضافة إلى جنود جدد جاؤوا من إسبانيا وسانتو دومينغو وكوبا مزودين بالخيول والبنادق وأقواس النشاب والمدافع لكي يحارب على المياه حين يصلون. احتاج كورتيز أشرعة ولوازم حديدية وصواري ليجهز ثلاث سفن شراعية. نصب هنود ويهوسينكو العوارض الخشبية.

أظهر الضوء الأول خط السماء البركاني. خلفه، صاعدةً من المياه المذهلة، تنتظر تينوشيتلان متحدة.

## 1521م: ثلاثيلوكو

### سيف النار

تدفقت الدماء كالماء، حول الدم مياه الشرب إلى أسيد، لم يبق ما يؤكل سوى التراب. قاتلوا من منزل إلى آخر فوق الحطام والموتى ليلاً ونهاراً. استمرت الحرب ثلاثة أشهر دون توقّف. لم يبق للتنفس

سوى القذارة والغبار، إلا أن الطبول ما تزال تفرع في الأبراج الأخيرة، والأجراس ترن على كواحل آخر المحاربين. تواصلت الصرخات الحربية والأغاني التي تمنح القوة. تناولت النساء المتبقيات فؤوس المحاربين الساقطين وضربن الدروع حتى الموت.

استدعى القائد كواوهيتموك أفضل محاربيه، اعتمر القبعة ذات العرف الطويل واستل سيف النار، قابضاً على السيف بزغ إليه الحرب من حوض أمه في الأزمنة الغابرة. بهذا الثعبان ذي الأشعة الشمسية قطع هويتزيلوبوشتلي رأس أخته القمر، وقطع إلى أشلاء أخوته النجوم الأربعمئة لأنهم لم يسمحوا له بأن يولد.

أمر كواوهيتموك: "دعوا أعداءنا ينظرون إليه وسيذهلهم الرعب".  
فتح سيف النار طريقاً. تقدّم القائد المختار عبر الدخان والحطام.  
أسقطوه بطلقة واحدة من بندقية.

## 1521م: تينوشيتلان

### العالم مُصمّت تحت المطر

فجأة توقفت الصرخات والطبول جماعياً. هزمت الآلهة والرجال، مات الزمن مع صوت الإله، ماتت المدينة مع موت الرجال. ماتت مدينة المحارب التي يزينها الصفصاف والأسل وهي تقاتل حين عاشت. لن يجيء بعد الآن الأمراء المهزومون من جميع الأقاليم في قواربهم عبر الضباب ليدفعوا الجزية.

خيّم صمت رهيب، وبدأ المطر بالسقوط امتلأت السماء بالرعد والبرق وانهمر المطر طوال الليل.

جمّع الذهب في سلال كبيرة. ذهب دروع وشارات حرب، ذهب أقنعة الآلهة، قلادات الشفاه والآذان، الزخارف والسلاسل. وُزن

الذهب وسعّر الأسرى: أحد هؤلاء البائسين لا يساوي حفتين من الذرة. يتجمّع الجنود ليلعبوا النرد والورق.

بدأت النار تحرق كعبي قدمي الإمبراطور كواوهيتموك المدهون بالنفط، بينما العالم مصمت والمطر ينهمر.

## 1521: فلوريدا

### بونس ليون

كان متقدماً في السن، أو هكذا شعر. لم يتبق وقت كافٍ ولن يستطيع القلب المنهك أن يصمد. أراد خوان بون دي ليون أن يكتشف ويربح العالم غير المغزو الذي أعلنت عن وجوده جزر فلوريدا. أراد أن يقزّم ذكرى كريستوف كولومبوس بعظمة أعماله البطولية.

هنا هبط، متبعاً النهر السحري الذي يعبر حديقة المتع. وبدلاً من أن يعثر على نهر الشياطين الأبدية التقى بذلك السهم الذي اخترق صدره. لن يستحم أبداً في المياه التي تعيد الطاقة إلى العضلات والضوء إلى الأعين من دون أن تمحو تجربة الروح الناضجة.

حمله الجنود بسواعدهم إلى السفينة. أطلق القائد المغزو تمتمات وشكاوى كالطفل، إلا أن أعوامه كثيرة وما يزال يتقدّم في السن. أكد الرجال الذين حملوه بدون دهشة أنه هنا حلت هزيمة جديدة في الصراع المستمر بين الموجودين دائماً والذين لم يوجدوا أبداً.

## 1522: الطرق العامة لسانتو دومينغو

### أقدام

سُحِقَ التمرد الأول الذي قام به الزوج السود في أميركا. نشب في مطاحن السكر التي يمتلكها ديينغو كولومبوس ابن المكتشف. شُيِّت النار في طواحين ومزارع الجزيرة كلها. انتفض السود مع بعض الهنود مسلحين بالعصي والحجارة ورماح قصب السكر التي حطمت الدروع في غضب عبثي.

يتدلى الآن على المشانق المبعثرة على الطرق الرجال والنساء، الشبان والعجائز. على مستوى عين المسافر تتدلى أقدام يستطيع أن يخمن منها هوية الضحايا قبل أن يجيئهم الموت. بين تلك الأعضاء الجلدية المجروحة بالتعب والخضوع تتدلى أقدام مرحة وأقدام رزينة وأقدام ما تزال ترقص معبرة عن حبها للأرض وداعية إلى الحرب.

## 1522: إشبيلية

### أطول رحلة سبق أن تمّت

لم يعتقد أحد أنهم ما يزالون أحياء، إلا أنهم وصلوا البارحة. ألقوا مراسيهم وأطلقوا نيران جميع مدافعهم، لم يهبطوا حالا إلى اليابسة ولم يظهروا للعين. في الصباح ظهروا على رصيف المرفأ. دخلوا إشبيلية مرتجفين في ثياب قذرة حاملين المشاعل، فتح الحشد لهم الطريق مندهشا لهذا الموكب من الفزاعات التي كان يقودها خوان سيباستيان دي ألكانو، تعثروا وهم يسيرون، أتكوؤوا على بعضهم من أجل العون، ذهبوا من كنيسة إلى أخرى يؤدون العهود يتبعهم الحشد أينما ذهبوا. وكانوا دائما يغنون.



غادروا منذ ثلاثة أعوام عبر النهر في خمس سفن سريعة اتجهت غرباً. كانوا حفنة من المغامرين ذهبوا معاً بحثاً عن المر بين المحيطات وعن الثروة والعظمة. كانوا جميعاً لاجئين اتجهوا إلى البحر هرباً من البؤس والحب والسجن أو المشنقة.

الآن يتحدث الناجون عن العواصف والجرائم والعجائب. شاهدوا بحاراً وأراضي لا خرائط لها ولا اسم. عبروا ست مرات المنطقة الكروية حيث يغلي العالم دون أن يحترق أبداً. شاهدوا ثلجاً أزرق في الجنوب وأربع نجوم في السماء تشكل صليباً. شاهدوا الشمس والقمر يتحركان إلى الخلف وسمكاً يطير، سمعوا عن نساء تحبلهن الرياح وقابلوا طيوراً سوداء كالغربان تندفع إلى أفواه الحيتان المفتوحة وتلتهم قلوبها. وقالوا إنهم شاهدوا على جزيرة بعيدة جداً بشراً صغاراً طولهم نصف متر لهم آذان يصل طولها إلى الأرض، ويسبب طول آذانهم، حين ينامون يُستخدم أحدهما كمخدة وآخر كغطاء. وقالوا أيضاً إنه حين شاهد هنود "المولوكا" الزوارق الصغيرة التي أطلقت من السفن ظنوها فتيات السفن الصغيرات وأن السفن تنجبها وترضعها.

قال الباقيون على قيد الحياة: إنه في جنوب الجنوب، حين تفتح الأراضي وتتعانق المحيطات، يشعل الهنود نيراناً في الليل والنهار كي لا يموتوا من البرد. قالوا إن هؤلاء الهنود عمالقة بالكاد تصل رؤوسنا إلى خصورهم. قبض ماجلان الذي ترأس الرحلة على اثنين منهم بعد أن وضع أغلالاً حديدية في كواحلها وأرساغها قائلاً إنها حلي ولكن فيما بعد مات أحدهما من الإسقربوط<sup>13</sup> والآخر من الحرارة.

قالوا إنه لم يكن لديهم بديل عن شرب مياه المستنقعات وهم يحبسون أنوفهم، وإنهم أكلوا نشارة الخشب وجلود الحيوانات والجرذان التي نافستهم على البسكويت المدود. كل من يموت جوعاً يضعونه على لوح خشبي، وبما أنهم لا يملكون أحجاراً لإغراقه تبقى الجثث عائمة على المياه: تدار وجوه الأوروبيين

<sup>13</sup> الإسقربوط: داء من أعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها. م.

نحو السماء بينما أوجه الهنود إلى الأسفل. حين قابلوا هنود المولوكاس باع أحد البحارة الهنود ورق لعب مقابل ستة ديكة إلا أنه لم يستطع أن يأكل لقمة منها لأن لثته كانت متورمة.

شاهدوا ماجلان يبكي والدموع تنحدر من عيني البحار البرتغالي اللفظ حين دخلت السفن المحيط الذي لم يعبره أوروبي من قبل، وتعرفوا على مزاجه المريع حين قطع رأسي ضابطين متمردين وقطعهما وترك الآخرين في الصحراء. إن ماجلان هو جيفة الآن، غنيمة في يد السكان الأصليين للفلبين الذين أصابوا رجله بسهم مسموم.

لم يعد من الجنود الذين يبلغ عددهم 237، والذين غادروا إشبيلية منذ ثلاثة أعوام سوى ثمانية عشر شخصاً، عادوا في سفينة تصدّصراً ولها عارضة ينخرها الدود، ترشح من الجهات الأربع. الباقون على قيد الحياة، الرجال المتضورون جوعاً، الذين أبحروا حول العالم للمرة الأولى.

## 1522: كوزكو

### هواينا كاباك

أمام الشمس رمى نفسه ولمس الأرض، أمسك الأشعة الأولى بجبهته ورفعها بيديه إلى فمه وشرب الضوء، ثم نهض، وقف ونظر مباشرة إلى الشمس دون أن يرّف له جفن.

كانت نساء هواينا كاباك خلفه ينتظرن برؤوس محنية. وكان الأمراء الكثيرون ينتظرون صامتين. نظر الأنكي إلى الشمس ندا لندا وهمسُ الفضيحة ينمو بين الكهنة.

مرت أعوام كثيرة على اليوم الذي جاء فيه هواينا كاباك ابن الأب المتألق بلقب الشاب الجسور الزعيم الغني بالفضائل. وسّع

الإمبراطورية إلى ما وراء حدود أسلافه. قاد هويينا كاباك المتعطش للسلطة، المستكشف والقاتح جيوشه من الدغل الأمازوني إلى أعالي، "كويتو"، ومن "الشاكو" إلى سواحل تشيلي. بسهم طائر وفأس مهلك جعل نفسه سيد الجبال الجديدة والسهول والصحارى الرملية. لا يوجد أحد كي يحلم به أو يخشاه في المملكة التي هي الآن أكبر من أوروبا. اعتمدت على هويينا كاباك المراعي والماء والبشر. حركت إرادته الجبال والبشر. وفي هذه الإمبراطورية التي كانت تجهل العجلة شاد أبنيته في "كويتو" بأحجار من "كوزكو" لكي تُعرف في المستقبل عظمته ويؤمن الرجال بكلمته.

نظر الآنكي بثبات إلى الشمس، ليس بتحد كما يخشى الكهنة بل بدافع الشفقة. شعر هويينا كاباك بالأسف على الشمس لأنه والده ووالد الآنكيين منذ غابر الأيام. ليس للشمس الحق في التعب والضجر. لا يستريح الشمس أبدا ولا يلعب ولا ينسى، لا يتأخر عن مواعده ويجري اليوم في نفس المسار عبر السماء كما فعل البارحة وسيفعل غدا.

بينما كان يتأمل الشمس قرر هويينا كاباك: "سأموت حالا".

## 1522: كواو كابولكا

### أسئلة الزعيم

قدّم الطعام والذهب وقبل العمادة، إلا أنه طلب من جيل غونزاليس دي أفيلا أن يشرح له كيف يمكن للمسيح أن يكون إنسانا وإلها ولمريم أن تكون عذراء وأما.

سأل: أين تذهب الأرواح حين تغادر الأجساد؟ وفيما إذا كان البابا في روما لا يموت؟، سأل: من ينتخب ملك قشتالة؟ لقد انتخب الزعيم "تيكارغوا" الكبار في القبائل بعد أن اجتمعوا عند جذع شجرة سبية. هل انتخب الملك من قبل الكبار في شعبه؟

سأل الزعيم الغازي أن يخبره ما الهدف من بحث قلة من الرجال عن الذهب الكثير؟ هل أجسادهم كبيرة بما يكفي لكثير من الزينة؟ فيما بعد سأل فيما إذا كان صحيحاً أن الشمس والنجوم والقمر ستنطفئ وستسقط السماء كما قال أحد الأنبياء.

لم يسأل الزعيم نيكارغوا لماذا لن يولد أطفال في هذا الجزء من العالم. لم يخبره أي نبي أنه بعد بضعة أعوام سترفض النساء أن تنجب عبيداً.

## 1522م: بينالا

### هالينش

أنجبت من كورتيز طفلاً وفتحت له بوابات إمبراطورية. كانت ظله وحارسته، مترجمته ومستشارته، وسيطته، وسيدته طوال غزو المكسيك، ودائماً تمتطي حصانها قربه.

مرّت في بينالا مرتدية زي امرأة إسبانية: ملابس صوفية وحريرية وساتانية ولم يتعرّف أحد في البداية على السيدة المميزة التي أتت مع الأسياد الجدد. من علي صهوة جوادها الكستنائي المطهم تفحصت مالينش ضفة النهر، أخذت نفساً عميقاً من الهواء العذب وبحثت بلا جدوى عن الزوايا الغائبة حيث اكتشفت السحر والخوف منذ أكثر من عشرين عاماً. خبرت شمساً وأمطاراً كثيرة، عذابات وأحزاناً منذ أن باعتهما أمها كجارية وجُرت عن التربة المكسيكية لتخدم أسياد المايا في "يوكاتان".

حين تعلم أمها من جاء إلى زيارتها في بينالا ترمى نفسها عند قدميها وتغسلهما بالدموع طالبة منها الصفح. رفعتها مالينش من كتفيها وعانقتها وعلقت حول عنقها العقود التي كانت ترتديها ثم امتطت حصانها وتابعت طريقها مع الإسبان.

ليست بحاجة لأن تكره أمها، منذ أن قدّمها أسياد يوكاتان هدية لهرنان كورتيز كانت تمتلك الوقت الكافي كي تتأّر لنفسها. لقد دُفع الدين: كان المكسيكيون يرتجفون وينحنون حين تقترب، تكفي نظرة واحدة من عينيها السوداوين لإرسال أمير إلى المشنقة. بعد موتها بوقت طويل واصل ظلها التحليق فوق تينوشيتلان العظيمة التي قامت بأعمال كثيرة لتهمزها وتذلها وسيستمر شبحها ذو الشعر الطويل المرخي ورداؤها المتموج في زرع الخوف إلى الأبد في غابات وكهوف تشابولتيبك.

## 1524: كويتزالتينانكو

### سيروي الشاعر للأطفال قصة هذه المعركة

تحدث الشاعر عن بيدور دي ألفارادو والذين جاؤوا معه ليعلموا الخوف. قال إنه حين سُحقت القوات المحلية وتحولت غواتيمالا إلى مسلخ، صعد القائد تيكوم أومان في الجوّ وطار بجناحين ونبت ريش في جسده. طار ثم انقضّ على ألفارادو بضربة قوية قطعت رأس حصانه. قسم ألفارادو وحصانه نصفين وبقي هكذا. حرّر الغازي نفسه من الحصان المقطوع الرأس ونهض. طار القائد تيكوم ثانية وصعد إلى الأعلى متوهجاً، حين غاص إلى الأسفل من السحاب طعنه ألفارادو برمحه واندفعت الكلاب لتمزّق تيكوم إلى أشلاء إلا أن ألفارادو أبعدا بسيفه. تأمل ألفارادو لوقت طويل عدوه المطعون ذا الجسد المجروح الذي ينمو ريش الكترول على ذراعيه ورجليه، تأمل جناحيه المحطمين وتواجه الثلاثي اللؤلؤي الماسي والزمردني. استدعى ألفارادو جنوده: "انظروا". ثم طلب منهم أن ينزعوا خوذاتهم.

سأل الأطفال المتخلفين حول الشاعر: "هل رأيت كل هذا أم سمعت عنه؟".

- "نعم".

سأل الأطفال: "هل كنت هناك؟".

- "لا. لم يبق من شعبنا الذي كان هنا أحد على قيد الحياة".

أشار الشاعر إلى السحاب المتحرك فوق قمم الأشجار المتمايلة.

- "أترون الرماح؟ أترون حوافر الخيل؟ مطر السهام؟ الدخان؟".

قال لهم وهو يضع أذنيه على الأرض المليئة بالانفجارات: "أصغوا".

علمهم أن يشموا التاريخ في الريح، أن يلمسوه في الأحجار التي صقلها النهر، وأن يتعرفوا على طعمه بمضغ بعض الأعشاب العطرية ببطء كما يمضغ المرء الحزن.

## 1524: أوتاتلان

### انتقام المقهورين

يستلقي الزعماء الهنود حفنة من العظام سوداء كالسخام في حطام المدينة. لا يوجد شيء اليوم في عاصمة "الكويتشز" لا تفوح منه رائحة الحرق.

تحدّث نبيّ منذ قرن تقريباً، كان زعيم "الكاكتشيكويلز" هو، الذي قال حين كان الهنود الكويتشيون على وشك أن يمزقوا قلبه: سيأتي رجال مسلحون يرتدون الثياب من الرأس إلى القدم، ليسوا عراة مثلنا، ويدمرون هذه الأبنية ويرجعونكم إلى الحياة في كهوف البوم والقطط البرية وستتلاشى كلّ هذه العظمة.

تحدث حين قتلوه، هنا في مدينة الوهاد هذه التي حولها بدرو الفارادو وجنوده إلى ألسنة لهب لتؤهم. لعن الزعيم المقهور هنود الكويتشز، ومنذ ذلك الحين، مرّ وقت طويل هيمن فيه هنود الكويتشز، على شعوب غواتيمالا الأخرى.

## 1524: جزر العقرب

### شعيرة العشاء الرباني

ابتلعهم البحر ثم تقيأهم. ازدردهم ثانية ثم رماهم على الصخور، كانت الدلافين وخرقان البحر تطير في الجو، والسماء مليئة بالزبد. حين تحطمت السفينة الصغيرة بذل الرجال جهودا كبيرة ليتمسكوا بالصخور. كانت الأمواج تعارك طول الليل لتمزقهم بضرباتهما المتتالية. انثزع كثيرون من أمكنتهم وتحطموا على الصخور أو افترسوا. فجراً، هدأت العاصفة وانحسر المدّ، ترك الذين نجوا مصيرهم للقدر وانطلقوا على ظهر زورق متداع، بقوا طيلة خمسة أيام بين سلاسل الصخور دون ماء للشرب أو ثمار تبلل أفواههم.

في ذلك الصباح وصلوا إلى إحدى الجزر.

زحفوا على أربع إلى الأمام تحت الشمس التي تطهو الصخور، لا يمتلك أي منهم القوة لجرّ من يبقى خلفهم عراةً ومجروحين يلعنون الضابط، المحامي "ألونزو زوازو" القانوني الجيد والبحار السيء، يلعنون الأم التي أنجبته والملك والبابا والله.

هذا المنحدر الصغير هو أعلى جبل في العالم. يتابع الرجال التسلق ويعززون أنفسهم بعد الساعات التي فصلتهم عن الموت.

فجأة فركوا أعينهم، لم يصدقوا ذلك: كانت خمس سلاحف عملاقة تنتظرهم على الشاطئ، خمس من تلك السلاحف التي تبدو في البحر كجزر صخرية والتي تمارس الجنس من دون خوف حين تقترب السفن منها.

اندفع الرجال نحوها، كسروا دروعها غاضبين وجائعين وبدأوا يجرفونها إلى أن انقلبت السلاحف وهي تضرب الهواء، طعنوها بسكاكينهم، فتحوا بطونها بقبضاتهم وطعناتهم ودفنوا رؤوسهم في الدم المندفِع.

ثم ناموا غارقين إلى أعناقهم في دنان الخمرة الجيدة هذه بينما كانت الشمس تستمر في التقدم إلى كبد السماء.

لم يصغ أحد للمحامي "زوازو". ركع على الرمل وفمه ملطخ بالدم. رفع يديه وقدم السلاحف إلى الجراح الخمسة لمخلصنا.

## 1525م: توه كاها

### كواوتيموك

كانت جثة آخر ملوك الأزتيكيين تتأرجح معلقة من الكاحلين على غصن شجرة سيبية كبيرة .  
قطع كورتيز رأسه.

وصل إلى العالم في مهد محاط بالدرع والرمح وهذه هي الأصوات الأخيرة التي سمعها: "وطنك الحقيقي في مكان آخر، أنت موعود بأرض أخرى. مكانك المناسب هو ساحة المعركة، مهمتك هي أن تمنح دم أعدائك للشمس كي يشربه وأجسادهم للأرض كي تأكله".

صب العرافون على رأسه الماء منذ تسعة وعشرين عاما وهم يطلقون كلمات طقسية: "أين تختبئ يا سوء الحظ؟ في أي عضو تخفي نفسك؟ ابتعد عن هذا الطفل".

سموه كواوتيمك، النسر الذي يسقط، وسع والده الإمبراطورية من البحر إلى البحر، حين احتل الأمير العرش كان الغزاة قد توغلوا في البلاد. نهض كواوتيموك وقاوم، بعد أربعة أعوام من هزيمة تينوشيتلان ما تزال تصدح الأغاني التي تدعو إلى عودة المحارب من أعماق الغابة.

من يهدد الآن جسده المبتور؟ الريح أم شجرة السيبية؟ ألا تبدو هذه شجرة سيبية من تاجها الضخم؟ ألا تقبل هذا الغصن المكسور



كذراع آخر من آلاف الأذرع التي تنمو من جذعها الجليل؟ هل ستنمو عليه ورود حمراء؟

الحياة تستمر، الحياة والموت يستمران.

## 1526م: طليطلة

### النمر الأميري

عرض المروّض في قصر طليطلة النمر الذي تلقاه الملك من العالم الجديد، قاده المروّض لومباردي ذو الابتسامة العريضة والشارب المدّيب برسّن كأنه كلب صغير بينما انزلق النمر على الحصباء بخطوات خافتة.

تجمد دم غونزالو فرديناديز دي أوفيدييو. صرخ بالمروّض من بعيد ألا يثق به، ألا يكون أبله مع هذا الوحش المفترس، إن هذه الحيوانات ليست للبشر.

ضحك المروّض. أفلت النمر وضربه على ظهره، سمع أوفيدييو زئيره العميق. عرف أن زمجرة الأنياب المصطكة هذه تعني تهديدا وصلاة للشيطان. إنه متأكد أن المروّض سيقع في الفخ في أحد الأيام، سيمدّ يده ليلمس النمر وبعد ذلك سيبتلع بعد ضربة مخلب سريعة. هل يؤمن هذا المسكين أن الله منح النمر مخالب وأنياباً ليقدّم له مروّض وجباته في ساعات منتظمة. لم يجلس أحد من سلالته أبداً ليتناول العشاء بتوقيت الأجراس ولم تعرف هذه السلالة سوى الافتراس. نظر أوفيديو إلى اللومباردي المبتسم ورأى كومة من اللحم المفروم بين أربع شموع.

نصحه: "اقتلع مخالبه وجميع أنيابه من جذورها"، ثم ذهب.

## حلٌ خيوط المحفظة

دخل البرد من الشقوق وجمد الحبر في المحابر.

كان تشارلز مديناً لكل قديس بشمعة، فقد اشترى العرش الإمبراطوري بنقود دفعها أصحاب مصارف أوكسبورغ، وموّل خطبته وجزءاً جيداً من الحروب التي مكنته من إذلال روما وقمع التمرد الفلمنكي وبعثرة نصف محاربي فرنسا النبلاء في حقول بافيا.

تألم ضرس الإمبراطور وهو يوقع أمراً بتأجير حق اكتشاف واستغلال وحكم فنزويلا.

عين حكاماً ماناً لفترة طويلة على فنزويلا. لم يترك الحاكم الأول أمبروزيو ألفنغر هندياً لم يوشم أو يباع في أسواق سانتا مارتا وجامايكا وسانتو دومينغو، والذي يموت بعد أن يخترق حنجرته سهم.

# 1525: تمبيز

## يوم المفاجآت

وصلت رحلة البحر الجنوبي أخيراً إلى شاطئٍ يخلو من المستنقعات والبعوض. أمر فرانسيسكو بيزارو، الذي سمع بوجود قرية في الجوار، جندياً وعبداً أفريقياً أن ينطلقا.

وصل الأبيض والأسود إلى "تمبيز" عابرين الأراضي المزروعة والمروية جداً بوساطة أقنية مائية، كانت توجد زراعات لم يشاهدوا مثلها في أميركا. أحاط أبناء تمبيز الذين لا يخرجون عراة ولا ينامون في العراء بالوافدين الجدد وقدموا لهم الهدايا. لم تكن عينا ألونزو دي موليناز كبيرتين بما يكفي لتحصيا الذهب والفضة اللذين يكسوان جدران المعبد.

اندهش سكان تمببيز بأشياء كثيرة من عالم آخر، شدّوا لحية ألونزو دي موليناز ولمسوا ثيابه وفأسه الحديدية. يومئون سائلين عن ذلك الوحش المأسور ذي العرف الأحمر الذي يصرخ في قفص: "ماذا يريد؟"، أشار ألونزو إليه وقال: "ديك"، وتعلموا كلمتهم الأولى من اللغة القشتالية.

لم يتصرف الأفريقي الذي يرافق الجندي جيداً، دافع عن نفسه لاطما الهنود الذين أرادوا أن يحكوا جلده بقرون الذرة اليابسة. كان الماء يغلي في إناء كبير، يريدون أن يضعوه فيه ليزيلوا لونه.

## 1528: جزيرة الحظ السيء

### الناس كرماء بما يملكونه

قذفت عاصفة إحدى السفن التي أبحرت إلى فلوريدا منطلقاً من سانليوكردى بارميد إلى قمم الأشجار الكوبية والتمهم البحر السفن الأخرى في حوادث تحطم متعاقبة. ولم ينتظر السفن التي زودها رجال نارفايز وكابيزا فاكا بأشعة من القمصان وحبال من أعراف الأحصنة، مصيراً أفضل.

ارتجف رجال السفينة المحطمة، الأشباح العارية، من البرد وبكوا بين صخور جزيرة "مال هانو". أحضر لهم الهنود الماء والأسماك والجذور وبكوا معهم. ذرف الهنود أنهاراً من الدموع وكلما طال الندب شعر الإسبان بالأسف.

أخذهم الهنود إلى قريتهم ولم يمت البحارة من البرد لأن الهنود واطبوا على إشعال النار طوال الطريق في مواضع الراحة. كانوا يحملونهم على المحفات بين النار والنار، دون أن يجعلوا أقدامهم تلمس الأرض.

ظنَّ الأسبان أن الهنود سيقطعونهم إرباً ويرمونهم في إناء الطهي، إلا أنهم تقاسموا معهم في القرية الطعام القليل الذي يمتلكونه. وكما قال ألفار كابيذا دي فاكا، دبَّ الهلع في الهنود وغضبوا حين عرفوا أن خمسة مسيحيين أكلوا لحم بعضهم على الشاطئ ونجا منهم واحد فقط لأنه لم يوجد من يأكله.

## 1531: نهر أورينوكو

### دييغو دي أورداز

ظَلَّت الرياح عنيدة ودفعت السفينة عكس التيار. كانت الشمس تجلد المياه.

كان شعار النبالة الذي يرتديه القائد يشبه مخروط بركان بوبوكاتيبتل. كان أول إسباني يخطو على قمته الثلجية. في ذلك اليوم ومن ذاك الارتفاع شاهد من خلال زوايا الرماد البركاني ظهور النسور ومدينة تينوشيتلان تومض في البحيرة، واضطر أن يبتعد بسرعة لأن البركان غضب وهدده بوابل من النار والحجارة والدخان الأسود.

تساءل دييغو أورداز، المبلل بالماء إلى عظامه، إن كان نهر الأورينوكو سيقوده إلى حيث ينتظره الذهب. كان هنود القرى يشيرون إلى الأمام بينما يطارد الضابط البعوض ويهدئ بدن السفينة المرقع الذي يصر متقدماً إلى الأمام. احتجَّت القرودة وصرخت ببغاوات لا مرئية، ورفرفت طيور كثيرة بلا أسماء محتجة بين الشواطئ.

### أغنية شعب البيارو عن الرجل الأبيض

سيئة مياه النهر

الأسماك تختبئ

في الوهدة الضيقة  
محمرة من الوحل .  
يعبر الرجل ذو اللحية  
الرجل الأبيض  
يعبر الرجل ذو اللحية  
في القارب الكبير  
بمجاديف تصرّ  
تعصّها الثعابين .

## 1531: مدينة المكسيك

### العذراء غوادالوبه

هل يصعد ذلك الضوء من الأرض أم يهبط من السماء؟ هل هو حشرة ضوئية أم نجم متوهج؟ لا يريد أن يغادر منحدرات تيبياك ويواصل إشعاعه في منتصف الليل على الحجارة ويتعلق بالأغصان. مهلوسا ومثارا، راه الهندى العارى خوان ديينغو: انفتح له ضوء الأضواء. تحطم قطعاً ذهبية وياقوتية وظهرت في قلبه المتوهج أكثر النساء المكسيكيات تألقاً وقالت له باللغة الناهواتلية: "أنا أم الإله".

سمع الأسقف أوماراكوايشك حامى الهنود الرسمي الذي عينه الإمبراطور، وحارس الحديد الذي يطبع على أوجه الهنود أسماء مالكيهم. رمي المخطوطات الآزتيكية في النار، الأوراق التي لونتها يد الشيطان، ودمر خمسمائة معبد وعشرين ألف تمثال.

عرف الأسقف زاماراكاه أنه كان لإلهة الأرض تونانتزن حرم على منحدرات تيبياك، وأن الهنود كانوا يحجون إلى هناك

ليعبده: "أمنا"، كما كانوا يسمّون تلك المرأة المكسوة بالثعابين والقلوب والأيدي.

شك الأسقف وقرّر أن خوان دييغو شاهد عذراء غوادالوبه العذراء التي ولدت في أستريما ندبورا، والتي جعلت شمس إسبانيا لونها داكنا وجاءت إلى وادي الآزتيكيين لتكون أما للمهزومين.

## 1531: سانتو دومينغو

### رسالة

ضغط على صدغيه وهو يتتبع الكلمات التي تتقدّم وتراجع وقال متوسلاً: "لا تفكر بمنزلتي الوضيعة وبفظاظة التعبير، فكر بالإرادة الطيبة التي تدفعني إلى الكلام".

كتب فراي بارتولومي ديلاس كاساس إلى مجلس الأنديز. سيكون من الأفضل كما أكد أن يذهب الهنود إلى الجحيم بهرطقاتهم ومماطلاتهم وعزلتهم بدلاً من أن ينقذهم المسيحيون. إن صرخات الدم الإنساني الكثير المسفوح تصل إلى السماء، صرخات الذين أحرقوا أحياء وتم شواؤهم ورميهم إلى الكلاب المتوحشة.

نهض، سار، خفق رداؤه الأبيض في سحب الغبار.

جلس فيما بعد على حافة الكرسي المزخرف، حك أنفه بالقلم. تكتب اليد ذات العظام الناتئة. من أجل إنقاذ الهنود في أميركا وتنفيذ إرادة الله اقترح فراي بارتولومي أن يحكم الصليب السيف وأن تخضع حاميات الجنود للأساقفة، وأن يُرسل المستعمرون إلى حراثة الأراضي تحت الحراسة. واصل كلامه: "يستطيع المستعمرون أن يحضروا السود والمغاربة وعبيدا آخرين ليخدموهم، أو يمكنهم أن يعيشوا معتمدين على عملهم الخاص أو بطريقة ما، لا تؤذي الهنود".

# 1531: جزيرة سيرانا

## المطروح<sup>14</sup> والآخر

تجرح ريح من الملح والشمس بدرو سيرانو الذي يتجول عارياً في الجروف، النوارس ترفرف وهي تطارده، يصنع لنفسه ظلاً بيده المرفوعة وعيناه مثبتتان على أرض العدو.

يتجه إلى الخليج الصغير ماشياً على الرمال وحين يصل إلى خط الحدود يتبول. لا يعبر الخط، لأنه يعرف إذا كان الآخر يراقب من أحد المخابئ سيظهر بقفزة واحدة ويتعامل مع هذا الاستفزاز.

يبول وينتظر. تصرخ الطيور وتهرب، أين وضع الرجل نفسه؟ السماء بياض يبهر البصر، ضوء كلسي، والجزيرة حجر يشتعل. صخور بيضاء، ظلال بيضاء، زبد فوق الرمل الأبيض: عالم صغير من الرمل والكلس. أين يستطيع الوغد أن يختبئ؟

مرّ وقت طويل على تحطم سفينة بدرو في تلك الليلة العاصفة. ووصل طول لحيته وشعره إلى صدره حين ظهر الآخر على لوح رماه المدّ الغاضب على الشاطئ. أفرغ بدرو رثتيه من الماء وقدم له الطعام والشراب وعلمه كيف لا يموت على تلك الجزيرة الصحراوية التي لا تنمو فيها إلا الصخور. علمه أن يقلب السلاحف ويقضي عليها بشق واحد، أن يقطع لحمها إلى شرائح ويجففه في الشمس، وأن يجمع ماء المطر في دروعها. علمه أن يصلي للمطر وأن يحفر للبطلينوس<sup>15</sup> تحت الرمل ودله، على مخابئ السرطانات والقريدس، وقدم له بيض السلاحف والمحار، الذي أحضره البحر وعلق بأغصان المنغروف<sup>16</sup>. عرف الآخر من بدرو أنه من الضروري

<sup>14</sup> المطروح: شخص يوفى إلى بلوغ الشاطئ إثر غرق سفينة.

<sup>15</sup> البطلينوس: حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي.

<sup>16</sup> المنغروف: شجر استوائي.

جمع كل شيء يرسله البحر إلى الحديد البحري لكي تشتعل النار ليلاً ونهاراً وتتغذى بالطحالب وأعشاب البحر، بالأغصان التائهة وقناديل البحر وعظام الأسماك. ساعده بدرو في بناء سقف من دروع السلاحف منح ظلاً عوض غياب الأشجار.

كانت الحرب الأولى هي حرب الماء. شك بدرو بأن الآخر يسرق أثناء نومه، واتهمه الآخر بأنه يشرب مثل وحش. حين نفذ الماء وسفحت القطرات الأخيرة التي تم التنازع عليها بالكلمات لم يكن لديهما بديل عن شرب بولهما والدم الذي استنزفاه من السلاحفة الأولى التي عثرا عليها. تمددا ليموتا في الظل وبقي لديهما لعاب قليل يكفي فقط للعنات الصامته.

أنقذهما المطر أخيراً، ظن الآخر أن بدرو يستطيع أن يخفض سقفه إلى النصف لأن السلاحف أصبحت نادرة. قال له: "إن منزلك قصر من دروع السلاحف أما أنا فأمضي النهار ملوياً في منزلي".

قال بدرو: "أتبرز عليك وعلى الأم التي أنجبتك، إذا كنت لا تحب جزيرتي اذهب من هنا"، وأشار بأصبعه إلى البحر الواسع. قرراً أن يقتسما المياه، يوجد من الآن فصاعداً حجرة للماء في كل طرف من الجزيرة.

جاءت حرب النار. دارا حول الجزيرة حاملين النار لعل سفينة عابرة تراهما. في إحدى الليالي، حين كان الآخر يقوم بالحراسة انطفأت النار، لعنه بدرو وهزه ليوقظه.

قال الآخر مكشراً عن أسنانه: "إذا كانت هذه جزيرتك فافعل هذا أيها الخنزير".

تدحرجا على الرمال، حين تعباً من ضرب بعضهما قرراً أن كلاً منهما سيشتعل ناره، ضرب بدرو حجراً بسكينه إلى أن تولدت بعض الشرارات، ومنذ ذلك الوقت أوقدت نار على كل طرف من الجزيرة.

بدأت حرب السكاكين، لم يكن يمتلك الآخر شيئاً يقطع به وطلب منه بدرو أن يمنحه قريداً طريا كلما أعاره سكينه.

بعد ذلك نشبت حرب الطعام والعقدُ الصدي.



حين انتهت حربُ قذفِ الأحجارِ وقعا هدنة واتفاقية حدود،  
لم يكن يوجد سجلات أو أوراق في هذا المكان المهجور، ولا أحد  
منهما يستطيع أن يوقع اسمه، إلا أنهما رسما الحدود وأقسما بالله  
والملك أن يحترما ذلك. قذفا سمكة في الجو. رسم بدرو نصف  
الجزيرة التي تواجه كارتاجينا وحدد الآخر النصف الذي يواجه  
سانتياغو دي كوبا.

قضم بدرو أظافره وهو واقف على الحدود، نظر إلى الأعلى وكأنه  
يطلب المطر ويفكر: "لابد أنه مختبئ في أحد الشقوق، أستطيع أن  
أشم رائحته، هذا الأجر، إنه في وسط المحيط ولا يستحم أبدا،  
سيتقلى بدهنه. إنه هناك نعم".

صرخ: "مرحباً يا ثقب المؤخرة".

أجابه صخب الرعد وعريضة النوارس وأصوات الريح.

صاح: "أيها العاق، يا ابن العاهرة"، إلى أن انفجرت حنجرتَه  
وركض من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر جيئةً وذهاباً وحيدا وعاريا  
على الرمال.

## 1532: كاجماركا

### بيزارو

كنس ألف رجل ممرّ الأنكي الذي يؤدي إلى الحي الكبير حيث  
ينتظر الإسبان مختبئين. ارتجفت الجموع حين مرّ الأب المحبوب،  
الواحد، الذي لا شريك له، إله العمل والراحة. صمت المغنون وجمد  
الراقصون، وفي الضوء الأخير للنهار توهجت تيجان وأردية "أتاهوالبا"  
وبطانتته من نبلاء المملكة بالذهب والفضة.

أين الآلهة التي أحضرتها الريح؟ وصل الأنكي إلى وسط الحي  
وأصدر أمرا بالانتظار. منذ بضعة أيام اخترق جاسوس معسكر الغزاة.

شدّ لحاهم وعاد ليخبر أنهم ليسوا سوى حفنة من اللصوص جاؤوا من البحر. كلفه ذلك التجديف حياته. أين أبناء "يراشوشا" الذين يرتدون النجوم في كعابهم ويرسلون الرعود التي تسبب السُّبات والذعر والتشتت والموت؟

ظهر الكاهن بيثنتي دي فالفيرد من الظلال وذهب لمقابلة آتاهوالبا. رفع الإنجيل في يد والصليب في اليد الأخرى كأنه يوقف عاصفة في أعالي البحار وصرخ أن الله الحقيقي هو هنا وكل ما عداه باطل. ترجم المترجم وقال له آتاهوالبا وهو على رأس الحشد: "من قال لك هذا؟".

- "قال ذلك الإنجيل، الكتاب المقدس".

- "دعه يقل لي".

على بعد بضعة خطوات أشهر بيزارو سيفه.

نظر آتاهوالبا إلى الإنجيل، قلبه بيده، هزه ليجعله يتكلم، ضغطه على أذنه ثم قال: "إنه لا يقول شيئا. إنه فارغ".

ثم رماه إلى الأرض.

كان بيزارو ينتظر هذه اللحظة منذ ذلك اليوم الذي ركع فيه أمام الإمبراطور تشارلز الخامس ووصف الإمبراطورية بأنها كبيرة كأوروبا، وأنه اكتشفها واقترح غزوها ووعد بأروع كنز في تاريخ الإنسانية. وحتى قبل هذه اللحظة منذ اليوم الذي رسم فيه سيفه خطأ في الرمال وانحنى بعض الجنود المرضى المتضورون جوعا وأقسموا أن يتبعوه إلى النهاية. وأيضا قبل ذلك بكثير: انتظر بيزارو هذه اللحظة منذ أن كان مرميا على باب كنيسة في أستريماندورا منذ أربعة وخمسين عاما وشرب حليب التفاف<sup>17</sup> لأنه لم يكن يوجد أحد يرضعه.

صرخ بيزارو وانقضّ. وعند الإشارة ظهر الفخّ، وسط دوي أبواق الإغارة وزئير البنادق هاجم الفرسان الحشد الأعزل المنذهل.

<sup>17</sup> التفاف: عشب ذو عصارة لبنية.

## 1533: كاجماركا

### الفدية

كۆم الذهب والفضة لشراء حياة آتاهوالبا. كحشد من النمل تدفقت على طرق الإمبراطورية الأربع خطوط طويلة من اللامات وبشر تحني أكتافهم الحمولات. جاءت الغنيمة الأروع من كوزكو: حديقة كاملة من الأشجار والأزهار الذهبية والأحجار الكريمة والطيور والحيوانات الفضية النقية والفيروزية واللازوردية.

ابتلع الفرن الآلهة والحليّ وتقياً سبائك الذهب والفضة. تنازع الضباط والجنود على توزيعها إذ إنهم لم يحصلوا على رواتب منذ ستة أعوام.

خصّص بيزارو من كل خمس سبائك حصّة للملك ثم رسم إشارة الصليب. طلب مساعدة الله الذي يعرف كل شيء ليرى العدالة وقد تحققت وطلب مساعدة هيرناندو دي سوتو الذي يعرف كيف يقرأ كي يراقب الناسخ.

خصّص جزءاً للكنيسة وآخر للكاهن المرافق. كافأ بسخاء أخوته وضباطه الآخرين، أخذ كل جندي مقاتل أكثر مما يجمعه الملك فيليب في عام وأصبح بيزارو أغنى رجل في العالم. خصّص أسر آتاهوالبا لنفسه ما يعادل مرتين ما يصرفه بلاط الملك تشارلز بخدمه الستمائة في عام، هذا دون أن تحسب المحفّة الأنكية التي يبلغ وزنها ثلاثة وثمانين كيلو غراماً من الذهب الخالص وهذه غنيمة له كقائد.

## 1533: كاجماركا

### آتاهوالبا

عَبَرَ قوس قزح أسود السَّماء، لم يرغب آتاهوالبا الأنكي أن يصدّق ذلك.

في يوم الاحتفال الشمسي سقط نَسْرٌ ميثاً في ساحة السعادة، لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك .

قتل الرسل الذين جاؤوا بأخبار سيئة وقطع بضربة فأس واحدة رأس العراف الذي تنبأ بسوء الحظ. أحرق معبد الوحي وقطع شهود النبوءة إلى أشلاء.

قيّد آتاهوالبا أبناء أخيه الثمانين على أعمدة نُصِبَتْ على الطرق وتغذّت العقبان على لحومهم.

صبغت زوجات هوبسكار مياه نهر آدماركا بالدم. أكل هواسكار الذي سجّنه آتاهوالبا خراء البشر وشرب بول الخرفان وزوّج إلى صخرة كسيت بالثياب. كان هواسكار هو آخر من قال: "سيقتلونه كما سيقتلني". لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

حين تحوّل قصره إلى سجن له، لم يرغب أن يصدق ذلك. قال آتاهوالبا الذي سجّنه بيزارو: "أنا أعظم الأمراء على الأرض". ملأت الغدية غرفة بالذهب واثنتين بالفضة. صهر الغزاة حتى المهّد الذهبي الذي سمع فيه آتاهوالبا أغنيته الأولى.

أخبره بيزارو وهو جالس على عرشه أنه قرّر أن يؤكد حكم الموت عليه، أجاب آتاهوالبا: "لا تمزح معي هكذا". لم يرغب أن يصدق ذلك الآن وهو يصعد خطوة إثر خطوة الدرج جاراً أغلاله في الضوء اللبني للفجر.

انتشرت الأنباء حالاً بين أطفال الأرض الذين لا يحصى لهم عدد، والمحكومين بدفع الجزية لابن الشمس. بكوا في كويتو موت الظل الذي يحمي: منذهلاً، ضائعاً بلا ذاكرة ووحيداً. عمّ الفرّح في "كوزكو" وسفح الشراب.

كان آتاهوالبا مقيداً من يديه ورجليه وعنقه، لكنه كان ما يزال يفكر: "ماذا فعلت لأستحق الموت؟".

عند قدم المشنقة رفض أن يصدق أن إنساناً هزمه. لا أحد إلا الآلهة يستطيع أن يفعل هذا، لقد خانته والده الشمس.

بكي وقبّل الصليب وقبل العمادة قبل أن تحطم عنقه الضاغطة الحديدية. وما هوذا الآن يحمل اسم فرانسيسكو الغازي، ويترك بعنف على أبواب جنة الأوروبيين حيث لا مكان له.

## 1533: هاكوي كوانا

### السّرّ

تقدّم بيزارو نحو كوزكو على رأس جيش كبير. أضاف الملك الآنكي الجديد آلاف الهنود إلى حفنة من الغزاة، عرقل ضباط آتاوالبا تقدّمه. أسر بيزارو في وادي هاكوي كوانا أحد رسل أعدائه. لعقت النار باطن قدميه.

- "ماذا تقول هذه الرسالة؟"

كان رجلاً متمرساً بالجري. عبر الرياح الجليدية للسّهل وحرارة الصحراء الشرسة، عودهُ عمله على الألم والإعياء، إنه يئنّ لكنه لن يتكلم.

بعد عذاب طويل ارتخى لسانه فقال: "لن تستطيع الجياد أن تتسلق الجبال".

- "ماذا أيضاً؟"

- "لا يوجد ما يخشى منه. إن هذه الخيول جبانة لكنها لا تؤذي".

- "وماذا أيضاً؟"

جعلوه يمشي على النار.

- "وماذا أيضاً؟"

فقد قدميه وقبل أن يفقد حياته قال: "أنتم ستموتون أيضاً".

## 1533: كوزكو

### الغزاة يدخلون إلى المدينة المقدسة

في الظهيرة المتألقة شق الجنود طريقهم عبر سحب الدخان. اختلطت رائحة الجلد المتعرق برائحة الاشتعال بينما سُمعت قعقة حوافر الأحصنة وعجلات المدافع.

ارتفع مذبح في الساحة، واكبت رايات حريرية مطرزة بالنسور الإله الجديد المفتوح الذراعين والملتحى كأبنائه. ألم يشاهد الإله الجديد أبناءه يحملون الفؤوس بأيديهم ويقفزون فوق ذهب المعابد والمدافن؟

وسط أنقاض كوزكو، كانت العجايز والمشلولون الذين فحمتهم النار ينتظرون بصمت الأيام القادمة.

## 1533: ريوبامبا

### ألفارادو

رست السفن منذ نصف عام في بويرتو فييجو. أبحر بدرودي ألفارادو من غواتيمالا، حالماً بكنوز مملكة عذراء، ذهب معه خمسمائة إسباني وعشرون ألفاً من الهنود والزنوج العبيد. أبلغه الرسل: "إن القوة التي تنتظرك ستجعل ما تراهى لك كالقذارة، وفي شمال تمييز ستتضاعف شهرتك وثروتك. لقد أصبح بيزارو وأماغرو سيدين في الجنوب إلا أن مملكة كيوتو الخيالية لا يمتلكها أحد".

عثروا على الذهب والفضة والزمرد في القرى الساحلية، انطلقوا إلى الجبال حاملين ما قدروا عليه من الثروات، اعترضتهم الأدغال والمستنقعات، والحمى التي تقتل في يوم أو تترك المرء مجنوناً، والمطر

المرعب للرماد البركاني. حطمت العواصف الثلجية والرياح التي تقطع كالسكاكين عند سفوح الآنديز العبيد الذين لم يعرفوا البرد أبداً وبقي كثير من الإسبان هياكل عظمية في الجبال. الجنود الذين ترجلوا ليشدوا أحزمة سروج أحصنتهم بقوا متجمدين بشكل مستمر. رميت الغنائم في قاع الوهاد، قدم ألفارادو الذهب وازداد صخب الجنود من أجل الطعام والمأوى. بعينين محروقتين من الثلج الذي يعمي البصر استمر ألفارادو بقيادة القافلة، كان يقطع بضربة سيف واحدة رؤوس العبيد الذين سقطوا والجنود الذين لم يرغبوا بالذهاب.

موتى أكثر مما هم أحياء، عضلاتهم متصلبة ودمهم متجمد، وصل الرجال الأكثر بأساً إلى هضبة، وأخيراً وصلوا إلى الطريق الملكي للأنكيين الذي يؤدي إلى كويتو، إلى الجنة. حالما وصلوا عثروا على آثار الحوافر الطرية على الوحل. لقد سبقهم القائد بينال كازار إليها.

## 1533: كويتو

### هذه المدينة تقتل نفسها

دخل رجال بينال كازار الذين لا يمكن إيقافهم. آلاف من الحلفاء الهنود، أعداء الأنكا، تجسّسوا وقتلوا من أجلهم. بعد ثلاث معارك سبق السيف العذل، أشعل القائد رومينا هوي، الذي كان يقرع طبول الانسحاب، النار في كويتو. لن يستمتع بها الغزاة حية ولن يعثروا على أية كنوز سوى تلك التي يمكن أن يحفروا المدافن ليعثروا عليها. ارتفعت مدينة كويتو، مهد وعرش آتاهوالبا، نارا عظيمة بين بركانين.

ابتعد رومينا هوي الذي لم يطعن في الظهر أبداً عن السنة اللهب المحلقة وعيناه دامتان من الدخان.

## 1533م: برشلونة

### الحروب المقدّسة

وصل رسل الأنباء السارة من أميركا، أغمض الإمبراطور عينيه وتخيّل الأشرعة تقترب ثم تذوّق رائحة القار والملح. تنفس الإمبراطور كالمحيط، كالدّ العالي، كالجزر ونفخ ليسرّع السفن المنتفخة بالكنوز.

كان القدر قد كافأه لتوه بمملكة جديدة يتكوّم فيها الذهب والفضة كالحديد في فيزكايا. الغنائم المدهشة في طريقها. ستمكّنه من تهدئة أصحاب البنوك الذين يخنقونه، وسيدفع لجنوده من الرّمّاحين السويسريين والمرتزقة الألمان والمشاة الإسبّان الذين لم يشاهدوا أبداً قطعة نقد في أحلامهم. ستموّل فدية آتاهالبا الحروب المقدّسة ضدّ الهلال الإسلامي الذي وصل إلى بوابات فيينا، وضدّ الهراطقة الذين يتبعون لوثر في ألمانيا. سيرسل الإمبراطور أسطولا عظيما لطرّد السلطان سليمان والقراصنة ذوي اللحي الحمراء من البحر الأبيض المتوسط.

تعكس المرآة صورة إله الحرب يرتدي درعاً دمشقياً مزخرفاً عند العنق وعلى صحن الصدر. يرتدي خوذة مريشة وله وجه شمس العظمة، تظهر حواجب كثيفة فوق عينين كئيبتين، ذقن منتصب إلى الأعلى تغطيه لحية. يحلم الإمبراطور بالجزائر ويسمع نداء القسطنطينية، تنتظر تونس أيضاً التي سقطت في أيدي الكفرة جنرال يسوع المسيح.

## 1533م: إشبيلية

### كنوز الأنكيين

أفرغت السفن الأولى الذهب والفضة على أرصفة مرفأ إشبيلية. جرّت الثيران الحمولات إلى غرفة التجارة، تصاعدت تمتات الدهشة.



من الحشد الذي أتى ليراقب عملية التفريغ، كان هناك حديث عن أسرار وعن ملك مهزوم وراء المحيط.

خرج سكيران من البار الذي يواجه رصيف المرفأ وانضما إلى الحشد،  
إنهما لا يحتفلان بالكنوز الآتية، كانا متوهجين بعد جلسة تناول خمور  
جيدة ولأنهما قطعاً عهدا على نفسيهما، اتفقا على تبادل زوجتيهما؛  
أنت تأخذ زوجتي التي هي كاللؤلؤة وأنا آخذ زوجتك رغم أنها لا  
تستحق الكثير، كانا يبحثان عن كاتب بالعدل ليجعل الأمر رسمياً.

لم يفكرا بذهب وفضة البيرو ولم يلتفت الحشد إلى المطروح الذي وصل مع  
الكنز. أنقذته سفينة جذبتها النار من جزيرة كاريبية، كان اسمه بدرو سبرانو  
ومنذ تسعة أعوام سبح ناجياً من حطام سفينة. يستخدم شعره ليجلس عليه  
ولحيته كرداء وله بشرة جلدية ولم يتوقف عن الحديث منذ أن أصعدوه إلى  
السفينة. والآن يتابع رواية حكايته وسط الزئير ولا أحد يصغي إليه.

## 1534م: ريوبامبا

### التضخم

حين وصلت أنباء ذهب آتاهوالبا إلى سانتو دومينغو ذهب الجميع  
للبحث عن السفن. كان أول من تحرك بسرعة ألونزو هيرنانديز  
المتاجر بالهنود. أبحر من بنما ولدى وصوله إلى تمبيز اشترى حصاناً،  
يكلف الحصان في تمبيز أكثر مما يكلف في بنما بسبع مرات وبثلاثين  
مرة مما يكلف في سانتو دومينغو.

أجبر تسلق الجبال هيرنانديز على المشي، وكى يكمل رحلته إلى  
كيوتو اشترى حصاناً آخر، دفع ما يزيد على كلفته بتسعين مرة في  
سانتو دومينغو، واشترى عبداً أسود بثلاثمائة وخمسين بيزو. إن سعر  
الحصان في ريوبامبا أعلى من سعر الإنسان بتسع مرات.

كلّ شيءٍ للبيع في المملكة، حتى الرايات الملطخة بالوحل والدم وكل شيءٍ مسعرٍ بسعر مرتفعٍ كالسماء. تباع السبيكة بقطعتين ورقيتين. يهزم التجار الذين وصلوا متأخرين الفاتحين دون أن يشهروا سيفاً.

## 1535: كوزكو

### العرض النحاسي

لا يستلقي على ركبتي الملك الصغير التابع لملك آخر صولجان ذهبي، بل عصا تشعّ بقطع زجاجية ملونة. يرتدي مانكو أنكا شُرابة قرمزية على رأسه إلا أن العقد الذهبي الثلاثي غائب عن عنقه حيث لا تتوهج الشمس ولا تتدلى الأقراص الّلامعة من أذنيه.

يخلو ظهر شقيق آتاهوالبا وعدوه ووريثه من عباءة الذهب وخيوط الفضة ونسيج الفيكونة<sup>18</sup>. اختفى الباز عن الرايات التي تضربها الريح وحل مكانه نسر إمبراطور أوروبا.

لا أحد يركع عند قدمي الأنكي الذي توجّه بيزارو.

## 1536: مدينة المكسيك

### موتولينيا

مشى فراي توريبينو موتولينيا حافياً على الهضبة حاملاً كيساً ثقيلاً على ظهره.

<sup>18</sup> الفيكونة: حيوان جنوب أميركي شبيه بالجمال.

موتولينيا كلمة محلية تعني شخصاً فقيراً ومبتلياً، ما يزال يلبس رداءً رثاً مرقعاً منحه اسمه منذ أعوام حين كان يصل حافياً كما الآن من ميناء فيراكروز.

يقف على قمة المنحدر وتمتدّ تحت قدميه البحيرة الكبيرة التي تتوهج فيها مدينة المكسيك.

يمسّد موتولينيا جبهته بيده. يتنفس بعمق وينصب في الأرض عشرة صلبان مصنوعة من أغصان ومربوطة بالحبال، حين ينصبها يخصّصها كالتالي:

”هذا الصليب يا إلهي هو من أجل الأمراض التي لم تكن معروفة هنا، والتي تنتشر برعب بين السكان المحليين“.

”وهذا من أجل الحرب، وهذا من أجل الجوع الذي قتل من الهنود ما يبلغ عدد قطرات البحر وذرات الرمال“.

”هذا من أجل جامعي الجزية، الدبابير التي تأكل عسل الهنود. وهذا من أجل الجزية التي تجبرهم على بيع أبنائهم وأراضيهم ليدفعوها“.

”وهذا من أجل مناجم الذهب التي تفوح منها نتانة الموت والتي لا يستطيع المرء أن يتقدّم فيها فرسخاً واحداً“.

”وهذا من أجل مدينة المكسيك العظيمة التي ترعرعت على أنقاض تينوشيتلان، ومن أجل الذين أحضروا العوارض الخشبية والأحجار على ظهورهم ليبنوها وهم يغنون ويصرخون ليلاً ونهاراً إلى أن ماتوا من الإعياء أو من الانهيارات“.

”وهذا من أجل الأرقاء الذين جرّوا إلى هنا من جميع الجهات كقطعان من الوحوش وحُفِرَ الوشم علي وجوههم. وهذا من أجل الذين تساقطوا على جانبي الطريق حاملين أثقالاً لتدعيم المناجم“.

”وهذا يا إلهي من أجل صراعاتنا الأبدية ومناوشاتنا نحن الإسبانيين والتي تنتهي دائماً بتعذيب الهنود وقتلهم“.

يُصلي موتولينيا راعياً أمام الصليان: "سامحهم يا رب. أتوسّل إليك أن تغفر لهم. أعرف جيداً أنهم يواصلون عبادة الأوثان الدموية، وإذا كانوا سابقاً يمتلكون مائة إله فهم الآن يمتلكون واحداً إضافياً. لا يستطيعون أن يميّزوا خبز القربان المقدّس عن حبة ذرة، ولكن إذا كانوا يستحقّون عقوبة يدك الجبارة فهم يستحقّون أيضاً شفقة قلبك الكريم".

يصلّب موتولينيا، ينفذ رداءً وينزل عن الهضبة. يصل إلى الأبرشية قبل بدء السلام المريمي. وحيداً في حجرته يتمدّد على فراشه القشّي ويمضغ ببطء وبصوت مسموع ترتّيه .

## 1536م: ماشو بيتشو

### مانكو آنكا

مريضاً من كونه ملكاً يُعامل ككلب انتفض مانكو آنكا ضدّ الرجال ذوي الوجوه المشعّرة. عين بيزارو على العرش الفارغ بولو شقيق مانكو آنكار وأتاهوالبا وهواسكار.

على ظهر حصانه، وعلى رأس جيش ضخم، حاصر مانكو آنكا كوزكو، تعالت النيران حول المدينة وسقط مطر سهام الصوفان المشتعل إلا أن الجوع أثر على الذين ضربوا الحصار أكثر مما أثر على المحاصرين. انسحب جنود مانكو آنكا بعد نصف عام وسط صيحات الحرب التي تشق الأرض.

عبر الآنكا نهر أوربامبا وبزغ بين القمم العالية المكّلة بالضباب تقوده درجات حجرية إلى مخبأ قمة الجبل السري، محمية بالمقاريس والأبراج المحصنة تفرض قلعة ماشوبيتشو سيادتها خارج العالم.

<sup>19</sup> الترتبية: كعكة مسطحة مدورة من دقيق الذرة.

## 1536: وادي أولوا

### غونزالو كويريرو

انسحب خيالة ألونزو دي آفيلا المنتصرون، استلقى في ساحة المعركة بين الخاسرين هندي ملتج، جسده العاري أرابيسك من الحبر والدم، تتدلى رموز ذهبية من أنفه وقد شقتُ طلقةً بندقيةً جبهته.

كان اسمه غونزالو كويريرو، كان في بداية حياته يعمل بحاراً في ميناء بالوس. بدأت حياته الثانية منذ ربع قرن حين تحطمت سفينته على شاطئ يوكاتان، عاش بين الهنود منذ ذلك الوقت، كان زعيماً أيام السلم وقائداً في الحرب، أنجبت له امرأة من المايا ثلاثة أبناء. في عام 1519 أرسل هرنان كورتيز في طلبه.

قال غونزالو للمترجم: "لا! انظر إلى جمال أبنائي، اترك لي فقط بعض هذه الكرات الحمراء التي تحملها. سأعطيها لأبنائي وأقول لهم: لقد أرسل لي أخوتي هذه الألعاب من بلدي".

بعد وقت طويل سقط غونزالو كويريرو وهو يدافع عن بلد آخر ويقاوم إلى جانب أخوة آخرين اختارهم بنفسه، إنه أول غاز غزاه الهنود.

## 1536: كوليكان

### كايزا دي فاكا

مرّت ثمانية أعوام على تحطم سفينة كابيذا دي فاكا قرب جزيرة مال هادو، وصل أربعة أشخاص فقط، أربعة إلى كواليكان من بين ستمائة رجل أبحروا من الأندلس، ترك بعضهم على الطريق وابتلع

البحر عدداً كبيراً منهم، مات البعض الآخر من الجوع والبرد أو قتلهم الهنود.

عبر ألفارو نونيركابيزا دي فاكا وآلونزو ديل كاستيللو وأندريه دورا نتيث واستينايبكو وعربي أسود أميركا كلها سيراً على الأقدام من فلوريدا إلى شواطئ المحيط الهادي، عراة ومسلوخي الجلد كالثعابين أكلوا العشب البري والجذور والديدان والسحالي أو أي شيء عثروا عليه حياً إلى أن قدم لهم الهنود الأغذية والتين الشوكي وقرون الذرة مقابل معجزاتهم وعلاجاتهم. أعاد كابيزا دي فاكا أكثر من هندي واحد إلى الحياة بصلاته الربانية وسلامه الريمي وشفى كثيراً من المرضى بشارة الصليب والنفخ على مواضع الآمهم. انتشرت شهرة مجترحي المعجزات في الأرجاء، وجاء كثيرون ليسلموا عليهم على الطرقات واستقبلتهم القرى بالرقص والغناء.

حين شقوا طريقهم جنوباً ظهرت في سينالو العلامات الأولى التي تدل على وجود المسيحيين. عثر كابيزا دي فاكا ورفاقه على أبازيم ومسامير لكعوب الأحصنة وعلى أعمدة للربط، عثروا أيضاً على الخوف، وعلى حقول مهجورة وهنود نزحوا إلى الجبال.

قال كابيزا دي فاكا: "نشعر بالدفء، بعد مسير طويل اقتربنا من قوماً".

قال الهنود: "ليسوا مثلكم؛ تجيئون من حيث تشرق الشمس ويجيئون من حيث تغرب، إنكم تشفون المرضى وهم يقتلون الأصحاء، تمشون عراة وحفاة ولستم جشعين مثلهم".

## 1537: روما

### يقول البابا إنهم مثلنا

يطبع البابا بولس الثالث اسمه والذي يشبه اسم القديس بطرس والقديس بولس، بالختم الرصاصي على مخطوطة ورقية،

يَصْدُرُ أمر بابوي رسمي عن الفاتيكان يقول إن الهنود بشر ويمتلكون روحاً وعقلاً.

## 1538: سانتو دومينغو

### المرأة

أحجار تصدر دخاناً ومعاول تلمع تحت شمس الظهرية، يتعالى زئير في الميناء، أحضرت سفن شراعية كبيرة مدفعية ثقيلة من إشبيلية من أجل حصن سانتو دومينغو.

راقب فرنانديز دي أوفييدو، رئيس البلدية، عملية نقل المدافع. تحت ضرب السياط أنزل الأرقاء السود الحمولة بسرعة كبيرة. صرت العربات تحت حمولتها من الحديد والبرونز. تحرك عبيد آخرون جيئةً وزهاباً وسط الصخب كي يدلقوا سطول الماء على اللهب المتصاعد عن محاور العجلات الحامية.

بحثت فتاة هندية عن سيدها وسط الهياج والصخب، كان جسدها مغطى بالبتور وكانت كل خطوة تخطوها نصراً لأن ثيابها الهزيلة تعذب جلدها، عانت طوال الليل ونصف النهار وبصرحات متتالية من حروق بالأسيد. أحرقت بيديها جذور شجرة "الغو" فركتها بين يديها وصنعت عجينة دهنت بها جسدها لأن مادتها تحرق الجلد وتزيل لونه وتحول النساء الهنديات والأفريقيات إلى سيدات قشتاليات بيضاوات.

- "ألم تعرفني يا سيدي؟"

دفعها أوفييدو بعيداً إلا أن الفتاة ألحت بصوتها الواهن تابعة سيدها كظله وهو يجري ويصدر الأوامر إلى كبار العمال:

- "ألا تعرف من أنا؟"

سقطت الفتاة على الأرض وتابعت: "سيدي، سيدي، أراهن أنك لا تعرف من أنا".

## 1538م: وادي بوغوتا

### لحية سوداء، لحية حمراء، لحية بيضاء

ذهب غونزالو خمينيث كويسادا ذو اللحية السوداء والعينين السوداوين منذ عام ليبحت عن منابع الذهب ومنبع نهر المجدلينا وتبعه نصف سكان سانتا مارتا.

عبروا أراضي ومستنقعات كانت تتبخّر تحت أشعة الشمس، حين وصلوا إلى ضفة النهر لم يبق أحد من آلاف الهنود الذين سبقوه ليحملوا المدافع والخبز والملح على قيد الحياة، وبما أنه لم يعد يوجد عبيد يصطادون لهم طبخوا الكلاب وأكلوا لحم الأحصنة. كان الجوع أكثر سوءاً من التماسيح والأفاعي والبعوض. التهموا الجذور وقطع الجلد. كانوا يتنازعون على لحم الميت قبل أن يمنحه الكاهن تاشيرة الذهب إلى الجنة.

أبحروا في النهر. لسعتهم الأمطار، ولم تهب ريح لتدفع الأشرعة، إلى أن قرّر كويسادا تغيير الاتجاه: "يجب أن تكون الدورادو في الجانب الآخر من الجبال وليس عند منبع النهر". هذا ما قاله لهم. وهكذا ساروا عبر الجبال.

بعد أن تسلّقوا كثيراً اقترب كويسادا من الأودية الخضراء لأمة التشيبشا، على رأس سبعين فزاعة تأكلها الحمى رفع سيفه وأعلن أنه سيتوقف عن طاعة أوامر حاكمه.

غادر نيكولاس فيدرمان ذو اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين كوزكو منذ ثلاثة أعوام ونصف ليبحت عن المركز الذهبي للأرض منطلقاً في رحلة عبر الجبال والسهول، كان أول من مات هنوده ورجاله السود.



حين وصل فيدرمان إلى القمم المكلفة بالسحب شاهد الأودية الخضراء لأمة التشيشبا، بقي معه مائة وسبعون جندياً من الأشباح التي تجرّ أنفسها مغلقة بجلود الأيائل، قَبِل فيدرمان سيفه، اتَّخَذَ موقِعاً وأعلن أنه لن يطيع بعد الآن أوامر حاكمه.

انطلق سيباستيان بينالكازار ذو العينين الرماديتين واللحية التي شَيَّبها العمر أو غبار الطريق منذ ثلاثة أعوام بحثاً عن الكنوز التي فرَّغتها مدينة كوزكو وأحرقتها وحرَّمته منها. لم يتبق من الهنود والأوروبيين الذين ذهبوا معه سوى مائة وستين شخصاً من الأوروبيين المرهقين. هادماً المدن وبانيها، بينالكازار ترك خلفه قافلة من الرماد والدم وعوالم جديدة ولدت من حدِّ سيفه حول المشانق وفي الساحة وحول الساحة والكنيسة والمنازل والمتاريس.

توهجت خوذة الغازي علي قمة رؤوس الجبال. استولى بينالكازار على الأودية الخضراء لأمة التشيشبا وأعلن أنه لن يطيع ثانية أوامر حاكمه.

جاء كويسادا من الشمال وجاء فيدرمان من الشرق ومن الجنوب جاء بينالكازار. صليبٌ وبنديقةٌ، سماءٌ وترابٌ، بعد تجوُّل طويل وجنونيَّ يهبط القواد الثلاثة المتمردون منحدرات الجبال ويلتقون في سهل بوغوتا.

كان بيتالكازار يعرف أن زعماء هذه المنطقة يسافرون على محفَّات ذهبية، سمع فيدرمان الألحان العذبة التي تعزفها النسائم على أغطية الذهب المتدلّية في المعابد والقصور، وركع كويسادا على شاطئ البحيرة حيث يعمد الكهنة المحليون الذين يغطيهم غبار الذهب أنفسهم.

من الذي سيصل إلى الدورادو؟ كويسيدا الغرناطي الذي يقول إنه وصل إلى هنا أولاً أم فيدرمان الألماني الذي يغزو باسم صاحب البنك فيلزر، أم بينالكازار القرطبي؟

رازت الجيوش الثلاثة المقرَّحة الجلد والبارزة العظام قوة بعضها وانتظرت. انفجر الألماني ضاحكاً فالتقط الأندلسي العدوى إلى أن انهار القواد الثلاثة وسقطوا أرضاً من الضحك والجوع ومن السبب الذي جاء بهم

إلى هنا، ذلك الذي هو غير موجود والذي جاء دون أن يصل، معرفة أن ألدورادو لن تكون مُلكاً لأحد.

## 1538م: بركان مسايا

### إله المال : فولكان

خرجت من فوهة البركان مسايا في أزمنة أخرى عجوز عارية تتقن أسراراً كثيرة وقدمت نصائح جيدة عن الذرة والحرب. ومنذ أن وصل المسيحيون رفضت المرأة، كما قال الهنود، أن تغادر الجبل المشتعل.

اعتقد كثير من المسيحيين أن مسايا هو فم الجحيم وأن توهجاته ودخانه الناري الأبدي يعلنون العقوبات الأبدية. أكد آخرون أن هذه السحابة الدخانية الساطعة التي تُرى من بعد خمسين فرسخاً صادرة عن الذهب والفضة اللذين يُصهران وينقيان ويغليان في بطن الجبل وكلما ازداد تأجج النار ازداد نقاؤهما.

أعدّ للرحلة منذ عام، استيقظ الأب بلاس ديل كاستيللو باكراً جداً وأصغى إلى إقرافات بدرو رويز وبينيتو دافيلو وخوان سانشيز. توسّل الأربعة طلباً للغفران والدموع تسيل عن أعينهم ثم انطلقوا في الصباح.

كان القسيس هو أول من اقترب مرتدياً خوذة وبطرشيلاً<sup>20</sup> على صدره، وحاملاً صليباً في يده إلى الساحة المنبسطة الكبيرة التي تحيط بغم اللهب.

أسودّ لونه وهو يركز الصليب بين الأحجار: "هذا ليس جحيماً بل جنة". تبعه رفاقه حالاً. دلى الهنود من الأعلى بكرة سلاسل ومراجل وعوارض خشبية.

<sup>20</sup> البطرشيل: نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره في الخدمة.

غطسوا الرجل ولكن لم يخرج ذهب وفضة من الأعماق، لا شيء سوى خبث الكبريت، وحين غطسوا الرجل عميقاً أكله البركان.

## 1541م: سانتياغودي تشيلي

### أنيز سواريس

اكتشف بدرو دي فالديفيا هذه الهضبة وهذا الوادي منذ بضعة شهور. سمى الآروكانيون هذه الهضبة التي اكتشفوها منذ آلاف السنين هويلين أي الألم. عمدها فالديفيا باسم لوسيا.

من أعلى الهضبة شاهد فالديفيا التراب الأخضر بين ذراعي النهر وقرر أنه لا يوجد في العالم مكان أجمل من هذا لبناء مدينة للحواري سانتياغو الذي يرافق الغزاة ويقاوم من أجلهم، قطع الجو بسيفه في الجهات الأصلية التي حددتها البوصلة وهكذا ولدت سانتياغو بحدوده الجديدة.

إنها تستمتع الآن بصيفها الأول: بُنيت بعض المنازل من الطين والأخشاب، وسقفت بالقش، ومهدت ساحة في الوسط، وأحيطت بسور من القضبان المغروزة.

بقي خمسون رجلاً في سانتياغو. مكث فالديفيا معهم على ضفة نهر كاتشابول، حين طلع الفجر نفخ الحارس بوق الإنذار من البرج. اقتربت فرق خيالة من السكان الأصليين من الجهات الأربع، سمع الإسبان صرخات الحرب وسقط عليهم حالا وابل من السهام.

تحولت بعض المنازل ظهراً إلى رماد وسقط السور، قاتلوا جسداً لجسد في الساحة، ركضت أنيز إلى السجن. هناك كان يقف الحارس الذي يحرس سبعة من الزعماء الآروكانيين الذين أسره الإسبان منذ مدة، توسلت إليه وأمرته أن يقطع رؤوسهم.

- "ماذا؟"

- "رؤوسهم".

- "ماذا".

- "هكذا".

قبضت على سيفه فطارت أربعة رؤوس في الجو. حوّلت الرؤوس المحاصرين إلى مطاردين. لم يستدع الإسبان القديس سانتياغو فحسب بل سيدتنا التي تقدم المساعدة الجيدة أيضا.

كانت آنيز سواريس المرأة الملقية أول من وقع حين بدأ فالديفيا حملات التطويع في منزله في كوزكو. جاءت إلى هذه الأراضي الجنوبية على رأس القوات الغازية راكبة على حصانها قرب فالديفيا حاملة سيفاً فولاذياً كبيراً ومرتدية درعا من الزرد الرائع، ومنذ ذلك الوقت وهي تتقدم وتقاتل وتنام مع فالديفيا. واليوم أخذت مكانه.

إنها المرأة الوحيدة بين الرجال. يقولون إنها مسترجلة، ويقارنونها مع رولدان أوإيل سيد، وتذكر أصابع القائد فرانسيسكو دي آغيري بالزيت. لقد التصقت هذه الأصابع على مقبض سيفه ولا يمكن فصلها رغم أن الحرب انتهت.

## 1541: صخرة نوشيستلان

أبدأ

قبضوا حتى على حماره، أولئك الذين يسرقون الآن آنيته الفضية ويدوسون على سجاداته رموه خارج المكسيك بأقدام مغلولة.

بعد عشرة أعوام استدعى المسؤولون المحارب، تخلى ألفارادو عن حكم غواتيمالا وجاء كي يطهر هذه الأرض التي فتحها كورتيز من الهنود غير المتنين، يريد أن يتجه شمالاً إلى مدن سيبولاً الذهبية السبع. في حمى المعركة سقط عليه حصان ورماه عن الجرف.

عاد بدرو ألفارادو إلى المكسيك وفي المكسيك سقط، علقت خوذته  
بغصن وسقط سيفه بين العليق. "لا تشهري بدون شرف"، ما يزال  
يمكن قراءة هذه الجملة على الحدّ الفولاذي.

## 1541: مدينة غواتيمالا القديمة

### بياتريس

تزوج بدرو ألفارادو من فرانسيسكا إلا أنها ماتت من شاي شربتها  
في الطريق فتزوج شقيقتها بياتريس.

كانت بياتريس تنتظره في غواتيمالا حين علمت أنها أرملة منذ  
شهرين. كللت بيتها بالسواد من الداخل والخارج وأغلقت  
الأبواب والنوافذ بالمسامير لتصنع عزلة خاصة تستطيع أن تعبر  
فيها عن ألم قلبها.

بكت وهي تنظر في المرآة إلى جسدها العاري الذي جفّ من  
الانتظار، ولم يعد يمتلك الآن شيئاً ينتظره، هذا الجسد الذي  
توقف عن الغناء، بكت من فمها الذي يستطيع أن يقول فقط:  
"أين أنت يا حبيبي".

بكت من المنزل الذي كرهته والأرض التي ليست لها والسنين التي  
سُفّحت بين المنزل والكنيسة من القداس إلى العشاء من العمادة إلى  
الدفن محاطة بالجنود السكارى والخدم الهنود. بكت من الطعام الذي  
يزعجها ومن أجل الذي لم يأت أبداً لأن الحرب قائمة دائماً والغزو  
مستمر. بكت من أجل جميع الدموع التي سفحتها وحيدة في فراشها  
حين كانت تجفل من صياح ديك أو عواء كلب - وتعلمت وهي وحيدة  
أن تقرأ الظلمة وتصغي إلى الصمت وترسم في الهواء. بكت وبكت  
محطمة من الداخل.

حين خرجت من المعتزل أعلنت: "أنا حاكمة غواتيمالا".

لم تستطع أن تحكم طويلاً.

تقياً البركان شللاً من الماء والحجارة أغرق المدينة وقتل كل ما لمسه. تابع الطوفان تقدمه نحو منزل بياتريس التي ركضت إلى الكنيسة واتجهت إلى المذبح وعانقت العذراء. عانقت وصيقاتها قدميها بينما صرخت بياتريس: "هل أنت هناك يا حبيبي؟".

دمر الطوفان المدينة التي بناها ألفارادو وبينما هو يزأر بصوت أكثر علواً استمرت بياتريس بالصراخ: "هل أنت هناك؟".

## 1541: كابو فريو

### في الفجر، غنى الجندب

كان صامتاً منذ أن أسعدوه إلى السفينة في ميناء قاش، أمضى شهرين ونصفاً حزينا في قفصه الصغير، واليوم سُمعت صيحة فرح من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها وأيقظت الجميع.

- "معجزة! معجزة!"

مكّن هذا السفينة من أن تغيّر اتجاهها. كان الجندب يحتفل باقتراب اليابسة، شكراً للجندب الذي أنقذ البحارة من تحطم مؤكد على صخور الشاطئ البرازيلي.

كان كابيزا الذي يقود هذه الرحلة يمتلك خبرة جيدة بهذه المسائل، سمّوه آفار مجترح المعجزات منذ أن عبر أميركا من شاطئ إلى آخر ليحيي الأموات في القرى الهندية.

## 1542: كويتو

### الدورادو

خاض رجال غونزالو بيزارو لوقت طويل في عمق الأدغال بحثاً عن الأمير ذي الجلد الذهبي وأيكات القرفة. صادفوا ثعابين وخفافيش وجيوشاً من البعوض، مستنقعات وأمطاراً لا تتوقف أبداً. كان البرق يلمع ليلة بعد أخرى ليضيء طريق هذه القافلة من الرجال العراة الذين أرهقهم السُعار.

وصلوا بعد الظهر إلى محيط كويتو هياكل عظيمة متقرحة وتفوه كل منهم باسمه ليتم التعرف عليه. لم يعد من هذه الرحلة أربعة آلاف عبدٍ هندي ذهبوا معهم.

ركع القائد غونزالو وقبّل الأرض، رأى البارحة في حلمه تنيناً ينفض عليه ويمزقه إرباً ويأكل قلبه، وهذا منعه من النوم بعد أن نقلوا إليه الأنباء.

”لقد اغتيل شقيقك فرانسيسكو في ليما“.

## 1543: كونلابيارا

### الأمازونيات

لم يكن مسار المعركة سيئاً في ذلك اليوم، يوم القديس جون، فوسط طلقات البنادق وأقواس النشاب كان رجال فرانسيسكو أورييلانا يفرغون القوارب البيضاء القادمة من الشاطئ، إلا أن السحرة كانوا في المرّ الحربي، ظهرت المرأة المحاربة فجأة جميلة بشكل فضائحي وشرسة ثم غطت الزوارق بعد ذلك النهر، هربت السفن عكس التيار

كالشياهم مذعورة مغطاة بالسهام من المقدمة إلى المؤخرة بما فيه الصواري الرئيسية.

كانت هذه المرأة السليطة المشاكسة تضحك وهي تحارب، واجهت النساء اللواتي يتمتعن بجاذبية كبيرة وجمال مذهل الرجال ولم يعد يوجد خوف في قرية كونلابيار، قاتلن وهن يضحكن ويرقصن وصدروهن ترتعش في النسيم إلى أن ضاع الإسبان خلف فم نهر تاباخوس مرهقين من الجهد الكبير ومن الدهشة.

سمعوا حكايات عن النساء وهم يصدقونها الآن، إنهن يعشن في الجنوب في أرض تخلو من الرجال. إذا ولد الأطفال ذكورا يتم إغراقهم، وحين يجوع الجسد يشنون حربا على القبائل الساحلية، يأخذون الأسرى ويعيدونهم في اليوم التالي، بعد ليلة من ممارسة الحب ذلك الذي يذهب شابا يعود عجوزا.

تابع أريلانا وجنوده الإبحار في أغزر أنهار العالم ووصل إلى البحر دون قبطان أو بوصلة أو خريطة، أبحر في المركبين اللذين دُعما في وسط الغابة واندفع عبر نهر الأمازون في الأدغال دون أن يمتلك أحد القدرة على التجديف.

صلّوا طالبين من الله أن يجعل عدوهم التالي رجلاً مهما كان عددهم.

## 1542: نهر إغوازو

### في وضح النهار

محترقاً تحت لباسه الحديدي، متألماً من الجراح والعضّ ترجل الفار نونيزكابيزا دي فاكا عن حصانه ورأى الله للمرة الأولى.

رفرفت فراشات كبيرة حوله. ركع كابيزا فاكا أمام شلالات إغوازو. زئير ومياه زبدية تهبط من السماء لتغسل دم جميع القتلى



ولتسفي جميع الصحارى. جداول تتحول إلى أبخرة حرة وأقواس قزح تسحب الأدغال من أعماق الأرض الجافة، المياه التي تجار، مني الله، تخصب الأرض، مياه يوم الخلق الأول الأبدى.

عبر كاييزا دي فاكا نصف العالم سيراً على الأقدام وأبحر ليعبر النصف الآخر كي يعثر على مطر الله هذا. عانى حوادث التحطم والآلام من أجل أن يقابله، ولكي يراه ولد وله عينان في وجهه، وما سيبقى له من الحياة سيكون هبة.

## 1534: كوباغوا

### صيادو اللآلئ

سقطت مدينة قادش الجديدة بعد أن دمرها الزلزال البحري والقرصنة، وسابقاً سقطت الجزيرة كلها، جزيرة كوباغوا هذه التي باع فيها كولومبوس منذ خمسة وأربعين عاماً الهنود صحنوناً مكسورةً مقابل اللآلئ، بعد عمليات صيد كثيرة نفذ المحار واستلقى صيادو اللآلئ في قاع البحر.

كان الهنود الأرقاء يجبرون على الغوص في المياه بعد أن تربط صخور على ظهورهم كي يصلوا إلى الأمكنة التي تتواجد فيها أكبر اللآلئ، ومن شروق الشمس إلى شروقها يسبحون دون أن يستريحوا كي يجمعوا المحار الملتصق بالصخور وفي القيعان.

لم يعيش أي عبد وقتاً طويلاً، لأن الرثة ستنفجر عاجلاً أم آجلاً ويصعد إلى الأعلى جدول من الدم بدل الغواص. قال الرجال الذين اصطادوا هؤلاء العبيد أو اشتروهم: "صار البحر أحمر اللون، إن المحار يحيض الآن مثل النساء".

# 1544م: ماشو بيتشو

## العرش الحجري

من هنا هيمن مانكو آنكا على أراضي فيلكا بامبا، من هنا شنّ حرباً طويلة قاسية، حرب غاراتٍ وحرائق، لا يعرف الفاتحون الغزاة المتاهات التي تؤدي إلى القلعة السرية، ولا يعرف مسالكها أيّ عدو آخر.

استطاع القائد ديبغو منديز فقط أن يصل إلى المخبأ، جاء هارباً بعد أن اخترق سيفه حنجرة فرانسيسكو بيزارو بأمر من ابن ألماغرو، منحه مانكو آنكا اللجوء السياسي، إلا أن ديبغو مانديز طعن آنكا بخنجر في ظهره.

بين حجارة ماشو بيتشو، حيث تمنح الأزهار المتلألئة العسل لكل من يرويهها، يرقد الأنكي في ثياب جميلة.

## النشيد الحربي الأنكي

سنشرب من جمجمة الخائن

ونصنع عقداً من أسنانه

وأبواقاً من عظامه

وطبلاً من جلده

ثم سنرقص

# 1544م: كامبيتش

## لاس كاساس

انتظر لبعض الوقت في الميناء مع الحرارة والبعوض، تجول على رصيف المرفأ حافياً، أصغى إلى مد البحر وجزره وإلى صوت عكازه على الأحجار، لا أحد لديه كلمة يقولها لهذا الأسقف الذي كرس حديثاً في شيباس.

هذا هو الرجل المكروه جداً في أميركا، والذي عدّه الأسياد والمستعمرون ضدّ المسيح وبلاء هذه الأراضي، كان مسؤولاً عن تطبيق قوانين الإمبراطور الجديدة التي تمنع أبناء المستعمرين من اقتناء العبيد الهنود. ما الذي سيحدث لهم دون الأيدي التي تغذيهم في المناجم والمزارع؟ إن القوانين الجديدة تأخذ الطعام من أفواههم.

إنه الرجل المحبوب جداً في أميركا، وصوت من لا صوت لهم، والمدافع الشرس عن أولئك الذين يتلقون معاملة سيئة أكثر من الروث المكوّم في الساحات، الذي يشجب الذين يحولون المسيح إلى أكثر الآلهة قسوة، والملك إلى ذئب جائع للحم البشر.

حالما وصل إلى كامبيشي أعلن بارتولومي دي لاس كاساس أن أي مالك للهنود لن يُغفر له في الاعتراف، أجاوبه أن أوراق اعتماده كأسقف لا قيمة لها كالقوانين الجديدة لأنها جاءت مطبوعة وليست مكتوبة بخط ناسخ الملك، هددهم بالحرم الكنسي فضحكوا. تعالَى زئير ضحكهم لأنه كان من المعروف أن فراي بارتولومي أصم.

في ذلك المساء وصل مبعوث من مدينة شيباس الملكية، أرسلت حكومة المدينة تقول إنه لا يوجد شيء في خزانها لتمويل رحلة الأسقف إلى أبرشيته، أرسلت له بعض القطع النقدية من النقود المخصصة لعمليات دفن الموتى.

## كارفاجال

يمنح ضوء الفجر شكلاً ووجهاً للظلال التي تتدلى من مصابيح الساحة، يتعرّف أحد المستيقظين باكراً بخوفٍ على فاتحين من العهد القديم من أولئك الذين أسروا آتاهوالبيا في كاجمركا يتأرجحان بلسانين ناتئين وأعين جاحظة.

قرعُ طبول وأصواتُ حوافر: وثبت المدينة مستيقظة. صاح منادي القرية ملء رنّته وإلى جانبه فرانسيسكو كارفاجال يملي ويصغي. أعلن المنادي أن جميع أرسطراطيي ليما الرئيسيين سيثشقون مثل هذين الاثنين إذا لم يقبل المجلس تعيين غوانزليس بيزارو حاكماً: ولقد حدّد كارفاجال القائد الميداني للتمرد الظهر كآخر موعد لذلك.

كارفاجال!

قبل أن يتلاشى الصدى ارتدى قضاة المحكمة الملكية وبعض أعيان المدينة بعضاً من ثيابهم وانطلقوا بشكل فوضوي إلى القصر ووقعوا دون أي نقاش، الأمر الذي جعل غونزاليس بيزارو صاحب سلطة مطلقة.

إلا أن الأمر كان يحتاج إلى توقيع المحامي زاراتي الذي مسّد رقبتَه وتردّد بينما كان الآخرون ينتظرون منبهرين ومرتجفين، يسمعون أو يظنون أنهم يسمعون، لهاث الجياد ولعنات الجنود الذين احتلوا الميدان والمتلهفين للهجوم.

توسّلوا إليه: "تحرك بسرعة".

فكر زاراتي بالمهر الذي تركه لابنته العازبة تيريزا وتقدماته الكريمة للكنيسة التي تملك أكثر مما دفع من أجل حياة أكثر هدوءاً من هذه.

- "ماذا ينتظر حضرتكم".

- "إن صبر كارفاجال قصير".

خاض كارفاجال أكثر من ثلاثين حرباً في أوروبا وعشر حروب في أميركا. قاتل في رافينا وبافيا وكان موجوداً أثناء نهب روما، قاتل مع كورتيز في المكسيك ومع فرانسيسكو بيزارو في البيرو وعبر سلسلة الجبال ست مرات.

- "شيطان الأنديز".

إنه عملاق يُعرف عنه أنه ينزع الخوذة والدرع في وسط المعركة ويعرض صدره، إنه يأكل وينام على حصانه.

- "اهدؤوا يا سادة. اهدؤوا".

- "سيتدفق الدم البريء".

- "لا يوجد وقت كي نضيّعه".

خيّمت ظلال المشنقة على ألقاب النبالة التي حُصل عليها حديثاً.

- "وقع يا سيدي. دعنا نتجنب مآسي أخرى للبيرو".

غمس زاراتي ريشة الأوزة، رسم صليباً وتحتة خطاً قبل أن يوقع: "أقسم بالله وبهذا الصليب وبكلمات القديسين المبشرين أنني أوقع لثلاثة أسباب: الخوف ثم الخوف ثم الخوف".

## 1545: مدينة شياباس الملكية

الأنباء السيئة تأتي من فالادوليد

ألغى التاج مفعول القوانين الجديدة الهامة التي تعتق الهنود. من لاحظ أنها طبقت حين كانت سارية المفعول لمدة ثلاثة أعوام؟ واقعياً، حتى الهنود الذين وضعت عليهم علامة الحرية، استمروا عبيداً.

- "من أجل هذا قالوا لي إنني على حق؟".

شعر فراي بارتولومي أن الله تخلقى عنه وأصبح ورقة لا تستند على غصن ووحيدا.

“قالوا لي نعم بحيث لا يتغير أي شيء والآن حتى ورقة لن تحمي الذين لا يمتلكون درعا سوى أحشائهم. هل تلقى الملوك العالم الجديد من البابا من أجل هذا؟ هل الله مجرد حجة؟ يأتي ظل الجلاذ من جسدي؟”.

مغطى بشرشف، كتب رسالةً إلى الملك فيليب أعلن فيها أنه سيزور فالادوليد دون أن ينتظر أذنا من أحد.

ثم ركع على الأرض مواجهاً الليل وصى صلاة ابتكرها لنفسه بصوت مرتفع.

## 1546: بوتوسي

### فضة بوتوسي

قتل خمسون هندياً لأنهم رفضوا التنقيب عن الفضة. قبل أقل من عام على اكتشاف العرق الأول صُبغت منحدرات الجبال بالدم البشري، وعلى بعد فرسخ من هنا تظهر على صخور الوهاد البقع الخضراء المسودة لدم الشيطان، أغلق الشيطان بإحكام الوادي الضيق الذي يؤدي إلى كوزكو، وقضى على الإسبان الذين مروا من ذلك الطريق، أخرج ملاك كبير الشيطان من كهفه وحطمه على الصخور. والآن كثر العمل في مناجم فضة بوتوسي وفتح الطريق إليها.

قبل الغزو وفي أيام الأنكا هواينا كاباك، حين كانت المعاول تحفر في شرايين الجبل الفضية، هز العالم زئير مخيف ثم قال صوت الجبل للهنود: “سيكون لهذه الثروة ملاك آخرون”.

## الفراق

طنّ الذباب فوق بقايا الوليمة ، لم تساعد الخمرة كلها ولا حرارة الشمس السكارى على النوم. خفقت القلوب بسرعة هذا الصباح في ظل الشجرة التي تواجه البحر. ودّع بدور فالديفا الذين هم على وشك أن يغادروا. بعد الحرب الطويلة والجوع في براري تشيلي سيعود خمسة عشر شخصاً من رجاله إلى إسبانيا. انحدرت دمعة على خد فالديفا حين تذكر الأعوام المشتركة، المدن التي احترقت بلا سبب، الهنود الذين أخضعتهم رماح الإسبان الحديدية.

قال كلمات تبعث الدفء: "إن عزائي الوحيد هو معرفة أنكم ستستريحون وتستمعون بما تستحقونه وهذا على الأقل يهدئ حزني قليلاً".

كانت الأمواج تهدد السفينة التي ستأخذهم إلى البيرو في مكان قريب من الشاطئ. من هناك سيبحرون إلى إسبانيا عبر بنما، عبر البحر الآخر وبعد ذلك... ستكون رحلة طويلة إلا أن تمديد الأرجل سيجعل المرء يشعر كأنه يمشي على أرصفة ميناء إشبيلية، حمّل الذهب والأغراض الأخرى والثياب على السفينة منذ البارحة، سيأخذ الناسخ خوان بينل معه ثلاثة آلاف بيزو ذهباً من تشيلي. تبع فالديفا كظله حاملاً أوراقه وقلمه ومحبرته شاهداً على كل خطوة خطاها ومنح قوة القانون لكل فعل قام به، هدّهم الموت مرات عديدة، ستفعل هذه الثروة الصغيرة أكثر من تسوية الموقف لبنات المراهقات اللواتي ينتظرنه في إسبانيا البعيدة.

كان الجنود يحلمون بصخب حين قفز شخص ما وصرخ:  
"أين فالديفا؟".

كان فالديفا يتضاءل وهو يجذف مبتعداً في القارب الصغير متجهاً نحو السفينة المحملة بذهب الجميع.

كانت اللعنات والتهديدات تحجب صخب الأمواج على شاطئ فالباريسو.

كانت الأشرعة ترتفع وتتحرك في اتجاه البيرو. أراد فالديفيا أن يصبح حاكم تشيلي ويأمل بأن يُقنع القادة في ليما بالذهب الذي يحمله معه وبقوة ذراعه.

أمسك الناسخ خوان بينل رأسه وهو جالس على صخرة غير قادر على التوقف عن الضحك .

بناته سيمتن عذراوات في إسبانيا، بكى بعض الرجال وقد أصبح لونهم قرمزيا من الغضب بينما عزف البواق ألونزو دي توريس لحنًا نشازًا قديما ثم حطم البوق الذي كان كل ما ترك له.

## أغنية الحنين (من كتاب الأغاني الإسباني)

أنا مشتاق إليك  
أيتها البلاد التي أرضعتني  
وإذا كنت سأموت منحوساً  
ادفنيني عالياً في الجبال  
كي لا يفقد جسدي المقبور  
البلاد التي أشتاق إليها كثيراً  
ادفنيني عالياً قدر ما تتحملين  
لأرى إذا كنت أقدر أن أشاهد من هناك  
البلاد التي ذرقتُ من أجلها دمعة



# 1548: هاكوي هوكونا

## انتهت معركة هاكوي هوكونا

غونزالو بيزارو الذي عدّ أفضل رماح في أميركا، والذي كان بوسعه أن يشقّ بعوضة وهي تطير بطلقة بندقية أو سهم، سلم سيفه إلى بدرو ديلاكاسكا.

نزع بدرو درعه المصنوع من الفولاذ الميلاني ببطء. أُرسِل لاكاسكا في مهمة لقصّ جناحيه وتوقف زعيم المتمردين عن حلمه بأن يصبح ملكا على البيرو، حلم فقط بأن يعفو عنه لاكاسكا .

دخل بدرو دي فالديفيا إلى خيمة المنتصرين بعد أن حاربت المشاة تحت أوامره.

قال لاكاسكا: "إن شرف الملك بين يديك أيها الحاكم".

كانت هذه المرة الأولى التي يدعوه فيها ممثل الملك حاكماً لتشييلي. شكره فالديفيا بانحناءة. كان هناك أشياء أخرى سيطلبها ولكن حين فتح فمه ليتكلم دخل الجنود محضرين القائد الثاني لغونزالو بيزارو. دخل القائد كارفاجال حاملا خوذته المريشة بشكل يلفت النظر ولا يجرؤ آسروه على لمسه .

كان كارفاجال هو الضابط الوحيد الذي لم يتخلّ عن بيزارو حين عرض لاكاسكا عفو الملك عن المتمردين الذين يعلنون توبتهم، انتقل ضباط وجنود كثيرون بسرعة مع أحصنتهم إلى المعسكر الآخر، بقي كارفاجال وقاوم إلى أن جرّده من حصانه.

قال ديبغو سينتينون، قائد الجنود المنتصرين: "كارفاجال، لقد سقطت بشرف ياكارفاجال".

لم ينظر إليه العجوز.

قال سينتينون وهو يمد يده ليتلقى سيفه: "هل تتظاهر بأنك لا تعرفني؟".

أجاب كارفاجال الذي هزم سينتينون أكثر من مرة ودفعه إلى الهرب وطارده عبر نصف البيرو: "أعرفك من ظهرك فقط".  
ثم أعطى سيفه لبدور دي فالديفيا.

## 1548: هاكوي هاكوانا

### الجلاد

وصل كارفاجال مقيداً بالحبال والأغلال داخل سلة كبيرة تجرّها البغال. وسط سحب الغبار وصرخات الكراهية غني المحارب القديم. اخترق صوته الأجنس صخب الشتاء، متجاهلاً الرفسات وضربات أولئك الذين صفقوا له البارحة وبيصقون اليوم في وجهه.

يالها من خرافة!

طفل في مهد

عجوز في مهد

يالها من خرافة!

غنى في السلّة التي جعلته يتخبّط. حين وصلت البغال إلى الساحة رمى الجنود كارفاجال عند قدمي الجلاد. زار الحشد حين شهر الجلاد سيفه ببطه.

طلب كارفاجال: "أيها الأخ جوان، بما أننا اشتغلنا في نفس التجارة عاملني كما يعامل خياط خياطا آخر".

خوان انركويز هو اسم الشاب اللطيف الوجه/ كان له اسم آخر في إشبيلية حين كان يتجول على رصيف المرفأ حالما بأن يكون جلادالملك في أميركا. قالوا إنه يحب هذه المهنة لأنها تزرع الخوف ولا يوجد سيد مهم أو محارب عظيم لا يتنحى جانبا حين يمرّ قربه

في الشارع، قالوا أيضاً إنه منتقم محظوظ. إنهم يدفعون له ليقتل ولا يصدأ سلاحه أبداً ولا تتلاشى ابتسامته:

الجدّ المسكين؟

الجدّ المسكين!

طنّ صوت كارفاجال منخفصاً وحزيناً لأنه تذكر لتوه حصانه بوسكانييلو الذي هو أيضاً عجوز مهزوم، تذكر كيف كانا يفهمان بعضهما بعضاً.

أمسك خوان إنركويز لحيته بيده اليسرى وباليمنى قطع رأسه بضربة واحدة .

اشتعل التصفيق تحت الشمس الذهبية.

رفع الجلاد رأس كارفاجال الذي كان يبلغ الرابعة والثمانين من العمر والذي لم يغفر أبداً لأي شخص.

## 1548: هاكوي كانوانا

### حول أكل لحوم البشر في أميركا

منذ أن حضر فرانسيسكو بيزارو مرتدياً ثياب الحزن جنازة ضحيته آتاهوالبا نجح عدة رجال في قيادة الملكة الآنكية الواسعة الأرجاء وفرض السلطة عليها.

ثار ديبغو دي ألماغرو الذي كان يحكم جزءاً من تلك الأرض ضدّ فرانسيسكو بيزارو حاكم الجزء الآخر. أقسم الاثنان بخبز القربان المقدّس بأنهما سيتقاسمان الألقاب والهنود والأراضي من دون أن يأخذ أحدهما أكثر من الآخر. كان بيزارو يريد هذا التمرد فانتصر عليه وقطع رأسه.

انتقم ابن الماغرو لأبيه وعيّن نفسه حاكماً على جثة بيزارو، إلى أن أرسله إلى المشنقة كريستوبال فاكادي كاستور، الذي مرّ ذكره في التاريخ على أنه الشخص الوحيد الذي نجا من المشنقة أو البلطة أو السيف.

ثار فيما بعد غوانزالو بيزارو شقيق فرانسيسكو ضدّ بلاسكو نونيز فيلا، النائب الملكي الأول للييرو. سقط نونيز فيلا عن حصانه مصاباً بجرح بليغ، قطع رأسه وعلّق على رمح.

كان غونزالو بيزارو على وشك أن يعيّن نفسه ملكاً. نزل يوم الاثنين، التاسع من نيسان. المنحدر الذي يؤدي إلى الساحة راكبا على بغل، أوثقوا يديه خلف ظهره ورموا عليه رداءً أسود ليغطي وجهه ويمنعه من أن يشاهد جثة فرانسيسكو كارفاجال التي بلا رأس.

## 1548: كوانا جواتا

### ولادة مناجم كوانا جواتا

- "سلام الله عليك يا أخي!"

- "وعليك السلام أيها المسافر."

تبادل الرجلان الراكبان على ظهر بغلين والقادمين من مدينة مكسيكو التحية وقررا أن يتوقفا ليستريحا، خيم الليل، أولئك الذين ينامون نهراً يراقبونهما من الظلال.

- "أليس هذا جبل كيوبيليت؟"

- "بوسعك أن تسميه جبل الملعون."

سيذهب ماييس بدرو ومارتن رودريغو إلى زاكاتيكاس لبيحثا عن ثروة في المناجم، أحضرا معهما ما يمتلكانه وبعض البغال ليبيعوها بسعر جيد، سينطلقان إلى وجهتيهما عند بزوغ الفجر.

جمعا بعض الأغصان فوق موضع توجد فيه أعشاب جافة وأحاطوها بالأحجار. حين ضرب الصوان الفولاذ انقدحت الشرارة وإلى جانب النار روى راكبا البغلين قصصهما عن حظهما السيء وبينما هما مستغرقان في ذلك مغلفين بالثياب الرثة والحنين صرخ أحدهما: "إنها تشع؟".

- "ماذا؟".

- "الأحجار".

قفز مارتين رودريغو في الجو مشكلاً نجمة خماسية قذرة إزاء السماء التي يضيئها القمر بينما كسر مايبس بدرو أظافره على الصخور الحارة وحرق شفثيه وهو يقبلها.

## 1549: لا سيرنيا

### العودة

رسا بدرو دي فالديفيا في كوينتيرو وفاجأته حالاً الرائحة الأسيديّة للجيف.

حمل فالديفيا في البيرو وزناً يساعده على تجنب المصائد وتجاوز الشكوك والأعداء. برهنت قوة ذراعه التي وظفها في خدمة الملك بالإضافة إلى توهج الذهب الذي سرقه من رجاله على شاطئ فالباريسو أنها معبرة جداً للرجال القادة في ليما. عاد بعد عامين حاملاً لقب حاكم تشيلي موقِعاً ومختوماً، التزم بأن يعيد الذهب إلى آخر غرام منه والتزم التزاماً آخر أكل قلبه، بما أنه مُنح لقبه الجديد يجب أن ينهي علاقته مع آنيز سواريز ويحضر زوجته الشرعية من إسبانيا.

لم تستقبله تشيلي بابتسامة: في مدينة لاسيرينا هذه التي عمّدها باسم مسقط رأسه تمدد الإسبان مقطوعي الأيدي والرؤوس بين الدمار. إن قصص حياته الساحرة لاتهمّ العقبان.

## المرّة الأخيرة

ظهر خط مفتوح في الضباب الأسود عند بزوغ الفجر وفصل الأرض عن السماء.

خلصت أنيز التي لم تنم، نفسها من ذراع فالديفيا واستلقت على مخدتها، لقد شبعت منه ونبضت كل زاوية صغيرة من جسدها بعنفوان الحياة، نظرت إلى يدها في الضوء الضبابي الأول، فأخافتها أصابعها: إنها تشتعل، بحثت عن الخنجر، رفعتة، فالديفيا نائم ويشخر، تردّد الخنجر في الجو فوق الجسد العاري.  
مرّت قرون.

أخيراً أخفت الخنجر داخل المخدة بهدوء قرب وجهه، خرجت على رؤوس أصابع قدميها من الفراش محولة امرأة الفراش إلى امرأة حرة.

## 1552: فالادوليد

الذي كان يتلقى الأوامر دائماً يصدرها الآن

قبّلت المرأة سبيكة الفضة بشفتيها، بجبهتها، بشدييها بينما قرأ الكاهن بصوت مرتفع رسالة من زوجها خوان برييتو مؤرخة في بوتوسي. احتاجت الرسالة والسبيكة عاما كاملا تقريبا لعبور المحيط والوصول إلى فالادوليد.

كتب خوان برييتو أنه بينما كان الآخرون يمضون وقتهم في البارات وحلبات مصارعة الثيران لم يُمْض وقته في البارات أو ساحة مصارعة الثيران، وأن الرجال في بوتوسي يضعون أيديهم على سيوفهم عند أدنى إثارة، وأنه يوجد عواصف رملية تخرب الملابس وتجنن الروح، وأنه لا يفكر إلا بالعودة إلى إسبانيا، وأنه

يرسل سبيكة الفضة الكبيرة من أجل بناء حديقة ليتم فيها حفل استقباله حين يعود إلى الوطن.

يجب أن تكون للحديقة بوابة حديدية مزدوجة وقوس حجري عريض يُمكن المدعوين إلى الحفلة من الدخول بعرباتهم ويجب أن تُسور الحديقة بحائط مرتفع دون أية فتحة وأن تمتلىء بالأشجار والأزهار والأرانب والحمام، ويجب أن تنصب طاولة كبيرة في الوسط تزود بالأطعمة لأرستقراطيي فالادوليد الذين اشتغل لديهم سابقاً كخادم. يجب أن تفرش سجادة على العشب قرب رأس الطاولة لتجلس عليها زوجته وابنته سابينا.

أكد لزوجته بشكل خاص ألا تشيح بصرها عن سابينا وأن تمنع حتى الشمسي عن لمسها وذلك لأنه سيمنحها مهراً عالياً ويزوجها زواجا حسنا ولهذا السبب أمضى كل تلك السنين في الأنديز.

## 1553: ضفة نهر سان بدرو

### ميغيل

التصقت قطع كثيرة من جلده بالسوط، واتفهمه بالتباطؤ في العمل أو بفقدان إحدى الأدوات، قال مراقب العمال: "ليدفع من جسده".  
وحين كانوا على وشك تقييده من أجل لسعات سوط أخرى حمل ميغيل سيفاً وفرّ إلى الغابات.

فرّ عبيد آخرون من مناجم بورما وانضمّ بعض الهنود إلى الهاربين.  
هكذا تشكل الجيش الصغير الذي هاجم العام الماضي المناجم ومدينة باركو يزيميتو الجديدة.

ثم توجه المتمرّدون إلى الجبال، وبعيداً عن كل شيء أسسوا مملكة حرة على ضفاف النهر، صبغ هنود "الجيرايجارا" أنفسهم باللون الأسود من رؤوسهم إلى أقدامهم، ومعا مع الأفارقة عينوا ميغيل ملكاً.

كانت الملكة غيومار تتنقل بروعة بين أشجار النخيل وتصدر تنورتها الجميلة المصنوعة من البروكار حفيفاً. ترافقها وصيفتان ترفعان طرف لباسها الحريري.

جالساً على عرشه الغابي يأمر ميغيل بحفر الخنادق وبناء الأسيجة. يعين مسؤولين ووزراء، ويعين رجاله الأكثر معرفة أساقفة.

قال ميغيل حين يسوي أحد رجال الحاشية طوقه المخرم، ويبسط آخر أكمام سترته العسكرية: "مملكتي مستديرة ومروية".

كان الجنود الذين سيقتلون ميغيل ويزيلون مملكته يُجهَّزون في توكيو بقيادة ديبغو دي لوسادا. جاء الإسبان مسلحين بالبنادق والكلاب وأقواس النشاب، فقد السود والهنود الذين بقوا على قيد الحياة آذانهم أو تم خصيهم وقطعت أوتار أقدامهم ليكونوا عبرة لكل فنزويلا.

## حلم بدرودي فالديفيا

رفرف ضوء المشاعل في الضباب. علا صوت المهاميز التي قدحت الشرر من الرصيف على أرض استعراض ليست في تشيلي ولا في أي مكان آخر. في الرواق، صف من نبلاء الحاشية، أردية سوداء طويلة وسيوف مشدودة إلى الخصور وقبعات مريشة. حين عبر بدرودي فالديفيا ركع جميع الرجال ونزعوا قبعاتهم، حين نزعوا قبعاتهم، نزعوا رؤوسهم معها.

1553م: توكابل

لوتارو

ضربت حمى الحرب كل مكان في تشيلي.



على رأس الأركانين تموجت العباءة الحمراء لكوبوليكان، العملاق الذي يستطيع أن يقتلع شجرة من جذورها.

هجم الفرسان الإسبان، إنفتح جيش كوبوليكان كمروحة، جعل الفرسان يدخلون، أطبق الفكين والتهمهم من الجانبين.

أرسل فالديفيا كتيبة ثانية فتبعثرت أمام جدار آلاف الرجال. عندئذٍ هاجم مع أفضل جنوده. هجم بسرعة كبيرة، صارخا حاملاً رمحا بيده وانهار الآروكانيون أمام هجومه البرقي.

في هذه الأثناء، وعلى رأس الهنود الذين يخدمون الجيش الإسباني، كان لوتارو ينتظر إلى جانب تلّ .

- "أي نوع من الجبن هذا؟ أيّ عار يلحق ببلادنا؟".

كان لوتارو حتى هذه اللحظة خادم فالديفيا. في ومضة غضب أعلن الولاء واختار الخيانة، نفخ بالمزمار المعلق على صدره وشنّ هجوماً بسرعة كبيرة، فتح ممراً إلى اليمين واليسار بالضربات، شق الدروع وأجبر الخيول على الركوع إلى أن وصل إلى فالديفيا فحدق به في عينيه وأسقطه.

لم يكن قد وصل بعد إلى سن العشرين هذا القائد الجديد للآروكانيين.

## 1553: توكابيل

### فالديفيا

أقيمت حفلة حول شجرة القرفة.

راقب المهزومون الذين يرتدون ثياب الأسود رقصات المنتصرين الذين يرتدون الخوذ والدروع، ارتدى لوتارو ثياب فالديفيا، السترة

الخضراء المطرزة بالذهب والفضة، الدرع المشع، والخوذة ذات المقدمة الذهبية المرصعة بالزمرّد والریش الرشيق.  
ودّع فالديفيا العالم عارياً.

لم يخطئ أحد، هذه هي الأرض التي اختار فالديفيا أن يموت فيها منذ ثلاثة عشر عاماً حين غادر كوزكو يتبعه سبعة أسبان على ظهور الأحصنة وألف هندي على الأقدام. لم يخطئ أحد سوى دونا مارينا الزوجة التي تركها خلفه في استريمادور، والتي قررت بعد عشرين عاماً أن تعبر المحيط وهي الآن على ظهر سفينة مع حاشية تليق برتبتها كزوجة حاكم، مع عرش فضي وفراش مخملي أزرق وسجاد وكل بطانتها من الأقرباء والخدم.

فتح الآروكانيون فم فالديفيا وحشوه بالخراء. أجبروه على بلع الخراء. حفنة إثر حفنة ملؤوا جسمه بالتربة التشيلية قائلين: "تريد الذهب؟ كل الذهب. أتخم نفسك بالذهب".

## 1553: بوتوسي

### الحسنا ورتيس البلدية

لو كان يوجد في بوتوسي مستشفى ومرتّ أمام الباب سيشفى المرضى. إلا أن هذه المدينة، أو مجموعة البيوت، التي ولدت في أقل من ستة أعوام لا تملك مستشفى.

نما معسكر المناجم بجنون ويحتوي الآن على عشرين ألف روح، في كل صباح ترفع سقوف جديدة من قبل مغادرين يجيئون من كل مكان، يدفشون ويطنعون بعضهم بحثاً عن ثروة سهلة، لا يبحث أحد في شوارعها الترايبية عن فرصة بدون سيف ودرع جلدي، ومحكوم على النساء أن يعشن وراء المصاريع، والأقل دمامة بينهنّ يجازفن مجازفة خطيرة وبينهن، ليس هناك بديل للحسنا - التي هي عانس قبل أي شيء - إلا أن تعزل نفسها عن العالم. تظهر فقط عند بزوغ

الفجر لحضور القدّاس ومعها مرافقة كبيرة؛ لأن مجرد رؤيتها تجعل أي شخص يتوق إلى ابتلاعها إما بلقمة واحدة أو رشفة بعد أخرى وتجعل الذين يحملون سلاحاً بيد واحدة يصفقون.

شاهدها رئيس بلدية المدينة ديبغو دي إسكيغال، يقولون لهذا السبب يخرج بابتساماة عريضة وكل العالم يعرف أنه لم يبتسم منذ ذلك اليوم البعيد في طفولته حين آذى عضلات وجهه وهو يحاول ذلك.

## رجل أعمى يغنيّ لها تلك التي تنام وحيدة على ألحان الأرغن اليدوي

سيدتي

لماذا تنامين وحيدة

حين يكون بوسعك النوم مع شاب

يرتدي بنطالاً

أزراره مصقولة،

وسترة

بعري فضيّة؟

في الأعلى

شجرة زيتون خضراء

وفي الأسفل

شجرة برتقال خضراء

وبينهما شحرور

يمصّ قطعة سكر.

## رئيس البلدية والشاب الشجاع

قال أحدهم: "لا تنم وحيداً .نم مع هذه المرأة". ثم أشار إليه. ما تفضله الفتاة هو جندي يتميز بمشية رائعة ويوجد عسل في عينيه وصوته. قاوم دون دייغو يأسه وانتظر فرصته.

جاءت الفرصة في إحدى الليالي، في إحدى مقامر بوتوسي على يد راهب قامر بما يحويه إناؤه التسوّلي. جنى مقامر نصّاب ثمار جهده حين خفض الخاسر ذراعه وسحب خنجرًا من تحت رداءه وطعن يد الرجل وثبّتها على الطاولة، قفز الشاب الشجاع الذي كان هناك بدافع الفضول واشترك في المشاجرة، تمّ اعتقال الجميع.

كان على رئيس البلدية دייغو أن يقرّر المسألة، واجه الشاب الشجاع وقدم له عرضاً: "إما أن يدفع غرامة أو يعاقب".

- "لا أستطيع أن أدفع غرامة، أنا فقير، إلا أنني أنحدر من دم نقي ونسب شريف".

قرر رئيس البلدية: "اجلدوا هذا الأمير اثنتي عشرة جلدة".

احتجّ الجندي: "أتفعل هذا مع جندي إسباني؟".

قال الدون دייغو وهو يجلس مستمتعاً بالجلد: "قل هذا لأذني الأخرى لأن هذه لا تصدق ذلك".

حين حلوا وثاقه هدّد العاشق الذي جُلد: "سأنتقم من أذنيك هاتين أيها السيد رئيس البلدية. سأعيرهما لك لمدة عام، يمكنك أن تستخدمهما طوال هذه الفترة وبعد ذلك ستصبحان ملكي".

## 1544: كوزكو

### رئيس البلدية والأذنان

منذ أن هدّده الشاب الشجاع والدون دייغو يتحسّس أذنيه كل صباح حين يستيقظ ويفحصهما في المرآة. اكتشف أن أذنيه تنموان حين تكونان سعيدتين وأن البرد والغمّ يجعلهما تتقلصان، أما النظرات والافتراءات فترفع حرارتهما إلى أن تحمراً - تتحركان بيأس كالطيور في أفاصها حين تسمعان صرير حد فولاذي أثناء شحذه.

وكي يضمن سلامتهما أخذهما إلى كوزكو ورافقه حرس وعبيد طول الطريق.

وفي أحد أيام الأحد غادر الدون دייغو الكنيسة بعد القدّاس بطريقة تدل على الإستعراض أكثر مما تدل على المشية الطبيعية، يتبعه طفل أسود حاملاً وسادة صلاته. فجأة تنظر عينان إلى أذنيه باستهداف واضح ثم لمع رداء أزرق واختفى في الحشد. شعرت أذناه بالألم.

## 1554: ليما

### رئيس البلدية ومُحصّل الدّين

ستقرع أجراس الكاتدرائية بعد قليل معلنة منتصف الليل. ستحدّد عاماً على مرور تلك الحادثة الغبية التي أجبرت دون دייغو على الانتقال إلى كوزكو. ومن ثمّ إلى ليما.

تأكد دون ديبغو للمرة الألف من أن الأبواب موصدة وأن الحراس الذين يحرسون حتى السقف لم يناموا. فتش بنفسه المنزل زاوية بعد أخرى دون أن ينسى حتى كومة الحطب في المطبخ. سيقم حفلة عاجلاً.

ستقام حفلة تنكرية ومصارعة ثيران ومبارزات وألعاب نارية وسيشوى الدجاج بالسفود على النار، وستفتح براميل الخمرة. سيرهق دون ديبغو عيني ليمًا. سيجرب في الحفلة عباءته الديمسية وجواده المطهم ذا السرج المخملي الأسود المطرز بالذهب الذي ينسجم مع غطاء السرج القرمزي المزركش.

جلس منتظراً قرع الأجراس، عدّها ثم سحب نفساً عميقاً.

رفع عبد الشمعدان وأضاء طريقه المفروش بالسجاد الذي يؤدي إلى غرفة النوم، نزع عبد آخر صدرته وحذاءه الذي بدا كالقفاز وجوربه الأبيض المخرم، أغلق العبدان الباب وذهبا إلى موقعهما ليحرسا إلى الصباح.

أطفأ الدون ديبغو الشموع ودفن رأسه في الوسادة الحريرية الكبيرة، وللمرة الأولى طيلة عام واحد نام نوما عميقا لم يشبه قلق.

فيما بعد، بدأت بدلة الدرع التي تزين زاوية غرفة النوم بالتحرك. تقدّم الدرع في الظلمة حاملاً سيفاً في يده، نحو الفراش ببطء شديد.

## 1554: مدينة مكسيكو

### سيبولفيدا

قرّر مجلس مدينة مكسيكو، قشدة النبالة الاستعمارية، أن يرسل إلى خوان غينيز دي سيبولفيدا مئتي بيزو ذهباً تقديراً لخدماته وليشجعه في المستقبل.

ليس سيبولفيدا الإنسانوي، طبيباً وكبيراً للكهنة فحسب، إنه مؤرخ وكاهن تشارلز الخامس أيضاً، وتألّق في عمله كما شهدت على ذلك ثروته المتصاعدة، عمل في البلاطات كوكيل دعاية متحمس جداً للملكي الأراضي الأميركية والهندية.

في ردّه على أقوال بارتولومي ديلاس كاساس، أكد سيبولفيدا أن الهنود عبيد بالفطرة، استنادا إلى إرادة الله، وأن النصوص المقدّسة تحتوي على أمثلة تعفي غير العادلين من العقاب. وحين اقترح لاس كاساس أن يتعلم الإسبان لغة الهنود وأن يتعلم الهنود لغة قشتالة ردّ سيبولفيدا بأن الفرق بين الإسبان والهنود، هو الفرق نفسه بين الذكر والأنثى، وتاماً كالفرق بين الإنسان والقردة. ما دعاه لإكساس: إساءة استعمال السلطة، والجريمة عدّه سيبولفيدا نظاماً شرعياً للهيمنة ومدح فنون اصطياد أولئك الذين ولدوا ليطيعوا ويرفضون العبودية.

حظر الملك الذي نشر انتقادات لاس كاساس أطروحة سيبولفيدا حول الأسباب العادلة للحرب الاستعمارية، قبل سيبولفيدا الحظر مبتسماً ودون احتجاج. في التحليل الأخير الواقع أكثر قوة من الضمير السيء، وهو يعرف جيداً ما يعرفه جميع أولئك الحكام في قلوبهم. إن ما يبني الإمبراطوريات هو رغبة جمع المال وليس رغبة ربح الأرواح.

## 1556: أسنسيون، البارغواي

### فاتحون

حملوا الحطب، والجرحى على ظهورهم، عاملت النساء الرجال وكأنهم أطفال، قدّم لهم الماء العذب، والعزاء، وخيوط العنكبوت لتضميد كدماتهم، جاءت كلمات التشجيع والتنبية من أفواههن، وأيضا اللعنات التي حرّكت الجبناء، وشجعت الضعفاء. كن يطلقن السهام والرصاص حين كان الرجال يبحثون عن قطعة ظلّ ليموتوا فيها. حين وصل الذين نجوا من الجوع والسهام إلى السفن، رفعت النساء الأشرعة، وجدّفن من دون تدمر. هذا ما حصل في بوينس آيرس، ونهر البارانا.

بعد عشرين عاماً وَرَعَ الحاكم إيرالا الهنود والأراضي في آسنسيون. عبّر بارتولومي غارسيا أحد أولئك الذين وصلوا في السفن من الجنوب عن احتجاجه. منحه إيرالا ستة عشر هندية فقط. هو الذي ما يزال ذراعه مصاباً برأس سهم، وقاتل وجهها لوجه الكواجر التي قفزت فوق حاجز بوينس آيرس الدفاعي.

صرخت دونا إيزابيل دي غويفارار: "ماذا عني أنا؟ ماذا سأقول أنا؟". هي أيضاً كانت هناك منذ البداية؛ جاءت من إسبانيا لتؤسس بوينس آيرس مع مندوزا وذهبت مع إيرالا إلى آسنسيون. وكونها امرأة، لم يمنحها الحاكم هنوداً على الإطلاق.

## 1556: آسنسيون، البارغواي

جنة محمد

تدحرج الترد، رفعت امرأة هندية الشمعة، من يربح يأخذها عارية، لأن الشخص الذي سيخسرها راهن عليها عارية.

في البارغواي، النساء الهنديات غنائم العجلة والنرد والورق، غنائم الحملات على الأدغال، أسباب المبارزات والجرائم. ورغم أنه يوجد الكثير منهن، فإن الدميمة تساوي ما تساويه قطعة من لحم الخنزير أو الخيل.

يذهب غزاة الأنديز والهنود إلى القديس تتبعهم قطعان من النساء. في هذه الأرض الخالية من الذهب والفضة يمتلك البعض ثمانين أو مائة امرأة، من اللواتي يطحن نهاراً قصب السكر وفي الليل يعملن في الحياكة ويمنحن أجسادهن ليقدمن لأسيادهن العمل والملابس والأولاد، يساعدن على نسيان الحلم بالثروة الذي أنكره الواقع، وعلى نسيان الحبيبات البعيدات اللواتي يهرمن في إسبانيا.



حذر دومينغو ماتينيز والد ما لا يحصى من المهجّنين ونسّاك المستقبل: كونوا حذرين، إنهن يذهبن إلى الفراش حاقداً. قال إن النساء الهنديات حاقداً وعنيداً، متلهفات دائماً للعودة إلى الغابة حيث تمّ اصطيادهن، وإن المرء لا يستطيع أن ياتمنهن حتى على أونصة قطن لأنهن يخبئنها أو يحرقنها أو يمنحنها، وأن مجدهن هو فقط تدمير المسيحيين وتدمير كل ما يوجد. انتحرت بعضهن شنقاً أو أكلن القذارة، ويوجد البعض ممن رفضن منح أئدائهن للأولاد حديثي الولادة. قتلت الهندية جوليانا الغازي نونودي كابريرا في إحدى الليالي وصرخت بالأخريات أن يفعلن مثلها.

## أغنية زير نساء

### (من كتاب الأغاني الإسبانية)

إذا كان بوسع المسلمين  
أن يضاجعوا سبع نساء  
لماذا يرفض الإسبان  
مضاجعة الكثيرات؟  
آه، يا لها من متعة  
أن تعود إلى إسبانيا  
على الطريقة الإسلامية  
أن تحب امرأة واحدة هو لا شيء  
أن تحب اثنتين نفاق  
أن تحب ثلاثة وتخدع أربعة  
هذا هو المجد الذي يأتي من الله.

# 1556: لا امبريال

## مارينودي لوبرا

قرّر الحصان الذهبي الجلد والمفعم بالحيوية الجهة والسرعة. إذا أراد أن يعدو بسرعة يعدو، يختار البلاد المفتوحة ويجري وسط الحشائش الطويلة، يقترب من الجدول ويعود باحترام، ودون عجلة يروح ويغدو في الشوارع القذرة لهذه المدينة الموسومة من جديد.

راكباً على ظهره العاري، مطلق العنان، يستعرض بدرو مارين ودي لوبرا ويحتفل. تتدفق كلّ خمرة لا امبريال في شرايينه، يقهقه من وقت لآخر ويوجّه ملاحظة، يدير الحصان رأسه، ينظر ويوافق.

مرّت اليوم أربعة أعوام على ترك بدرو لحاشية نائب الملك في ليما وعلى عبوره الطريق الطويل إلى تشيلي.

قال دون بدرو للحصان: "عمري أربعة أعوام، أربعة أعوام قصيرة، أنت أكثر كهولة وغباء".

شاهد كثيراً وقاتل كثيراً في تلك الأعوام الأربعة. قال إن هذه الأراضي التشيلية تنبت الفرح والذهب كما تنمو النباتات في أمكنةٍ أخرى. وحين تنشب حرب، كما يحدث دائماً، ترسل العذراء ضباباً كثيفاً لتعمي الهنود، ويمنح القديس سانتياغو رمحه وحصانه الأبيض لجيش الغزاة.

ليس بعيداً من هنا وليس منذ زمن بعيد، حين كانت فرق الخيالة الآرومانية تدير ظهرها للبحر، أسقطتها موجة عملاقة وابتلعتها.

يتذكّر بدرو ويعلق، والحصان يوافق الرأى.

فجأة تظهر ثعابين برقية في السماء ويهزّ الرعد الأرض.

قال بدرو: "إنها تمطر، إنها تمطر حليباً"!

يرفّع الحصان رأسه ويشرب.

## الحرب مستمرة

بمائة سهم شقّ صدره، واجه كوبوليكان نهايته. سقط القائد العظيم ذو العين الواحدة مهزوماً بسبب الخيانة، اعتادت القمر أن تقف وتتأمل أعماله البطولية الفذة ولم يكن يوجد رجل لا يحبه أو يخشاه، إلا أن خائناً استطاع أن يقضي عليه.

منذ عام فاجأت الخيانة أيضاً لوتارو.

سأل القائد الإسباني: "وأنت، ماذا تفعل هنا؟".

لم يدخل لوتارو إلى سانتياغو كغياز على رأس رجاله؛ بل أحضّر رأسه المقطوع من جبل تشيلبريكو مشكولاً بأطول رمح في الجيش الإسباني.

إن الخيانة سلاح مهلك كالتيفوئيد والجدري والجوع الذي أصاب الأروكانيين حين كانت الحرب تدمّر المحاصيل والمزروعات، لكنّ مزارعي وصيادي هذه الأراضي التشيلية يمتلكون أسلحة أخرى. عرفوا كيف يستخدمون الخيول التي كانت تزرع سابقاً الهلع في قلوبهم. هاجموا على ظهور الأحصنة كزوبعة من الخيالة وحموا أنفسهم بالدروع الجلدية. عرفوا كيف يستخدمون البنادق التي استولوا عليها في ساحة المعركة وربطوا السيف على رؤوس رماحهم.

وراء أغصان الأشجار المتحركة، في ضباب الصباح يتقدّمون غير مرئيين، ثم يتظاهرون بالانسحاب لكي تغرق أحصنة العدو في المستنقعات أو لتتكسر أقدامها في مصائد ممّوءة، تخبرهم أعمدة الدخان بوجهة الجنود الإسبان، ينقضون عليهم ويختفون؛ يظهرهم فجأة ويهجمون على العدو حين تصبح الشمس أكثر إشعاعاً ويتحمّص الجنود في دروعهم. كانوا يسقطون الخيالة بأنشطة العقدة المنزلة التي ابتكرها لوتارو.

والمفاجأة هي أن الأروكانيين يطرون، قبل أن يذهبوا إلى الحرب يدلكون أنفسهم بريش أسرع الطيور.

## الأغنية الأروكانية عن الخيال الشبح

من هذا

الذي يمتطي الريح

كالنمر

بجسده الشبحي؟

حين تراه أشجار البلوط،

حين يراه الناس،

يقول أحدهم للآخر همساً:

انظر يا أخي، لقد جاء

”شبح كوبوليكان“.

## 1558: ميتمالويان

### الطيور السوداء

قبضوا على خوان تيتون، الواعظ الهندي لقرية ميشمالويان التي تقع في وادي مكسيكو وهم يعذبونه الآن، قبضوا أيضاً على الذين استمعوا إليه. خرج خوان معلناً نهاية حقبة واقتراب عام ينهي جميع الأعوام. قال: ”ستسود ظلمة شاملة، سينتهي المزاد العلني ويهيمن الجوع، وكل من لا يغسلون المعمودية عن شعرهم سيتحولون إلى

حيوانات، ستهبط الطيور السوداء المرعبة من السماء وتأكل جميع من لا يزيلون علامة الكهنة”.

أخبر مارتن أوسيلوتل أيضاً عن الطيور السوداء، أُسِرَ وضُرب وجرّد من أملاكه ونفي من تيهوكو. قال أيضاً إنه لن يوجد لسان لهب في احتفال النار الجديدة وسينتهي العالم بسبب أولئك الذين نسوا تعاليم آبائهم وأجدادهم ومن أنجبهم وربّاهم. أضاف: ستنقضّ الطيور السوداء علينا في الظلام وتلتهم النساء والرجال.

قال مارتين أوسيلوتل: “إن الرهبان هم طيور سوداء مُقنّعة وأعداء السعادة لا يعرفون أننا ولدنا لنموت وأنه بعد الموت لن نحصل على المتعة ولا على السعادة”.

يمتلك الأسياد العجائز الذين يعيشون في تاهكالا أيضاً شيئاً يقولونه عن القساوسة: “إنهم مساكين، إما مرضى أو مجانين، ظهرا وفي منتصف الليل وعند بزوغ الفجر، حين يبتهج الجميع يصيحون ويبيكون، يجب أن يكون فيهم خطأ مريع، إنهم لا يمتلكون إحساسا. لا يبحثون عن المتعة والسعادة، لا يبحثون إلا عن الحزن والعزلة”.

## 1558: يوستي

من أنا؟ من كنت؟

تنفس باذلاً جهداً كبيراً والحرارة تفترس رأسه، قدماه منتفختان بداء المفاصل لا تستطيعان السير. تمدد على الدكة، هذا الذي كان ملكاً على نصف العالم هرب من مهرجيه ويتأمل الغسق في وادي أستريمادورا، الشمس تغيب خلف الجبال الأرجوانية وأشعتها الأخيرة تضيء لونا أحمر على الظلال المنتشرة فوق دير الجيرونوميين.

دخل مدنا كثيرة كفاتح، صُفّق له وحُقد عليه، ضحى الكثيرون بحياتهم من أجله، وزهقت أرواح كثيرة باسمه. بعد أربعين عاما

من القتال والسفر يريد السجين الأعلى لإمبراطوريته أن يستريح وينسى. من أنا؟ ماذا كنت؟ رأى الموت يدخل في المرآة. أهو الخادع أم المخدوع؟

في وسط الحروب وفي ضوء نيران المعسكرات وقَع أكثر من أربعمئة اتفاقية قروض مع أصحاب البنوك الألمان والجنوبيين والفلمنكيين، ولم تحضر السفن ذهباً وفضة كافيين من أميركا. هذا الذي أحب الموسيقى سمع رعد المدافع والأحصنة أكثر من ألحان المزمارة المقدسة، وبعد حروب كثيرة سيرث ولده فيليب إمبراطورية مفلسة.

وصل تشارلز إلى إسبانيا من الشمال عبر الضباب حين كان في سن السابعة عشرة تتبعه حاشية من التجار الفلمنكيين وأصحاب البنوك الألمان في قافلة لا تنتهي من العربات والأحصنة. في ذلك الوقت لم يكن قادراً على إلقاء التحية باللغة القشتالية، ولكنه سيختارها غداً ليقول وداعاً.

ستكون آخر كلماته: "آه يا يسوع".

## 1559: مدينة المكسيك

### الندابون

فرد نسر الأستورياس جناحيه في سماء الهضبة المكسيكية، على قماش أسود محاط بالرايات توهج التاج. أعلنت منصة التابوت التبجيل لتشارلز الخامس، وأيضاً للموت الذي غزا ملكاً لا يُقهر.

تجول التاج الذي هو نسخة طبق الأصل عن التاج الذي زين الإمبراطور في أوروبا، في شوارع المكسيك، حمل على وسادة دمقسية في الموكب، صلت الجموع وغنت خلفه بينما قرعت جميع الكنائس للحن الجنائزي. تقدّم النبلاء على ظهور الأحصنة في بروكار حزن أسود وأردية مخملية سوداء مطرزة بالذهب والفضة، وتقدّم تحت ظلّة كبار الأساقفة بتيجانهم التي تشدّ الأبصار وسط غيمة من البخور.

لم ينم الخيَّاطون لعدة أيام، ارتدت المستعمرة كلها ثياب الحداد.  
كان الآزتيكيون يندبون أيضاً في أحيائهم القذرة، كانوا على  
هذه الحالة لمدة شهور وتقريباً لمدة عام. كان الطاعون يستأصلهم  
بالجملة. حمى لم تعرف أبداً قبل الغزو، تسحب الدم من الأنف  
والعينين وتقتل.

## نصيحة الحكماء الأزتيكيين العجائز

بما أنك ترى الآن بعينيك  
انتبه.

انظر إلى الوضع هنا، لا يوجد فرح  
ولا سعادة

هنا، على الأرض، تُذرف دموع كثيرة  
يتوقف النَّفس

وتنتشر الكآبة والمرارة

تهبُّ ريح سبجيَّة وتنقضُّ علينا

الأرض هي مكان الفرح المؤلم

الفرح الذي يخز

ولكن رغم أن الأمور كانت هكذا

رغم أن المعاناة كانت شاملة

حتى ولو كانت الأشياء هكذا على الأرض

أوجب أن نخاف دائماً

ونرتجف إلى الأبد  
ونعيش إلى الأبد ونحن نبكي؟

كي لا ننن دائماً  
كي لا يتخمننا الحزن  
مَنَحْنَا أبونا  
الابتسامات، الأحلام والطعام.  
قُوتنا  
وفعل الحب  
الذي يبذر الناس.

## 1560: ويهوسينكو

### المكافأة

يحمل زعماء ويهوسينكو الآن أسماء أسيادهم الجدد. أطلقت عليهم أسماء فيليب دي ميندوزا وهرناندو دي مينيسيس وميغيل دي ألفارادو ودييغو دي تشيفز أو ماتيو ديلاكورونا، إلا أنهم يكتبون بلغتهم الناهواتولية، وبتلك اللغة بعثوا رسالة إلى ملك إسبانيا: "نحن المنحوسين، خدمك الفقراء من ويهوسينكو..."

شرحوا لفيليب الثاني أنهم لا يستطيعون الوصول إليه بأية طريقة أخرى لأنهم لا يمتلكون أجرة الرحلة وأنهم يروون قصتهم في الرسالة. كيف سنتكلم؟ من سيتكلم من أجلنا؟ نحن المنحوسون.

لم يشنوا الحرب أبداً على الإسبان، مشوا عشرين فرسخاً إلى هيرنان كورتيز وعانقوه، قدّموا له الطعام وخدموه واعتنوا بجنوده



المرضى، قدموا له الرجال والأسلحة والخشب لبناء السفن التي هاجمت تينوشيتيتلان. بعد أن سقطت العاصمة الأزتيكية قاتل سكان ويهوسينكو مع كورتيز أثناء غزو ميتشواكان وجاليسكو وكولهواكان وبانوكا وأهواكا وتيهوانتيبك وغواتيمالا. مات الكثيرون، وفيما بعد، حين طلبوا منا أن نحطم الأحجار ونحرق النقوش التي كنا نعبدتها فعلنا ذلك ودمرنا معابدنا... كنا ننفذ جميع أوامرهم.

كانت ويهوسينكو مملكة مستقلة حين جاء الإسبان. لم تدفع الجزية أبداً للأزتيكيين؛ آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا لم يعرفوا ما هي الجزية ولم يدفعوها لأحد، وأسلافنا لم يعرفوا ما هي الجزية ولم يدفعوها لأحد.

الآن، على أية حال، يطلب الإسبان منا جزية مرتفعة من النقود والذرة ونعلن أمام جلالتكم أن مدينتنا ويهوسينكو ستختفي وتموت بعد وقت قصير.

## 1560: ميتشوكان

### فاسكودي غيروكا

المسيحية البدائية، المشاعية البدائية: صاغ أسقف ميتشوكان قوانين لمجموعاتنا البروتستانتية. ألهمته ذلك يوتوبيا توماس مور وأنبياء الإنجيل والتقاليد العريقة لهنود أميركا.

إن هذه الجماعات التي أسسها غيروكا حيث لا يسود أحد على غيره، أو على أي شيء ولا يُعرفُ الجوعُ والمال، لن تتكاثر في المكسيك كما كان يرغب. إن مجلس الأنديز لن يأخذ على محمل الجد الأسقف الغبي، ولن ينظر إلى الكتب التي كان ينصح بها بعناد. لكن هنا، عادت اليوتوبيا إلى أميركا حيث نشأت. لقد جُسدَت خرافة توماس مور في العالم المشاعي الصغير لميتشوكان، وسيذكر

الهنود في الأزمنة القادمة فاسكو دي غيروكا وكأنه منهم. هذا الحاكم الذي ثبت عينيه على هلوسة ليري ما وراء زمن الخزي والعار.

## 1561: مراكب فيلا دي لوس

### الاستقلال الأول لأميركا

توجوه البارحة، تجمهرت قرده فضولية بين الأشجار، تقطر عصير الفاكهة من فم فيرناندو دي غوزمان وتألقت شمس في عينيه. كان الجنود يركعون واحدا بعد الآخر أمام العرش المصنوع من العصي والقش، ويقبلون يد المنتخب، ويقسمون يمين الولاء، ثم يوقعون الإعلان بأسمائهم أو بإشاراتهم. كانوا جميع أولئك الذين لم يكونوا نساءً أو خدما أو هنودا أو سودا. جعل الناسخ الإعلان رسميا، وأعلن الاستقلال.

أصبح للذين يبحثون عن الدورادو، للضائعين وسط الأدغال ملكا. لا شيء يربطهم بإسبانيا الآن سوى الاستياء، لقد رفضوا العبودية للملك الذي هو وراء البحار. صرخ لوب دي آغيري: "لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه أو أطيعه".

نُصب البلاط في أكبر أكواخ القرية وعلى ضوء الشموع أكل الأمير فيرديناند كعك المنيهوت المغطى بالعسل، وحوله خدمه، حامل كوبه، وخدمه الخاص، أصدر الأوامر لمعاونيه وهو يلتهم الكعك. أصدر الأوامر لنسأخه ومنح الامتيازات والألقاب. كان أمين الصندوق الملكي وكاهن القصر وكبير الخدم والمتذوق يرتدون سترات رثة وأيديهم متورمة وشفاههم متشققة. كان ضابط النظام ذو اللون الداكن والعين الواحدة والأعرج والقزم هو ليو آغيري الذي يتأمر في الليل ويشرف على بناء السفينة في النهار.

رنت ضربات الفؤوس والمطارق، حطمت تيارات نهر الأمازون سفنهم، ولكن إلى الأمام نهضت سفينتان على الرمال. قدمت

الغابة أخشاباً جيدة، صنعوا كثيراً من جلود الأحصنة، ومسامير، ورتاجات، ومفاصل من كعوبها.

عذبهم البرغش والبعوض وخنقتهم الرطوبة والأبخرة المحملة بالحمى وهم ينتظرون اكتمال السفينة. أكلوا الأعشاب ولحم القشاعم من دون ملح. لم تبق كلاب أو أحصنة، ولم تُخرج سنارات الصيد سوى الوحول والطحالب المتعفنة ولكن لا أحد في المعسكر شك في أن ساعة الانتقام قد حانت. غادروا البيرو منذ شهر بحثاً عن البحيرة التي ذكرت الأسطورة أنها تحوي تماثيل ذهبية كبيرة بحجم الأطفال، والآن يريدون أن يعودوا إلى البيرو مستعدين للحرب. لن يصرفوا يوماً آخر في البحث عن أرض موعودة لأنهم يدركون أنهم وجدوها سابقاً، وقد أمرضهم حظهم السيء. سيبحرون في نهر الأمازون ويظهرون في المحيط ويحتلون جزيرة مارغريتا ويغزون فنزويلا وبنا ...

أولئك الذين ينامون: يحلمون بفضة بوتوسي، أما آغيري الذي لا يغمض أبداً عينه الوحيدة، يراها مستيقظة.

## 1561: نويفا فالنسيا ديل دي

### آغيري

ظهر آغيري وسط خشبة المسرح حاملاً فأساً في يده ومحاطاً بدزينات من المرايا، على ستارة المسرح الخلفية صورة تخطيطية كبيرة وسوداء للملك فيليب الثاني.

لوب دي آغيري: مخاطباً الجمهور. (على طريق هزيمتنا، عابرين في الموت والبلية. استغرقنا عشرة أشهر للوصول إلى مصب الأمازون، النهر العظيم المخيف والمشؤوم. بعد ذلك استولينا على جزيرة مارغريتا هناك قضيت على خمسة وعشرين خائناً بالمشانق أو المشانق الحديدية، ثم شققنا طريقنا إلى الجزء الرئيس من الجزيرة. ارتجف جنود الملك

فيليب من الخوف، سنغادر فنزويلا حالاً وندخل إلى مملكة البيرو منتصرين (يلتفت ويرى صورته المثيرة للشفقة في إحدى المرايا). توجت فرناندو دي غوزمان ملكاً على نهر الأمازون، يرفع فأسه ويحطم المرآة بضربة. (توجته ملكاً وقتلته. فعلت الشيء نفسه مع قائد حرسه ومع جنرال وأربعة قواد آخرين). يحطم جميع المرايا وهو يتحدث (قتلت أيضاً كبير خدمه وكاهنه وامرأة اشتركت في مؤامرة ضدي وذلك الشخص الذي وُلد في اليونان وظن أنه رام ماهر وأميرالاً وستة من حلفائهم... عينت قادة جدداً وصف ضباط أرادوا أن يقتلوني فشنقتهم (يحطم آخر مرآة) جميعاً... جميعاً... يجلس على الأرض شبه مختنق، مغطى بالزجاج، رفع الفأس بيده إلى الأعلى، وعيناه شاردتان. خيم صمت طويل. (عبرت البحر إلى البيرو شاباً لأنني أستحق الكثير وأنا أحمل في يدي رمحاً... ربع قرن! أسرار ومآس... حفرت مقابر كاملة لأعثر على الذهب والفضة وأمنحهما للآخرين... نصبت المشانق في وسط مدن لم تولد... اصطدت حشوداً من البشر وأنا على ظهر حصاني.. هنودا يهربون مرعوبين في أسنة اللهب.. سادة من ذوي الألقاب الرفيعة يرتدون ثياباً حريرية مستعارة، أولاد شيء ما أو آخر، أولاد لا أحد، تمتلئ أفواههم بالرغوة ويأكلون القاذورات، الدم الذي سمته السهام... وفي الجبال استلقى محاربون اخترقت دروعهم الفولاذية عواصف ثلجية أكثر عنفاً من وابل الرصاص، وجد كثير منهم قبوراً في بطون العقبان، اصفر كثيرون منهم كالذهب الذي كانوا يبحثون عنه... جلد أصفر، عينان صفراوان، والذهب (يسقط فأسه بين يديه اللتين بدتا كالمخليبين بألم. يظهر راحتي كفيه) تبخر. تحول الذهب إلى ظل أو ندى، ينظر إلى الأسفل مشككاً، يخيم صمت طويل، ينهض فجأة. يعود إلى مخاطبة الجمهور، يرفع قبضته الناتئة العظام نحو الصورة التخطيطية الكبيرة لفيليب الثاني، ينعكس ظله بلحيته المستدقة على ستارة المسرح الخلفية (قلة ملعونة منكم ستذهب إلى الجحيم أيها الملوك، لأنه يوجد قلة ملعونة منكم.) يمشي نحو ستارة المسرح الخلفية جازاً قدمه العرجاء. (أيها الوغد الكريه، فقدت جسدي وأنا أدافع عنك ضد المتمردين في البيرو! قدمت لك رجلاً وهاتين اليدين اللتين لا فائدة ترجى منهما. إن المتمردين الآن هو أنا. سأتمرد حتى الموت بسبب إنكارك للجميل (يواجه الجمهور شاهراً

سيفه). أنا أسير المتمردين، ثوب دي أغيري، الحاج، غضب الله، زعيم المشلولين! لا نحتاج إليك يا ملك إسبانيا. تمرّ أضواء ملوّنة في نقاط مختلفة على المسرح (يجب أن لا نترك أي وزير من وزرائك حيا) يطعن بسيفه شعاعا من الضوء الأحمر.. القضاة، الحكام، الرؤساء، نواب الملوك، الحرب حتى الموت ضد جميع عاهرات البلاط. (يبقى شعاع الضوء في مكانه غير أبه بطعنة السيف القاطعة) المغتصبون، اللصوص (يجرح السيف الهواء) لقد دمّرتمّ الأنديز (يهاجم ضوءا ذهبيا)، محامون، كتاب بالعدل، متبرّزو حبر! إلى متى سنتحمل سرقاتكم في هذه الأراضي التي ربحتها؟ يشقّ السيف شعاعا أبيض اللون، كهنة، أساقفة، كبار أساقفة. إنكم لن تدفنوا حتى هنديا مسكينا. من أجل التوبة تضعون دزينة من الفتيات في مطابخكم، أيها المتاجرون بالقرابين المقدّسة، أيها الغشّاشون! تتكاثر هجمات السيف العبيثة على أضواء لا تتحرك على المسرح. يفقد أغيري قواه ويبدو مرة أخرى وحيدا وتافها لا معنى له.

## 1561: نويفا فالينسيا ديل ري

من رسالة لوب دي أغيري  
إلى الملك فيليب الثاني

هنا عرفنا حجم قسوتك وكيف حنثت بيمينك وبكلمتك، ولهذا، في هذه البلاد نمحّ لعودك ثقة أقل من التي نمناها لكتب مارتن لوثر، لأن نائبك مركيز كانيتي شنق مارتن دي روبرلز، الرجل الذي كان يخدمك بشكل جيد، والفتاح الشجاع للبيرو توماس فاسكويز والمسكين ألونزو داياز الذي بذل جهودا كبيرة في اكتشاف هذه الأرض أكثر من التي بذلها كشافة موس في الصحراء.

استمع، استمع أيها الملك الإسباني، كفّ عن قسوتك وعقوقك مع عبيدك، وبما أنك أنت ووالدتك المرتاحان في إسبانيا بعيدان عن جميع

المتاعب، فقد منحك أتباعك على حساب دمهم ومدّخراتهم جميع الأراضي والإقطاعات التي تمتلكها في هذه النواحي. استمع أيها الملك والسيد، لا يمكنك أن تلقب نفسك ملكاً عادلاً إذا أخذت أي جزء من هذه الأراضي التي لم تقم فيها بأية مغامرة دون أن تكافئ أولئك الذين كدحوا وتعرقوا...

وأسفاه! من بالغ سوء الحظ أن والدك، القيصر الإمبراطوري، فتح ألمانيا بقوات إسبانيا، صارفاً الكثير من النقود التي جاءت من هذه الأمكنة التي اكتشفناها نحن، ومن بالغ سوء الحظ أن هرمانا وإعياءنا لا يؤلمانك بما يكفي لجعلك توقف جوعنا حتى ليوم واحد.

## 1561: باركو يزيमितو

### إعادة النظام

لوب دي أغيري الذي تخلى عنه رجاله مفضلين صفح الملك أو الوعود، طعن حتى الموت ابنته الفيرا لينقذها من أن تصبح وسادة للحراس السود وواجه جلاديه. صحح تسديدهم، ليس إلى هذه الجهة، ليس إلى تلك الجهة، طلقة قذرة وسقط دون أن يمنح نفسه لله.

حين كان فيليب يقرأ الرسالة جالساً على عرشه بعيداً عن هنا، ثبت رأس أغيري على رمح كعبرة لجميع بيدق التنمية الأوروبية.

## 1562: ماني

### النارتخطى خطأ فادحاً

رمى فراي ديبغو إلى اللهب كتب المايا واحداً بعد آخر.

لعن المفتش الشيطان بينما كانت النار تفرقع وتلتيهم. حول المحرقة يئن الهراطقة ورؤوسهم منكسة إلى الأسفل. غطس الهنود المعلقون من أقدامهم، المسلوخون من ضربات السياط في الشمع المغلي، بينما النار تتأجج والكتب تططق وكأنها تتذمر.

تحولت اليوم ثمانية قرون من أدب المايا إلى رماد. علي الصفحات الطويلة للورق اللحائي تكلمت الإشارات والصور: تحدتت عن عمل أنجز وأيام انصرفت، عن الأحلام وحروب بشر ولدوا قبل يسوع .

بفرشاة من الصوف رسم العارفون بالأشياء هذه الكتب المضاءة والمضيئة كي لا يصاب بالعمى أحفاد الأحفاد، كي يعرفوا كيف يرون أنفسهم وتاريخ قومهم، وكي يعرفوا حركات النجوم، تواتر الكسوفات ونبوءات الآلهة، واستحضر الأمطار ومحاصيل ذرة جيدة.

في الوسط حرق المفتش الكتب، وأدب القراء حول النار الكبيرة. في هذه الأثناء كان المؤلفون والكهنة الفنانون الذي ماتوا منذ أعوام أو قرون يشربون شراب الشكولاته في الظل المنعش لأول شجرة في العالم. كانوا ينعمون بالسكينة لأنهم ماتوا وهم يعرفون أنه من المستحيل حرق الذاكرة. ألن يغني مارسموه ويرقص على إيقاعه عبر أزمان وأزمان؟

حين تحرق منازلها الورقية الصغيرة تعثر الذاكرة على ماوى في الأفواه التي تغني أمجاد الرجال والآلهة، في الأغاني التي تنتقل من شعب إلى آخر، وفي الأجساد التي ترقص على إيقاع الجذوع المجوفة ودروع السلاحف وعيدان القصب.

## 1563: حصن أركو

### التاريخ الذي سيكون

تُشدّ الأنشطة وتختق. نفذ الماء في هذا الحصن الدفاعي الأمامي الذي حُرق مرتين وأعيد بناؤه، سيضطرون بعد قليل إلى شرب

بولهم القليل. سقطت سهام كثيرة في الداخل استخدمها الإسبان  
حطباً للطبخ.

اقترب زعيم الأروكانيين من سفح الحصن على ظهر حصانه:  
"أيها القائد، هل تسمعني؟".

أظهر لورينزو بيرنال رأسه.

أعلن الزعيم المحلي أن الحصن سيحاط بالقش وتُضرم فيه النار.  
قال إنهم لم يتركوا أحداً حياً في كونسيبسيون.

صرخ برتال: "لن يحصل أي شيء".

- "لا يوجد فرصة، أبداً".

نهض الحصان على قائمته.

- "إذا ستموت".

قال بيرنال صارخاً: "ستموت ولكننا سنربح الحرب على المدى  
الطويل، سيكون هنا الكثير منا".

أجاب الهندي بضحكة خافتة:

يسأل: "كيف؟ أية نساء ستنجبهم؟".

أجاب القائد ببطء وهو يمزغ كلماته: "إذا لم يكن هناك نساء  
إسبانيات، سنستولي على نساءكم، ثم أضاف: "وسننجب منهن  
رجالاً يصبحون أسياؤكم".

## 1564: بليموث

### هوكينز

تنتظر السفن الأربع التي يقودها جون هوكينز المدّ الصباحي.  
حالما ترتفع المياه ستبحر إلى أفريقيا لاصطياد البشر على شواطئ



غينيا. من هناك سيذهبون إلى جزر الأنتيل ليبيعوا العبيد مقابل السكر والجلود والآلئ.

منذ عامين قام هوكينز بهذه الرحلة على حسابه، في سفينة سُميت يسوع. باع مئة عبد تهرباً في سانتو دومينغو. انفجرت الملكة إليزابيث من الغضب حين علمت بذلك، إلا أن غضبها تلاشى حين اطلعت على بيان ميزانية الرحلة. بمثل ملح البصر أصبحت شريكة في العمل مع كلب البحر الديفوني، واشترى إيرلات<sup>21</sup> بيمبروك وليشستر ورئيس بلدية لندن أسهمهم أولى في المشروع الجديد.

خطب هوكينز بالبحارة وهم يرفعون الأشرعة. ستتبتني البحرية البريطانية أوامره في القرون القادمة. صاح بأعلى صوته: "اخدموا الله كل يوم، أحبوا بعضكم، ادخروا مؤنكم، راقبوا النيران! صادقوا بعضكم!"

## 1564: بوغوتا

### تقلبات الحياة الزوجية

- "قولي لي، هل أبدو مختلفة؟".
- "قليلاً".
- "ماذا قليلاً؟".
- "أنت سمينة بعض الشيء يا سيدتي، اعذريني إذا قلت هذا".
- "برأيك هل أنا سمينة من الطعام أم من الضحك؟".
- "سمينة من الحب، ولا أقصد الإساءة طبعاً".

<sup>21</sup> إيرل: لقب إنكليزي أنقى من مركيز وأرفع من فيكونت.

- "لا يوجد إساءة، هذا ما طلبتك من أجله".

السيدة قلقة جداً، جسدها قليل الصبر، لا تستطيع أن تنتظر زوجها الغائب. أخبرها أحدهم أنه عائد إلى كارتاجينا. ما الذي لن يفعله حين يرى بطنها ذلك الرجل الصارم الذي يشفي الصداق بقطع الرؤوس؟

- لهذا استدعيتك يا جوانا، ساعديني أنت التي تستطيعين أن تطيري وتشربي الخمر من كأس فارغ، أخبريني هل زوجي عائد في الأسطول الكارتاجيني؟

خلطت المرأة السوداء جوانا غارسيا الماء والشراب والدماء والأعشاب في حوض غسيل فضي، غمست كتاباً صغيراً أخضر في الحوض وتركته يعوم ثم دفنت أنفها فيه وقالت: لا، إنه ليس قادماً، وإذا كنت ترغبين برؤية زوجك تعالي كي تلقي نظرة.

انحنى السيدة فوق الحوض، شاهدته جالساً في ضوء الشموع قرب امرأة جميلة في مكان مليء بالحريز بينما يفصل له أحد ما ثوبا من النسيج الفاخر. "آه أيها الدجال! أخبريني يا جوانا، ما هذا المكان؟".

- "إنه منزل خياط في جزيرة سانتو دومينغو".

تظهر في المياه الكثيفة صورة خياط يفصل كماً.

قالت المرأة السوداء: "هل أوقف هذا؟".

- "نعم أوقفه".

بزغت اليد من الحوض مع كم من النسيج الرائع يقطر بين الأصابع.

ارتجفت السيدة من الغضب:

- "إنه يستحق بطوناً أكثر سمناً هذا الخنزير القدر".

من زاوية المنزل، نخر جرو صغير بأعين نصف مفتوحة.

# 1565: الطريق إلى لима

## الجاسوس

نما البطيخ الأحمر كبيراً كالشموس في مزرعة دون أنطونيو سولار التي تقع على نهر لورين. إنها المرة الأولى التي تُزَع فيها هنا هذه الثمار التي أحضرت من إسبانيا. أرسل رئيس العمال عَشْر عيّنات مستمتعاً ومعتزاً بالأمر. تمكن مقارنة حجم هذه البطيخات مع فجل وادي كوزكو الذي يقال عنه إن خمسة أحصنة يمكن أن تربط إلى رؤوسه.

نقل هنديان هدية كبير العمال في كيسين ومنحهما رسالة لتسلم مع البطيخ إلى دون أنطونيو سولار: "إذا أكلتم أية بطيخة ستخبره هذه الرسالة بذلك".

حين أصبحت على بعد فرسخين من مدينة الملوك جلس الهنديان ليستريحا.

- "ما طعم هذه الفاكهة المميزة؟".

- "لا بدّ أنه مدهش".

- "ما رأيك بتجريبها؟ لنجرب بطيخة واحدة".

استدرك أحد الهنديين: "ولكن الرسالة ستغني".

نظرا إلى الرسالة بكراهية وتطلعا حولهما باحثين عن سجن لها، وضعها في مكان لا تستطيع أن ترى منه شيئاً والتهما بطيخة بعضات سريعة مكتشفين اللب السائلي الذي يفوق طعمه الخيال، ثم أكلا بطيخة أخرى ليجعلا الكيسين متساويين، وبعد ذلك التقطا الرسالة وحملا الكيسين على كتفيهما وتابعا طريقهما.

## الحجر هو أنا

ينتظر مسؤول الملك الساحرة الماهرة في السُعوذة والتي استدعيت لتشرح نفسها. كان التمثال الحجري مرمياً عند قدميه ووجهه إلى الأسفل. قبض على الساحرة وهي تتحدث مع الوثن في الخفاء، وستدفع حالا جزاء هرطقتها، ولكن المسؤول يريد أن يسمع من شفقتها اعترافها بالتحدث مع الشيطان قبل أن تُعاقب. كان يسلي نفسه في أثناء انتظارها بالدوس على الوثن والتفكير بمصير هؤلاء الهنود الذين يجب أن يكون الله متأسفاً على خلقهم.

رمى الجنود الساحرة أرضاً وتركوها ترتجف على العتبة.

عندئذ سلم الوثن الحجري العجوز والقبيح على الساحرة العجوز القبيحة بلغة "الكويتشوا" قائلاً من تحت قدم المسؤول: "مرحبا أيتها الأميرة".

صُق المسؤول وسقط على الأرض زاحفاً.

قالت وهي تُهَوِّي له بقبعتها ممسكة معطف الرجل الذي فقد وعيه: "لا تعاقبني يا سيدي لا تحطمه".

أرادت المرأة العجوز أن تشرح له أن الآلهة تعيش في الحجر وبدون الوثن لن تعرف اسمها أو من هي أو من أين جاءت وسوف تهيم على وجه الأرض عارية وضائعة.

## صلاة الأنكيين بحثاً عن الله

اسمعي

يا من يعيش في أعالي البحار،

يا من يعيش في أعماق البحار،  
يا خالق العالم،  
وخزّاف الإنسان،  
يا إله الآلهة،  
عيناى ياأستان لرؤيتك،  
أو تائقتان لمعرفتك،  
إذا رأيتك  
وعرفتك  
وتأملتك  
وفهمتك  
فسوف تراني وتفهمني.  
لا الشمس ولا القمر  
لا النهار  
ولا الليل  
ولا الصيف  
ولا الشتاء  
يتحركون اعتباراً  
بل في فلكٍ مُحْكَمٍ  
إلى المكان المحدّد  
وإلى النهاية الطيبة.  
يامن تحمل نعلك في كل مكان  
الصولجان الملكي،  
اسمعني،

اصغِ إليّ  
لا تجعلني أُصَبُّ بالإعياء  
لا تتركني أمتاً.

## 1565: مدينة المكسيك

### المراسم

يومض الرداء المطلي بالذهب. بعد مرور أربعة وخمسين عاماً على موته يرأس موكيتزوما الموكب، يتحرك الخيالة كأنهم راجلون نحو الساحة الرئيسة لمدينة مكسيكو، يقفز الراقصون على صوت رعد الطبول وعلى نواح زمامير التشيريميا. كثير من الهنود الذين يرتدون الملابس البيضاء يحملون أغصانا مزهرة، يحمل آخرون قدور طبخ "صلصالية" كبيرة. يختلط دخان البخور بعطور المرق المتبل.

يترجل موكيتزوما أمام قصر كوريتز.

ينفتح الباب. يظهر كورتيز بين غلمانة مسلحاً بمطرٍ مسنون.

يحنى موكيتزوما رأسه ويقدم أكاليل الزهور راکعاً، يلمس كورتيز كتفيه، ينهض موكيتزوما. بإيماءة بطيئة ينزع قناعه ويكشف الشعر المجعد والشارب المستدق لأولونزو دي آفيللا.

أولونزو دي آفيللا، سيد المشائق والمدينة، مالك الهنود والأراضي والمناجم، يدخل إلى قصر مارتين كورتيز، مركيز وادي أوهاكا. يفتح ابن غاز بابه لابن أخ غاز آخر.

تبدأ اليوم رسمياً المؤامرة ضد ملك إسبانيا.

ليس كل شيء في حياة المستعمرة حفلات ساهرة ومسابقات، ألعاب ورق، وحفلات صيد.

## 1566: مدريد

### المتعصب للكرامة البشرية

تحدّى فراي بارتولومي ديلاس كاساس الملك ومجلس الأنديز. هل سيعاقب نتيجة عدم طاعته؟ لا يهمله هذا الأمر كثيراً في سن الثانية والتسعين؛ فقد قاتل طيلة نصف قرن، أليست مآثره مفتاح مأساته؟ تركوه يربح معارك عديدة إلا أن نتيجة المعركة كانت مُحددة سلفاً. كان يعرف ذلك منذ وقت طويل.

لن تطيعه أصابعه أبداً الآن، أملى الرسالة وخاطب من دون إذن من أحد البابا، وطلب من بيوس الخامس أن يأمر بوقف الحروب ضد الهنود والنهب الذي يستخدم الصليب غطاءً له، غضب وهو يملي الرسالة. سعد الدم إلى رأسه وارتجف الصوت الأجناس الضعيف الذي تبقى له.

فجأة سقط على الأرض.

## 1566: مدريد

### حتى ولو خسرت، هذا جدير بالاهتمام

تحركت الشفتان، نطقنا كلمات بلا صوت: "سامحني يا إلهي؟".  
توسّل فراي بارتولومي طالباً الرحمة يوم العقاب لأنه اعتقد أن العبيد المغاربة والسود سوف يخففون الكارثة التي تحلّ بالهنود.  
تمدّد بجبهة متعركة شاحباً لا تتوقف شفتاه عن الحركة. بعيداً  
قصف الرعد ببطء، أغمض مانح الولادة، رجل الفعل، فراي

بارتولومي عينيه. ورغم أن سمعه تدهور، سمع قرع المطر على سقف أبرشية أتوشا. بلل المطر وجهه، وابتسم.

تمتم القسيس الذي يرافقه شيئاً عن النور الغريب الذي أضاء وجهه. سافر فراي بارتولومي تحت المطر، حراً من الشك والعذاب للمرة الأخيرة إلى العوالم الخضراء حيث عرف السعادة.

قالت شفته في صمت وهو يقرأ الصلوات في ضوء الحباحب مبللاً بالمطر الذي يضرب السقف المغطى بورق النخيل: "أشكرك".

قال وهو يحتفل بالقداس في أكواخ بلا جدران، وهو يعمد الأطفال العراة في النهر: "أشكرك".

رسم القساوسة إشارة الصليب، سقطت آخر حبات الرمل من الساعة، قلب أحدهم الساعة الرملية كي لا يقاطع الزمن.

## 1568: لوس توكويز

### كواي كاي يورو

لن يعكس النهر وجهه ثانية ولا حزمة الريش المتألقة على خوذته. لم تُصغ الآلهة لزوجته آركويا هذه المرة، التي توسّلت كي لا يمسه المرض أو الرصاص، وأن لا ينسى النوم الذي هو شقيق الموت أن يعيده إلى العالم في نهاية كل ليلة.

ثَقَب الغزاة كواي كاي يورو بالرصاص.

منذ أن انتخبه الهنود زعيماً، لم يكن هناك هدنة في هذا الوادي ولا في جبال آفيللا. في مدينة كاراكاس الحديثة الولادة صلب الناس حين نطقوا اسمه بصوت منخفض.

مواجهاً الموت ومسؤوليه، سقط آخر الرجال الأحرار صارخاً: "اقتلوني! اقتلوني! حرروا أنفسكم من الخوف".



## 1568: مدينة المكسيك

### أبناء كورتيز

مارتن كان اسم ولد هرنان كورتيز الأكبر، والذي أنجبته شهور والدته من المرأة الهندية مالينش، مات والده تاركاً له معاشاً سنوياً ضئيلاً.

مارتن هو أيضاً اسم ولد هرنان كورتيز الشرعي، والذي أنجبته امرأة إسبانية والدها كونت وشقيقها دوق. ورث هذا المارتن شارة الشرف والثروة، إنه مركزيز وادي أوهاكا ومالك لآلاف الهنود، وللأراضي التي أدلها والده وأحبها واختار أن يمكث فيها إلى الأبد.

كان من عادة المركيز مارتن أن يتجول في شوارع المكسيك على سرج من المخمل القرمزي المطرز بالذهب وخلفه يمشي حراسه مرتدين بزات حمراء ومُسَلَّحِينَ بالسيوف كل من يمر في طريقه يجب أن ينزع قبعته ويباعه وينضم إلى حاشيته. كان مارتن الآخر، الوغد، واحداً من الحاشية.

أراد الماركيز مارتن أن ينفصل عن إسبانيا ويعلن نفسه ملكاً على المكسيك. حين فشلت المؤامرة أطلق الأعداء وسمّى الأسماء فعُفِيَ عنه.

مارتن الوغد الذي خدم شقيقه في المؤامرة وكل شيء آخر يُعذب بالمخلعة<sup>22</sup>. إلى جانبه يسجل الناسخ: "لقد عُرِيَ ووضع في المخلعة: وحين تم توبيخه قال إنه لا يدين لأحد بأي شيء"، يدير الجلاد العجلة، تسحق الكبلات اللحم وتسحق العظام.

سجل الناسخ: "سئل ثانيةً وأجاب أنه لا يملك شيئاً يقوله أكثر مما قاله".

دارت العجلة مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.

<sup>22</sup> المخلعة: أداة تعذيب قديمة.

### القديس سيمون يحارب النمل

أغار النمل على المدينة ودمّر المحاصيل، افترس عدداً من المسيحيين ذوي النوم الثقيل من سُرهم.

عقدت سلطات هافانا اجتماعاً استثنائياً قررت فيه طلب حماية أحد القديسين من النمل المفترس.

أجريت القرعة أمام المحترم آلونزو ألفاريز على الرسل الاثني عشر، ربح القديس سيمون وصار حامياً يتوسّط مع الله ويزيل النمل من المنازل والمزارع في هذه البلدة ومحيطها.

ستكافئ القرية بالمقابل القديس سيمون وتقيم حفلاً تكريمياً سنوياً له لا يعفى أحد من حضوره، يتضمن صلاة الغروب وقدّاساً وموكباً ومصارعة ثيران.

## 1571: مدينة مكسيكو

### يجب أن تشي بجارك

تدلت شارات الشرف والسجادات الجميلة والمخمل والرايات من الشرفات، توهج درع فارس النظام في سانيتاغو أمام نائب الملك، رفع الخدم فؤوسهم الكبيرة حول الصليب الضخم المثبت إلى منصة الإعدام.

المفتش العام قادم من مدريد، أعلنت الطبول والأبواق عن وصوله. جاء على ظهر بغل مزّين بالحلي والزخارف وسط شموع مضاءة لا تحصى وقبعات سوداء.

سَيَعْدَبُ الهراطقة أو سُحْرَقُونَ تحت سلطته المطلقة. أمر البابا انوسنت الرابع منذ قرون أن يكافأ قاتلو الأرواح وسارقو إيمان المسيح بالتعذيب، إلا أن البابا بولس الثالث أمر فيما بعد ألا يستمر التعذيب أكثر من ساعة. منذ ذلك الوقت يستريح المفتشون قليلاً من عملهم في كل ساعة.

أمر المفتش الجديد الذي وصل إلى مكسيكو بعدم استخدام الخشب الأخضر أبداً في الإعدامات كي لا تختنق المدينة من الدخان المزعج، وأمر أن تتم الإعدامات في أيام جميلة كي يستمتع الجميع بذلك. لن يزعج نفسه بالهنود لأنهم آمنوا حديثاً، وهم ضعفاء وقيمتهم قليلة.

جلس المفتش قرب نائب الملك، حيثه طلقات المدفعية، قرعت الطبول وأعلن منادي البلدة الرسوم العام للإيمان؛ أمر الرسوم الجميع بأن يبلغوا عن أي شخص يعرفونه أو شاهدوه أو سمعوا عنه ولا يستثنى من هذا الزوجات والأزواج والآباء أو أي شخص آخر مهما كانت درجة قرابته. الجميع ملزمون بالتبليغ عن الأحياء أو الأموات الذين نطقوا، أو آمنوا بكلمات أو آراء هرطوقية أو مثيرة للشك أو خاطئة أو طائشة أو مسيئة أو غير أخلاقية أو تجديفية.

## 1571: مدريد

### من هو المذنب أو المجرم أو الشاهد؟

أهذا هو الوجه نفسه، أم المرأة التي تعكسه؟ لا يفكر الملك بذلك مرتين. أصدر أمراً بمصادرة جميع المخطوطات التي تركها فراي بارتولومي لاس كاساس كي لا تقع في أيدي أسبان سيئين أو في يد أعداء إسبانيا.

ما أقلق الملك فيليب الثاني بشكل خاص هو إمكانية نشر أو توزيع كتاب تاريخ الآنديز السفينك جداً، والذي لم يستطع لاس كاساس أن يكمله، والذي ما يزال حياً ومسجوناً ومقفلًا عليه في أبرشية سان غريغوريو.

## توباك آمارو

جاء جاراََ قديمه على الحصى؁ اقترب توباك آمارو على ظهر حمار قزم؁ وعنقه مقيدة بحبل إلى منصة الإعدام. أمامه أعلن منادي المدينة أنه طاغية وخائن.

علا الصخب في الحي الرئيس.

- "لماذا يأخذونك أيها الآنكا<sup>23</sup> ليقطعوا رأسك؟".

تحولت تمتيمات السكان المحليين إلى زئير. صرخت النساء: "ليقتلونا جميعاً".

عالياً؁ على منصة الإعدام رفع توباك آمارو يداً؁ وضعها على أذنه وخفضها بهدوء بعد ذلك؁ صمت الحشد.

لم يكن يوجد شيء سوى الصمت حين قطع سيف الجلاد رأس حفيد هويانا كاباك.

انتهت مع توباك آمارو أربعة قرون من السلالة الأنكية وأربعون عاما تقريبا من المقاومة في جبال ويلكابامبا. الآن ستتوقف عواصف الحرب والإيقاع الخشن للأبواق المحاربة عن مهاجمة وادي كوزكو.

## المقهورون يؤمنون

سيعود ويتجول على الأرض؁ تعرف ذلك الجبال الأكثر علواً. ولأنها أكثر علواً ترى المسافة الأكثر بعدا.

<sup>23</sup> الآنكا: الملك.

كان ابناً للشمس ولامرأة بسيطة.

سجن الريح وقيد والده الشمس ليجعل الزمن يعاني.

رفع الأحجار إلى القمم بالحبال وبنى بهذه الحجارة المعابد والحصون.

تتبعه الطيور أينما اتجه، تحييه وتبهج خطواته. نزفت قدماه من

الترحال الطويل وحين امتزج دم قدميه بالتربة تعلمنا كيف نحرثها.  
تعلمنا الكلام حين قال لنا: "تكلّموا". كان أكثر قوة وشباباً منا.

لم يعشّس الخوف في صدورنا دائماً، لم نرتطم به دائماً كما هو  
الأمر مع منحدرات ومرتفعات دروبنا الوعرة، تاريخنا طويل، ولد  
تاريخنا في اليوم الذي خرجنا فيه من فم وعيني وإبطي ورحم الأرض.

إسباناري؛ شقيق إنكاري قطع رأس إنكاري، تحوّل رأس إنكاري  
إلى نقود، تدفق الذهب والفضة من أحشائه المليئة بالبراز.

تعرف ذلك الجبال الأكثر علواً. يحاول رأس إنكاري أن ينمو  
تحت قدميه، ستتجمّع أشلاؤه بالتأكيد في أحد الأيام، وحين يجيء  
هذا اليوم سيتحوّل على الأرض وستتبعه العاصفير.

## 1574: مدينة مكسيكو

### فعل الإيمان<sup>24</sup> الأول في مكسيكو

منذ أن نشر المنادون مرسوم الاتهامات انهمر الشجب على  
المهرطقين ومتعدي الزوجات والساحرات والمجدفين.

<sup>24</sup> فعل الإيمان: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرئ منهم بالهرطقة والذي يتبع بتنفيذ الحكم من جانب السلطات الزمنية.

احتفل بفعل الإيمان في الأحد الأول لعيد الصوم الكبير من الصباح إلى المساء، وبدأت محكمة التفتيش تصدر أحكامها على الفزاعات التي كانت تُجرّ من زرناناتها ومن غرف التعذيب.

عالياً، على منصة الإعدام الفخمة، محاطاً بالرمّاحين والحشود المبتهجة، يعمل الجلاد، قال نائب ملك إسبانيا الجديدة الذي يحضر المشهد وهو جالس على عرش مخملي واضعاً مخدة تحت قدميه:

- "لا يمكن أن يُذكر أن حشداً كبيراً في احتفال عام كهذا، أو في أي شيء له قداسة كبيرة، سبق وشوهد من قبل".

جُلِدَ صائغان، وناسخ، وصانع أحذية من مائة إلى مائتي جلدة، لأنهم قالوا إنَّ الجماع ليس خطيئة مهلكة. وواجه بعض متعددي الزوجات عقوبات مشابهة، من بينهم الراهب الأوغسطيني خوان سارميينتو، الذي يوجد في ظهره جرح غير مندمل، سيرَ ليجذف في السفن لمدة خمسة أعوام.

تلقى كل من الزنجي دومينغو الذي ولد في المكسيك والهجين ميغيل فرانكو مائة جلدة لأن الأول أنكر وجود الله والثاني جعل زوجته تعترف له. جُلِدَ أيضاً الصيدلي غاسبار ديلوس ريبس لأنه قال إنه من الأفضل التعايش مع المرأة بدلاً من الزواج وإنه جائز شرعاً للفقراء والمظلومين بأن يحتثوا بإيمانهم من أجل النقود.

إلى التجذيف في السفن، السجن الشاق لمسيبي الأذى، ذهب اللوثريون، واليهود الذين رضعوا هرطقاتهم من أثداء أمهاتهم، وبعض الإنكليز من أسطول جون هوكينز، وفرنسي قال إن الملك والبابا جبانان.

اختتم إنكليزي من مناجم غوانا جواتو وحلاق فرنسي من يوكاتان حياتهما الهرطوقية في المحرقة.

# 1576: غوانا جواتو

## الرهبان يقولون

جاءت إلى المكسيك منذ عشرين عاماً وقادتها حمامتان إلى غواتا جواتو، وصلت من دون أن تصاب بأذى رغم أنها عبرت البحر والصحراء. ضلّ الذين كانوا يحملونها طريقهم، أرسلها الملك إلينا ليشكرنا على الثروة التي لا تتوقف أبداً عن التدفق من أحشاء هذه الجبال.

عاشت في إسبانيا أكثر من ثمانية قرون، عاشت في غرناطة في كهف لتختبئ من المغاربة، وحين عثر عليها المسيحيون وأنقذوها لم يجدوا أي جرح في جسدها المتخشّب، وصلت إلى غوانا جواتو سليمة. وبقيت سليمة، تجترح المعجزات. وها هي سيدتنا تمنح العزاء للفقراء والأغنياء بسبب بؤسهم، وتحمي من البرد أولئك الذين ينامون خارج المنازل وفي القصور. لا تميّز رحمتها اللامتناهية بين الخدم والأسياد. ولا يفشل أي شخص يستدعيها في الحصول على العطف الرباني.

أنقذت فضيلتها كثيراً من الهنود الذين يذهبون إليها تائبين ومؤمنين. بقيت سيف الله الذي يعاقب بغضب عادل الأوثان والهنود المذنبين في المكسيك، المبتلون الذين تضرعوا إليها ودفَعوا الصدقات لم يمسهم الطاعون.

في المناطق الأخرى، مات الهنود الذين لم يقتلهم التيفوئيد من الجوع أو العمل الشاق، تناثرت الجثث في الحقول والساحات وغصت بها المنازل التي مات جميع سكانها ولم يبق أحد يخبر عن ذلك. نشر الطاعون في أرجاء المكسيك روائح التعفن والدخان، وعلينا نحن الإسبان أن نسد أنوفنا حين نمر.

# 1576: هوشيميلكو

## الحواري سانتياغو يحارب الطاعون

حتى الأطفال الرضع هنا دفعوا الجزية مالا وذرة، إذا استمر الطاعون من سيدفع؟ بنت السواعد المحلية كاتدرائية مكسيكو. إذا لم يتوقف الطاعون من الذي سيزرع هذه الحقول؟ من الذي سيغزل وينسج في المشاغل؟ من الذي سيبنى الكاتدرائيات ويعبد الشوارع؟

ناقش الرهبان الفرنسي سكان الموقف في أبرشيتهم. من بين ثلاثين ألف هندي عاشوا في هوشيميلكو لم يبق إلا أربعة آلاف حين جاء الإسبان وهذا ليس مبالغة. مات الكثيرون وهم يقاتلون مع هرنان كورتيز، وهم يفتحون البلدان ويقتلون الرجال من أجله. مات أيضا الكثيرون وهم يعملون من أجله، ومن أجل بدرو دي ألفارادو. وقتل الطاعون عددا كبيرا.

جاء إلى راعي الأبرشية فراي جيرونيمو مندييتا الوحي الذي تُفد.

حضروا للقيام بالقرعة، خلط قندلفت معصوب العينين قصاصات الورق في صحن فضي، كتب في كل قصاصة اسم قديس له مكانة رفيعة في البلاط السماوي، اختار القندلفت واحدة فتحها الأب مندييتا وقرأ: "إنه الحواري سانتياغو".

أعلن من الشرفة لهنود هوشيميلكو وبلغتهم. تحدث الراهب الرؤيوي راعا على ركبتيه، رافعا ذراعيه: "سيهزم سانتياغو الطاعون".

وعده بمذبح.



## 1577: هوشيميلكو

### الحواري سانتياغو يحارب الطاعون

كان صوت اصطدام الأذرع يُسْمَع من مقبرة سانتياغو في مساء كل معركة، في أثناء الأعوام الشاقة للغزو، وكان القديس يقاتل مع حشد الغزاة راكباً على حصانه الأبيض، حاملاً رمحا في يده. كان من عادة القديس سانتياغو أن يقتل الهنود وأن لا ينقذهم. وكان الطاعون الذي لا يلمس الإسبان يستمر في إبادة الهنود في هوشيميلكو وفي أجزاء أخرى من المكسيك.

بينما كان الليل يرخي سدوله، سمع الأب مندويتا، من حجرته، صرخات وأنينا أكثر قوة من أناشيد الملائكة.

يجب أن يتوسط أحد ما إلى الله أو سيتبخر الهنود من هوشيميلكو. ناقش الفرنسيون السكان المواقف ثانية وقرروا أن يجروا القرعة، اختار القدر المبارك سيباستيان ليكون القديس الحامي.

وعده ببناء مذبح.

## 1579: كويتو

### ابن آناهوالبا

شاهد بيتو الكاهن الهندي لإقليم أرشيدونا في رؤياه الشيطان في شكل بقرة، قالت له: "إن الله متضايق جدا من المسيحيين ولن يدافع عنهم"، أما غوامني؛ الكاهن الهندي لتامبيسا فقد قضى خمسة أيام في العالم الآخر، شاهد الأعاجيب وأصغى إلى الإله ويمتلك الآن قوة المطر

والانبعاث. أعلن بيتو وغوامي أن الهنود الذين لا ينضمون إلى التمرد سيحصلون الضفادع والثعابين في حقول أبدية الجذب.

نصّب النيبان نفسيهما على رأس رماح كثيرة، وفي جنوب شيرق كويتو تمرد هنود "الكويخو" وهاجموا قرى عديدة وانتظروا عبثاً أن يحصل تمرد في الجبال. أسر فرانسيسكو آتاهوالبا، ولد الأنكا وقائد الجيش الإسباني، متآمري الجبال وأحمد التمرد.

حدثت الهزيمة بعد بضع معارك، أجبر الإسبان جميع هنود إقليم الكويخو والمناطق المحيطة بكويتو على حضور إعدام النيبانين بيتو وغوامي. عرضاً في شوارع كويتو، عذباً بكلابات حامية، شُنقا وقطعا وعُرضت قطعهما. راقب الكابتن فرانسيسكو المشهد، وهو جالس على المقعد الملكي.

## 1580: بونيس آرس

### المؤسسون

أبحر ضابط إسباني منذ نصف قرن تقريباً من إشبيلية إلى هذه الشواطئ المجهولة، وظف كل الثروة التي جمعها من نهب روما في هذه الحملة، أسس هنا مدينة وحصناً أحاطه بالأكواخ، وأبحر في النهر بحثاً عن جبال الفضة والبحيرة الغامضة التي تنام فيها الشمس.

بحث سيباستيان كابوت منذ عشرة أعوام عن كنز الملك سليمان مبحراً في هذا النهر الذي لا يُعبّر عن اسمه الفضي والذي يوجد طين فقط على إحدى ضفتيه ورمل على الضفة الأخرى ويقود إلى أنهارٍ أخرى تقود إلى الأدغال.

لم تستمر مدينة بدرودي ميندوزا طويلاً، بينما كان جنوده الذين دفعهم الجوع إلى الجنون يأكلون بعضهم كان الضابط يقرأ فيرجيل وإيرازموس وينطق بكلماتٍ من أجل الخلود. وفي وقت قصير جدا تلاشى الحلم ببيرو أخرى، فرغب بالعودة إلى إسبانيا، إلا أنه لم يصل إلى هناك حياً. فيما بعد، جاء ألونزو كابريرا الذي أحرق بونيس

آيرس باسم الملك، استطاع أن يعود إلى إسبانيا وهناك قتل زوجته وانتتهت حياته في مصح عقلي.

جاء فيما بعد خوان دي غاري من أسنسيون، وولدت سائتا ماريا دييلوس بونيس آيرس ثانية وجاء مع غاري مجموعة من الباراغويين، من أبناء الغزاة الذين رضعوا من أمهاتهم الكوراكوانيات حليبهم الأول واللغة المحلية التي يتحدثون بها.

جسد سيف غاري الملتصق بيده ظل الصليب، اصطكت أسنان المؤسسين من البرد والخوف .

عزف النسيم أحياناً من الحفيف في رؤوس الأشجار، وخلف هذا، في السهوب اللانهائية، تجسّس عليهم الهنود والأشباح بصمت.

## 1580: لندن

### دريك

ثلاثة أنخاب لذهب السفن الشراعية! تحيا فضة بوتوسي!

صرخت النساء وقرعت أجراس الكنيسة منبهة: "لقد جاء التنين". أبحر فرانسيس دريك حول العالم في ثلاثة أعوام، عبر خط الاستواء مرتين ونهب البحر الإسباني، سارقاً المرافئ والسفن من تشيلي إلى المكسيك.

عاد الآن بسفينة واحدة وبجارية محتضرين عددهم ثمانية عشر شخصاً، إلا أنه أحضر معه كنزاً يعادل مائة وعشرين مرة المبلغ الذي حُصص للرحلة. نصبت الملكة إليزابيث - الشريكة الرئيسة وصاحبة الخطة - القرصان فارساً، أقيم الاحتفال على ضفة نهر التايمز، على السيف الذي منحه لقبه نُقِشت كلمة للملكة إليزابيث: "من يطعنك يادريك يطعني". قدم لجلالته وهو راعع على قدميه بروشا سرقة في المحيط الهادي.

مرتفعةً فوق الضباب والسحام، تربعت إيزابيث على قمة إمبراطورية ناشئة، إنها ابنة هنري الثامن وأن يولين التي قطع رأسها في برج لندن لأنها أنجبت فتاةً، التهمت الملكة العذراء عشاقها واستخدمت قبضتها ضد خداماتها وبصقت على ملابس أفراد حاشيتها.

أصبح فرانسيس بيكون فيلسوف الملكة وقاضي قضااتها، وصار ويليم شكسبير شاعرها وفرانسيس دريك قائد سفنها.

مُحتقِرُ العواصف، سيّد الأشرعة والرياح، القرصان دريك، يتحرك في البلاط كأنه يتسلق الصواري والأشرعة؛ إنه قصير وبدين له لحية شديدة الاحمرار، ولد في البحر وربّي على تقوى الله. إن البحر منزل له، ولا يشنّ أي هجوم إلا بعد أن يضغط الإنجيل على صدره، الإنجيل الذي يضعه تحت ثيابه.

## 1852: مدينة مكسيكو

### ما لون جلد المجذوم؟

تقدم الصباح منتهكاً الظلمة مقتلعاً منها وجوه الأشباح وأيديها وثبتها إلى الجدار بالمسامير.

لم يلمس المسؤول شيئاً، أخفى يديه المقفّرتين تحت رداؤه. كانت عيناه نصف مغمضتين كأنه خائف من أن تنتقل العدوى إليهما، جاء ليشرف على تطبيق النظام الجديد في مستشفى سان باولو. أمر نائب الملك ألا يختلط المرضى الذكور، وأن يُوضَعَ البيض والهجمن في غرفة واحدة، وأن يوضع السود والخلاسيون في غرفة أخرى، والهنود في غرفة منفصلة. وأمر بأن توضع جميع النساء مهما كانت مرتبتهن أو لونهن في غرفة واحدة.

## 1538: كوبا كابانا

### أم الإله أيمارا

عبرا بحيرة تيتيكاكا في قارب مصنوعٍ من عشب التيغا. سافرت معه مرتدية ثياب الاحتفال.

مُوَّه رداؤها، بالذهب في مدينة لاباز. حين وصلا غطاها بردائها ليقبها من المطر ثم دخلا إلى قرية كوباكابانا. كان المطر يلسع الحشود التي جاءت لتستقبلهما.

دخل فرانسيسك تيتو يوبانكوي معها إلى المعبد ونزع غطاءها. أخذها إلى المذب،. عانقتهم عذراء كوباكابانا جميعا من مكانها المرتفع. ستحمي البشر من الطاعون والحزن وطقس شهر شباط السيء.

صاغها النحات الهندي في بوتوسي، اشتغل عامين ليمنحها الجمال اللائق بها، على الهنود أن يرسموا أو ينحتوا صوراً تحاكي النماذج الأوروبية فقط ولم يرغب فرانسيسك تيتو يوبانكوي أن ينتهك الحظر. لقد نوى أن يصنع عذراء مماثلة لسيدتنا في كانديلاريا، إلا أن يديه صاغتا هذا الجسد الأندى ذا الرتتين الكبيرتين الجائعتين للهواء والجمجمة الكبيرة والساقين القصيرتين والوجه الهندي العريض الذي يحتوي شفتين مكتنزتين وعينين لوزيتين تحدقان بحزن نحو الأرض المصابة بالكدمات.

## 1582: سانتياغو. تشيلي

### كان حراً لوهلة

حاول أن ينهض مستنداً على يديه إلا أنه سقط على وجهه. حاول أن يتكئ على مرفقه فانزلق، حاول أن يقدم ركبته فغاص في الوحل.

كان يبكي تحت المطر دافئاً وجهه في الوحول.

لم يبك هرناندو مارافيللا حين جُلد بالسوط مائتي جلدة وهو يُجْرَ في شوارع ليما إلى المرفأ، ولم تُلمَحْ دمعة واحدة على وجهه حين جُلد مائتي جلدة في سانتياغو.

يسوته المطر الآن مستخلصاً الدم الجاف والوحول.

قالت له مالكته الأرملة السيدة أنطونيا نابيا منذ زمن طويل حين أحضروا العبد الهارب إليها: "أيها الحقير، هكذا تعضّ اليد التي تغذيك!"

هرب هرناندو مارافيللا لأنه شاهد في أحد الأيام امرأة جميلةً كصورة ولم يقدر على مقاومة اللحاق بها.

قبضوا عليه في ليما وحققت معه محكمة التفتيش وحُكم عليه بأربعمائة جلدة لأنه قال إن الشيطان هو الذي يُرتبُ الزواج وأن الأسقف لا يساوي شيئاً وأنه يتبرّز عليه.

هذا الذي ولد في أفريقيا حفيداً لطبيبٍ وابناً لصيادٍ يلتفُ على نفسه ويبكي، كان جلده ينسلخ بينما المطر ينهمر على سانتياغو.

## 1583م: ثلاثيلولكو

### سهاغن

هدلت الحمامة المطوقة.

قدّمت امرأة الأزهار إلى حجر حُطْمٍ إلى قطع. قالت المرأة للحجر: "إلهي! كم عانيت يا إلهي!"

أدلى الحكماء العجائز المحليون بشهادتهم لفراي برناردينو دي سهاغن متوسلين: "دعنا نمت بما أن آلهتنا ماتت".

فراي برناردينو دي ريبيرا الذي ولد في ساهاغن: ابن القديس فرانسيس، حافي القدمين ويلبس رداءً كهنوتياً مرقعاً، الذي يبحث عن الفردوس وعن ذاكرة المهجرين، سافر أكثر من أربعين عاماً عبر المكسيك وإقطاعية يهوسينكو وتولا وتولتيكس وعبر منطقة تيهوكو لينقذ صور وكلمات الزمن الماضي. أنقذ ساهاغن ومساعدوه الشبان في كتاب التاريخ العام لإسبانيا الجديدة الذي يتألف من اثني عشر مجلداً أصوات الهنود القديمة ومهرجاناتهم وطقوسهم والهتهم وطريقتهم في حساب مرور الأعوام والنجوم وأساطيرهم وقصائدهم وطبهم وحكاياتهم عن العصور الغابرة وعن الغزو الأوروبي. إن التاريخ يغني في هذا العمل الأول العظيم للأنثروبولوجيا الأميركية.

أمر الملك فيليب الثاني منذ ستة أعوام بالاستيلاء على هذه المخطوطات المحلية التي ترجمها ساهاغن ونسخها كي لا يبقى لها أي أثر. أين انتهت هذه الكتب التي قيل إنها تُخلد وتنشر عبادة الأوثان؟ لا أحد يعرف، لم يستجب مجلس الأنديز لتوسلات المؤلفين والناسخين اليائسة. ما الذي فعله الملك بأربعين عاماً من حياة ساهاغن ويقرون عديدة من حياة المكسيك؟ قالوا في مدريد إن الصفحات استُخدمت لتعليب التوابل.

لم يستسلم العجوز "ساهاغن". في سن الثمانين تتشبت ببعض الأوراق التي أنقذت من الكارثة وأملى على طلابه في تلاتيلوالكو السطور الأولى من عمل جديد دُعي فن الكهانة. فيما بعد ذهب ليعدّ تقويماً مكسيكياً كاملاً، حين أنهى التقويم بدأ بتأليف قاموس ناهواتلي - إسباني لاتيني، وبعد القاموس... في الخارج تعوي الكلاب خائفة من المطر.

## مملكة سيبولو الحجرية

استجاب القبطان أنطونيوي دي أسبيخو، الذي صنع ثروةً سريعةً على حدود المكسيك لدعوة سيرانة<sup>25</sup> مدن الذهب السبع فقام على رأس بعض الخيالة المحاربين برحلةٍ (أوديسة) إلى الشمال، وبدلاً من مملكة سيبولو الخرافية عثر على صحراءٍ شاسعةٍ تتناثر فيها أحياناً بعض القرى على شكل حصون، لم تكن هناك أحجار ثمينة تتدلى من الأشجار لأنه لم تكن هناك أشجار إلا في الأودية النادرة، ولم يكن هناك توهج ذهبي سوى ذلك الذي كانت الشمس تستخرجه وهي تضرب الصخور بقسوة.

نصب الإسبان عليهم في تلك القرى وما يزال الهنود لا يعرفون أنهم سيُجبرون حالاً على تغيير أسمائهم وبناء معابد لعبادة إله آخر رغم أن الروح العظيمة قالت لهم في الماضي إن سلالة جديدة، سلالة ذات ألسنة مثل الشوكة، ستصل جالبة معها الجشع والخيلاء. قدّم الهنود للقبطان أسبينو الذرة والكعك والديكة والجلود ورحب به سكان الجبال العليا وأحضروا الماء والذرة.

فيما وراء ذلك حلق حصن بُني من الطين والصخور في السماء الأرجوانية. من حافة الهضبة هيمنت قرية الآكوماز على الوادي المخضّر بحقول الذرة التي ترويهما الأقنية والسدود. الآكوماز، أعداء النافاخوس مشهورون بوحشيتهم. حتى فرانسيسكو فاسكويز دي كورنادو الذي جاء إلى هنا منذ أربعين عاماً لم يتجرأ على الاقتراب منهم.

رقص الآكوماز على شرف اسبيخو ووضعوا عند قدميه الثياب الملونة والديكة، قرون الذرة وجلود الأيائل.

<sup>25</sup> السيرانة: واحدة من مجموعة كاننات أسطورية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك.



بعد بضع سنوات رفضوا دفع الجزية. استمر الهجوم ثلاثة أيام  
وثلاث ليالٍ، قطعتُ رجلٌ لكل من بقي على قيد الحياة بضربة فأسٍ  
واحدة ورُميَ الزعماء من فوق الجرف.

## أغنية الليل، قصيدة نافاخوسيه

أيها المنزل المصنوع من الفجر  
أيها المنزل المصنوع من ضوء المساء  
أيها المنزل المصنوع من سحابة داكنة  
يامن يوجد على بابه سحابة سوداء  
تتدلى منها خيوط سوداء  
والذي يقف البرق فوقه  
أتمنى أن أمشي سعيداً  
أتمنى أن أمشي سعيداً مع شلالاتٍ كثيرة  
أتمنى أن أمشي سعيداً مع نباتاتٍ كثيرة  
أتمنى أن أمشي سعيداً على خط اللقاح  
أتمنى أن أمشي سعيداً  
ويكون جميلاً ما ينتظرني  
ويكون جميلاً ما خلفته ورائي  
ويكون جميلاً ما هو فوقني  
وما هو تحتي  
وما هو حولي  
ويصبح الجمال غاية كل شيء.

## 1586: كوري

### الطاعون

لا تلمع الأنفلونزا كالسيف الفولاذي، لكن لم يستطع أي هندي أن يتفادها. قتل الكزاز والتيفوئيد من الناس أكثر مما استطاع ألف من الكلاب الرمادية التي لها أعين نارية ومخالب مزبدة أن يقتلوا.

يهاجم الجدريُّ بشكل سري، أما البندقية فتهاجم بصوت صاخب وسط غيوم الشرر والدخان الكبريتي، لكن الجدري يدمر الهنود أكثر مما تدمرهم البنادق.

دمرت رياح الطاعون هذه الأقاليم، ضربت البشر ورمتهم أرضاً، التهمت أجسادهم، أكلت أعينهم وأغلقت حناجرهم وفاحت من الجميع رائحة التعفن.

رنَ في هذه الأثناء صوت غامض فوق البيرو داس على الطاعون واخترق ابتهالات الذين يحتضرون. قال الصوت الذي همس من إذن إلى أخرى: "كل من يرمي الصليبَ خارج بيته سينبعث من الموت".

## 1588: كويتو

### حفيد آتاهاوالبا

تتعرق الأعمدة والأرابيسك والزخارف ذهباً. يصلّي القديسون والعدراوات المعبودات اللواتي يرتدين أردية وكورس الملائكة ذات الأجنحة الذهبية الصغيرة ذهباً: هذا واحدٌ من المنازل التي قدمتها كويتو له، للذي وُلد في بيت لحم منذ قرونٍ في معلق تبين ومات عارياً.

تمتلك عائلة الملك آتاهوالبا مذبحاً في كنيسة فرانسيس هذه، في مكان الشرف، في جناح الكنيسة العظيم قرب المبشر، يرتاح الموتى عند قدم المذبح. يشغل المدفن الرئيس ولد آتاهوالبا الذي عمّد باسم فرانسيسكو مثل والده وقاتل والده. كان يجب على الله أن يحفظ العظمة للقبطان فرانسيسكو آتاهوالبا لو كان يصغي، كما يقولون، لوجهات نظر القادة بانتباه أكبر من الذي يمنحه لصرخات المقودين. عرف ابنُ الملك كيف يقيم الانتفاضات المحلية في الجنوب. أحضر إلى كويتو كأسرى زعماء كارناريمبا وكويس وكوفئ بمكتب مدير هذه المدينة للشؤون العامة.

جاءت بنات فرانسيسكو وبنات أخيه ليضعن صورة القديسة كاترين التي نحتها نحاتٌ من طليلطة يدعى خوان بوتيسستا فاسكويز في مكان مرتفع على مذبح آتاهوالبا. أرسل الصورة من إسبانيا ألونزو، ابن فرانسيسكو وما تزال الأسرة تجهل أن ألونزو مات في مدريد بينما كانت القديسة كاترين تعبر المحيط لتصل إلى هذه الكنيسة.

مات ألونزو آتاهوالبا حفيد الملك في السجن، كان يستطيع العزف على القيثارة والكمان وموترة المفاتيح، كان يرتدي فقط الملابس الإسبانية التي يفصلها أفضل الخياطين، ولم يدفع أجرة منزله لوقتٍ طويل. لا يسجنُ السادة بسبب الديون إلا أن ألونزو ذهب إلى السجن بعد أن أدانه أفضل الخياطين في مدريد وتجار الجواهر وصانعو القبعات والققازات، ولم يدفع مقابل المنحوتة التي تضعها الآن أسرته بين الأكاليل الذهبية على المذبح الموه بالذهب.

## 1588: هافانا

### القديس مارشال يحارب النمل

واصل النمل المفترس قتل البشر وتهديم الجدران، قطع الأشجار والتهم المزارع والفاكهة والذرة ولحم الغافلين.

وبسبب عدمِ فعاليةِ راعي الأبرشية القديس سيمون انتخب مجلس المدينة جماعياً حامياً آخر.

وعدت المدينة بأن تحتفل بيومه في كل عام، إن القديس مارشال هو الدرع الجديد لها فانا الذي يحميها من النمل المفترس، يُعرف القديس مارشال الذي كان أسقفاً لليموغس منذ ثلاثة قرون كأخصائي، ويقال إن نفوذه كبير عند الله.

## 1589: كوزكو

### يقول إنه امتلك الشمس

مُتصلاً تحت الأغطية يُخَفَّفُ مانسيو سيرادي لوكويزامو الحمل عن ضميره، يملي أمام الكاتب بالعدل ويُقسِم: "لقد اكتشفنا هذه المناطق في ظرفٍ كهذا حيث لم يكن يوجد في أي منها لصٌ واحد أو رجلٌ شريراً أو عاطلٌ عن العمل، ولم تكن توجد امرأةٌ فاسقةٌ أو سيئةٌ..."

لا يريدُ ضابط بيزارو العجوز أن يرحل عن هذا العالم من دون أن يقول للمرة الأولى: "إن الأراضي والجبال والمناجم والمراعي وأراضي الصيد والغابات وجميع المصادر حُكمت أو قسّمت بطريقة عرفها الجميع وحصلوا على ملكيتهم دون أن يحتلها أو يأخذها أي شخص آخر..."

إن دون مانسيو هو آخر المتبقين على قيد الحياة من الجيش الذي غزا البيرو. كان منذ أكثر من نصف قرن أحد أولئك الذين غزوا مدينة "كوزكو" المقدسة وسرقوا كنوز مقابرها ومنازلها وهدموا أعمدة معبد الشمس المزين بالذهب التي كان تألقها يجعل أي شخص يدخل يبدو كجثة. قال إنه تلقى الجزء الأفضل من الغنيمة؛ حصل على وجه الشمس الذهبي الكبير ذي الأشعة النارية وألسنة اللهب، التي غزت المدينة وأعمت سكان كوزكو عند طلوع الفجر.

رهن دون مانسيو الشمس في لعبة ورق وخسرها في ليلة واحدة.

## إحراق المهرتقين في ليما

حملت الريح رماد ثلاثة لوثرين إنكليز أسروا في جزيرة بونا. أحرق أحدهم ويدعى هنري أوكسلي حياً لأنه لم يتخلَّ عن دينه. التفَّ الدخان صاعداً من وسط دائرة محاطة بالرماح الطويلة، بينما ازداد الحشد احتياجاً ومحكمة التفتيش تقرأ أحكاماً بالجلد والآلام الأخرى والإذلال.

عوقب كثيرون لأنهم تزوّجوا مرتين أو بسبب الجماع وجرائم أخرى متعلقة بالآثام الجسدية. وحُكم على راهب دومينيكاني وآخر فرانسيسكاني وآخر أوغسطيني وآخر جزويتى بتهمة إغواء الراهبات. وحُكم على الجندي خوان دييورتيللا لأنه أقسم بأذني الله. وحُكم على إيزابيل دي أنكلو وهي زوجة جندي بتهمة أنها قرأت كلمات التكريس بصوت منخفض كي يرغب بها الرجال. وحُكم على البحار بارتولومي ديلاغريس لأنه أكد أنه لا يوجد إثم كونه يدفع مقابل الجنس وهو عازب. حُكم على الحلاق لورنزو ديلايينا لأنه قال حين احتلَّ أحدهم مقعد زوجته في الكنيسة: "إذا كانت هذه هي الطريقة المتبعة فهذا يعني أنه لا يوجد إله".

حُكم على بدرو لويس أنريكويز، من مدينة إشبيلية، بالسجن لمدة عشرة أعوام لأنه أكد أنه إذا أخذ المرء ديكا إلى حقل يخلو من أصوات الكلاب في منتصف الليل وقطع رأسه فإنه سيعثُر على حجرة صغيرة بحجم حبة بندق، وإذا حك شفثيه بها سيجعل هذا المرأة الجميلة الأولى التي يصادفها تموت من الحب، ولأنه أكد أنه إذا قتل المرء هرة في شهر كانون الثاني ووضع حبة لوبياء في كل مفصل منها ودفنها، فإن حبات اللوبياء التي تنمو منها تجعل كل من يتذوقها وهو ينظر في المرأة غير مرئي، ولأنه قال أيضاً إنه كان شخصاً فظاً ومعالجاً، وعلامة

على ذلك أنه كان يضع صليباً على صدره وآخر في سقف حلقه ولأنه ادعى أنه شاهد في السجن عجائب وشمّ أطيب العطور.

## 1592: كوارابي

### أنشيتا

أشار إغناسيو دي ليولا إلى الأفق وأمر: "أذهب وأضرم النار في العالم". كان خوسيه أنشيتا أصغر الرسل الذين أحضروا رسالة يسوع والأخبار الطيبة إلى غابات البرازيل، بعد أربعين عاماً لقبه الهنود كارايبيبي، الرجل المجنّح، وقالوا إنه حين يرسم علامة الصليب يوقف العواصف ويحوّل الأسماك إلى لحم خنزير والرجل الذي يحتضر إلى بطل. تهبط ملائكة من السماء لتعلن له عن وصول المراكب الشراعية أو عن هجوم الأعداء، يرفعه الله عن الأرض حين يصلي. جسده النحيل الذي يحرقه قميصه النسيجي يصدر الأشعة حين يجلد نفسه متقاسماً العذاب مع ابن الله الوحيد.

ستشكره البرازيل على معجزاته. من يد هذا القديس ذي الثياب الرثة جاءت القصائد الأولى التي كتبت على هذه الأرض والقواعد اللغوية التوبية - الجوارانية الأولى والمسرحيات الأولى، ومسرحيات الأسرار المقدسة المكتوبة باللغة الفطرية، والتي تنقل الإنجيل مازجة الشخصيات المحلية بالأباطرة الرومانيين والقديسين المسيحيين. كان أنشيتا أول مدرس وطبيب ومكتشف ومؤرخ لحيوانات ونباتات البرازيل في كتاب يخبرنا كيف يغيّر الكواراس لون ريشه وكيف تبيض البيبوبا في الأنهار الشرقية وكيف يعيش الشيهم<sup>26</sup>.

تابع في سن الستين تأسيس المدن وبناء الكنائس والمستشفيات وحمل على كتفيه النحيلين الألواح الخشبية الثقيلة مع الهنود. بحث

<sup>26</sup> الشيهم: حيوان شائك من القوارض.

عنه البشر والطيور كأنهم ملهمون بنورانيته المتواضعة والنظيفة. كان يمشي فراسخ عديدة دون أن يتذمر أو أن يسمح لهم بأن يحملوه في الشباك عبر هذه الأقاليم حيث يمتلك الجميع لون الحرارة ويتأكلون في لحظة ليولدوا ثانية، حيث الفاكهة التي تصير عسلا، الماء، الموت، بذار الفاكهة الجديدة. الأرض تغلي، البحر يغلي على نار بطيئة، وأنشيتا يكتب على الرمل بعصاه أشعاره لخالق الأبدية.

## 1596م: لندن

### رالي

نفث السير والتر رالي، مدير التبغ والصانع العسكري المغرور، ثعابين دخان من أنفه وحلقات ودوائر دخانية من فمه وهو يقول: "إذا قطعوا رأسي سيسقط سعيدا وجليوني بين أسنانه؟".

علق صديقه: "ستنتن".

لم يكن في البار سوى عبد أسود صغير ينتظر صابراً في الزاوية. روى رالي كيف اكتشف الجنة الأرضية العام الماضي في غويانا هناك، حيث تختبئ الدورادو. لعق شفثيه متذكراً طعم الفاكهة وبيض الإغوانة ثم أغمض عينيه واصفاً فاكهة وأوراقاً لا تسقط أبداً عن رؤوس الأشجار.

قال: "اسمع يا أخي، إن مسرحيتك عن العشاق الشباب... نعم، تلك، التي تدور أحداثها في فرج الغابة، إنها مذهشة! تدور أحداثها في فيرونا وتفوح منها رائحة القفص، لقد اخترت الخلفية الخاطئة يا عزيزي، ذلك الهواء، هناك..."

كان صديق رالي، الأصلع ذو العينين غير المريحتين، يعرف أن غويانا هي مستنقع حيث السماء سوداء دائماً بسبب البعوض، إلا أنه أصغى صامتاً ووافق لأنه أيضاً كان يعرف أن رالي لا يكذب.

## 1597م: إشبيلية

### مشهد في السجن

جرحه الأتراك، هاجمه القراصنة وجلده المغاربة، حرمه القساوسة من الكنيسة. سُجن في الجزائر وفي كاسترو ديليرو. والآن هو سجين في إشبيلية. جالساً على الأرض قرب الفراش الحجري غمس قلمه في المحبرة وتساءل، عيناه مثبتتان على لهب الشمعة ويده الجيدة متوازنة في الفراغ:

هل للإلحاح قيمة؟ ما يزال جواب الملك فيليب مؤلماً، قال له حين طلب منه وللمرة الثانية عملاً في أميركا: "ابحث عما يناسبك هنا". وإذا كانت الأشياء قد تغيرت منذ ذلك الوقت، فإنها تغيرت نحو الأسوأ. كان يمتلك سابقاً أمل الاستجابة على الأقل، إلا أن الملك المؤتزر بالسواد والمفصول عن العالم لم يعد منذ ذلك الوقت يتحدث مع أحد سوى أشباحته داخل جدران الإسكوريال.

ميغيل دي سرفانتس وحيد في زنزانته ولا يكتب للملك... ولا يطلب العمل في أي مكتب فارغ في الآنديز، بدأ يخط على صفحة بيضاء مصائب شاعر فارس، أحد أولئك الفرسان الذين يمتلكون رمحاً مرمياً في المعلف وسيفاً صديداً ودرعاً مهترئاً وجواداً ضعيفاً وكلباً جباناً. ترن أصوات كئيبة في السجن لكنه لا يسمعهما.

## 1598م: بوتوسي

### قصة فلوريانا روزاليس امرأة بوتوسي الطاهرة

(عرض موجز للقصة نقله بارتولومي آرزانس أورسواي فيلا)



عمّدها باسم فلوريانا بسبب جمالها العظيم الذي بدأ منذ أن ولدت كزهرة جميلة ورشيقة ولأن اسم والدتها كان آنا.

كانت الشابة المدهشة التي ربيت على الفضيلة في عزلة المنزل تتجنّب أن ترى أحداً أو يراها أحد إلا أن هذا أشعل رغبات طالبي يدها، الذين أحاطوا بها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. كان الأكثر نجاحاً في متابعة طلب يدها دون خوليو شانسير مالك المنجم والنقيب رودريغو دي ألبوكويركي وحاكم توكمان، الذي مرّ من هنا في طريقه إلى ليما وترث في بوتوسي بعد أن شاهد فلوريانا في الكنيسة.

بدافع من الضغينة المحضة ولأنه رُفض، يتحدّى حاكم توكمان والد فلوريانا في مبارزة ويجرحان بعضهما قرب نبع إلى أن تفصل بينهما بعض السيدات من اللواتي لم تنقصهن الشجاعة.

احترقت فلوريانا غضباً من رؤية والدها مجروحاً وقررت أن تنتقم بيدها، أرسلت تخبّر الحاكم أنها ستنتظره مساء غد في حانوت معين حيث ترغب بالتحدث معه دون أن يراها أحد.

ارتدى الحاكم أفضل ثيابه حتى بدا فارغاً ومزهوفاً بإفراط، وكانت هذه رذيلة سيئة في الرجال الذين درسوا في مدرسة هليوغا بالوس، الذين قال عنهم هيروديانو إنه احتقر الملابس الصوفية الرومانية واليونانية وارتدى ألواناً ذهبية وأرجوانية مزينة بالأحجار الثمينة على النمط الفارسي، كما ذكر لامبرايديو .

وصل الحاكم بثيابه الأنيقة في الوقت المحدد حيث ظهرت فلوريانا حاملة معها بين الأزهار الجميلة أفعى غضبها السامة. أخرجت من كمها موساً حاداً واندفعت إليه كلبوة لتقطع وجهه وهي تصبّ لعناتها عليه، تجنّب الحاكم الموس بيده وأشهر خنجره، متيقظة للخطر، ألقت فلوريانا على وجهه كومة من الملابس ثم أمسكت بيديها عصا كبيرة وضربت الحاكم ضربة بطحته أرضاً.

حاول والدا فلوريانا المهمومان والخائفان أن يخبئها في منزلها إلا أن هذا كان مستحيلاً، إذ جاء الحاكم والسلطة القضائية العليا والشرطة راكضين ولم يكن أمام فلوريانا من بديل سوى أن تصعد إلى

غرفتها وترمي نفسها من النافذة إلى الشارع، شاء الله أن تعلق تنورتها بنتوء من إطار النافذة فعلقت به ورأسها متدل إلى الأسفل.

أخبرت الخادمة دون شانيز فارفان الذي كانت تعرفه وتعرف أنه يحب سيدتها أن يذهب إلى الزقاق خلف المنازل ليرى إذا كانت فلوريانا هناك لأنها رمت نفسها لتوها من النافذة، ولكن حين شاهد الكابتن رودريغو دي ألبوكويركي دون خوليو يتحدث بشكل سري مع الخادمة تبعه إلى الزقاق.

وصل الدون خوليا وكانت فلوريانا متدلية وتتوسّل طالبة المساعدة وقد امتلكها الخوف وتصرخ أنها تختنق، اقترب حبيبها الفارس ومّد ذراعيه وأمسكها من كتفيها ودفعها بقوة ساقطاً معها على الأرض.

في هذه اللحظة جاء النقيب رودريغو متفوهاً بكلماته الغرامية ثم غطى فلوريانا بردائه ورفعها، حين شاهد الدون خوليو ذلك اعتملت فيه الغيرة فنهض وطعن النقيب بخنجره قائلاً له إنه خائن وضع. سقط النقيب إلى الأرض بجرح مهلك في صدره وبدأ يتوسّل طالباً الاعتراف، وحين سمعت فلوريانا ذلك لعنت قدرها ومصائب شرفها ورحلت بسرعة كبيرة.

ارتدت فلوريانا ثياباً هندية لتهرب من بلدة بوتوسي ولكن حين كانت على وشك امتطاء بغل، بلغ أحدهم الحاكم فجاء إلى المكان ليزجّها في السجن، حين شاهد الحاكم فلوريانا اخترق الطفل الأعمى الذي يدعى كيوييد قلبه بسهم مربع، أمسكها من يديها لاهثاً وحملها إلى القصر.

في الساعة العاشرة من تلك الليلة، أي في الساعة التي كان عليها أن تدخل فيها إلى غرفة الحاكم ربطت فلوريانا حبلاً إلى الشرفة وهبطت إلى يدي خوليو الذي كان ينتظرها في الأسفل. طلبت الشابة من الدون خوليو قبل أن تتحرك خطوة واحدة أن يقسم أن لا يمسّ طهارتها.

حين اكتشِفَ أمر هربها وأحدق بهما الخطر حمل دون خوليو فلوريانا على كتفيه وركض بها إلى ساحة ديل غاتو البعيدة، طار فوق الأحجار والوحد تحت سيل من التعرّق وحين استطاع أخيراً أن يجلس ليسترخ، وبعد أن أنزل فلوريانا عن ظهره انهار فجأة.

ظانة أنه أغمي عليه وضعت رأس دون خوليو في حضنها، وبعد أن اكتشفت أنه مات بقرت مرعوبة وهربت إلى سان لورينزو في شهر آذار من عام 1598.

بقيت هناك مختبئة وقررت أن تحافظ على طهارتها الدائمة وأن تستمر إلى نهاية عمرها خادمة مطيعة لله.

## دوبيتات<sup>27</sup> إسبانية للغناء والرقص

رأيت رجلاً يعود إلى الحياة  
بعد أن تلقى ألف طعنة رمح  
وفيما بعد رأيت يموت  
من نظرة واحدة فقط.  
في أعماق البحر  
تنهد حوت مراراً  
فروت تنهداته هذه الحكاية:  
إن من يحب، يتألم.  
أريد اليوم أن أغني  
لأن الأقدار ستجلب الدموع  
إلى عيني غداً.

<sup>27</sup> الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين.

## أوقات النوم والقدر

أراد سيمون توريس، صيدلي بنما، أن ينام إلا أنه لم يستطع أن يزحزح عينيه عن ثغرة في السقف. كان جفناه ينفتحان ويحدقان بالثغرة كلما أغمضهما، أشعل سيمون غليونه ودخين محاولاً أن يبعد البعوض بالدخان وبيده. التف وتقلب مبللاً ومحترقاً في الفراش الذي التوى من جرّاء الصدمة التي تعرّض لها في ذلك اليوم. كانت النجوم تغمزه عبر الفتحة ويودّ أن يتوقف عن التفكير، وهكذا مرّت الساعات إلى أن صاح الديك إما ليعلن عن النهار أو ليدعو الدجاجات.

منذ أسبوع نزلت امرأة من السقف وسقطت على سيمون.

تلثم الصيدلي: "من، من، من أنت؟".

قالت وهي تمزق ثيابها: "لا نمتلك وقتاً طويلاً".

نهضت في الصباح متألقة ومتألثة وارتدت ثيابها بسرعة كبيرة.

- "إلى أين أنت ذاهبة؟".

- "إلى نومبر دي ديوس. تركتُ الخبز هناك في الفرن"

صرخ الصيدلي: "إلا أنه يبعد عشرين فرسخاً".

صحّحت له: "ثمانية عشر فقط". وقبل أن تختفي قالت له: "كن

حريصاً على نفسك، كلّ من ينام معي يفقد ذاكرته".

## 1599: كويتو

### هنود أزميرالداس الذين من أصل أفريقي

يقون مستيقظين، لا يغمض لهم جفن. يمتلئون بالشكوك. فهذه الفرشاة التي تسرق صورتهم، ألن تسرق أرواحهم منهم؟ الفرشاة سحر مثل المرأة، وتمتلك الناس كالمرأة.

يجبرهم البرد المرعب لكويتو على السعال بين فينة وأخرى ويصيح الفنان بهم. متعبين وشبه مختنقين من الأطواق يستأنفون وضعياتهم ويبقون متقلبين إلى أن يعطسوا ثانية، جاؤوا إلى هذه المدينة منذ بضعة أيام وما يزالون لا يستطيعون فهم لماذا جاء هؤلاء البشر الأقوياء ليعيشوا في مكان بارد كهذا؟ ولماذا تمتلك المنازل أبواباً؟ ولماذا تحتوي الأبواب أقفالاً ومصاريع؟

دفعت العاصفة منذ نصف قرن سفينة إلى الصخور الساحلية، قرب مصب نهر، أزميرالداس.

كان في السفينة عبيد من غينيا للبيع في ليما. انطلق السود وضاعوا في الغابات. بنوا القرى وأنجبوا أطفالاً من النساء المحليات وتكاثر هؤلاء الأولاد.

من بين الثلاثة الذين يرسم صورتهم آلان أندريه سانشيز كاليك، ثمة اثنان ولدا من ذلك التمازج الأفريقي مع النساء الإكوادوريات. أما الثالث، فرانسييسكو دي آروبي، فقد جاء من غينيا. كان عمره عشرة أعوام حين تحطمت السفينة.

ألبسوا ثياب السادة؛ أردية وعباءات، وأكاماً مخرمة وقبعات، كي لا يتركوا انطباعاً سيئاً لدى الملك حين يتلقى في مدريد صورة أملاكه الجديدة، البرابرة الذين كانوا لا يقهرون حتى هذا الوقت. وضعت رماح في أيديهم وعقود من الأسنان والأصداف على ثيابهم

الإسبانية، ووضعت على وجوههم زينة ذهبية تخترق آذانهم،  
ومناخيرهم وشفاههم.

## 1599: نهر شاكريز

### الحكماء لا يتحدثون

كان هذا هو الطريق الأكثر إشعاعاً على الأرض، من البحر إلى البحر  
انطلقت قافلة الفضة الطويلة. كانت خطوط لا تحصى من البغال تحمل عبر  
الغابة معادن بوتوسي في طريقها إلى السفن الشراعية المنتظرة في بورتوبيلو.  
واكبت قرود صغيرة قافلة الفضة عبر بنما وهي تصرخ دون توقف  
ساخرة من البغالين وتقذفها بثمار الجوافة.

كان فراي دييغو دي أوكانا يراقبها بإعجاب من ضفة نهر  
شاكريز، لكي تعبر النهر، تشكل القروود سلسلة تبدأ من الشجرة وكل  
واحد منها يمسك الآخر بذيله إلى أن تتأرجح السلسلة وتجمع القوة  
التي تقذفها بعنف إلى أعلى أغصان الضفة الأخرى.

جاء إليه هندي من البيرو يحمل متاعه وقال له: "أيها الأب،  
إنهم بشر. إنهم لا يتحدثون كي لا يلاحظ الإسبان ذلك لأنهم إذا  
عرفوا ذلك سيرسلونهم إلى العمل في المناجم".

## 1599: لامبريال

### سهام اللهب

نشبت التمرد على شواطئ المحيط الهادئ وهزّت الأصداء سلاسل  
جبال الأنديز.

جاء غارسيا أونيز ليولا ابن أخ القديس أغناطيوس إلى هنا من البيرو وهو مشهور بأنه صياد لا يكل وقاتل محترف. هناك أسر توباك أومارو، آخر الأنكيين، ثم عينوه حاكماً على تشيلي ليروؤ الآروكانيين. هناك قتل الهنود وسرق الخراف وأحرق المحاصيل دون أن يترك نبتة واحدة. الآن يعرض الآروكانيون رأسه على رمح.

استعمل الهنود عظام المسيحيين كأبواق تعلن الحرب. بأقنعة حربية ودروع جلدية، دمر خيالة الآروكانيين الجنوب، سقطت سبع بلدات واحدة بعد أخرى تحت مطر السهام النارية. هكذا أصبح المصطادون صيادين. حاصر الآروكانيون لا امبريال وغيروا مجرى النهر ليقطعوا عنها الماء.

استعادت نصف مملكة تشيلي وكل المناطق الممتدة إلى جنوب بيو - بيو هويتها الآروكانية.

قال الهنود وهم يشيرون إلى الرمح: "هذا هو سيدي وهو لن يأمرني بأن أحفر بحثاً عن الذهب أو أن أحضر الأعشاب للمواقد ولا أن أعتني بالقطيع أو أبذر أو أحصد، أريد أن أبقى مع هذا السيد".

## 1599: سانتا مارتا

### يشنون الحرب ليمارسوا الحب

نشبت التمرد على شواطئ الكاريبي وهزّت أصدائه سييرا نيفادا. انتفض الهنود من أجل الحرية.

في مهرجان البدر رقصت الآلهة في جسد الزعيم سوشاسيك وأعارت ذراعيه السحر، أوقظت أصوات الحرب المتصاعدة من قرى جريبوكا وبوندا أرض التيروننا كلها وهزّت ماسينغا، وماسينغويلا وزاكا ومازاكا وبوريتاكا ويطراما وماروما وتيرونناكا وكواتشاكا وتشوينا وسينتو ونهوانجي وماما توكو وسييناغا ودوروسينو وغيراكا وأرويغواو دوراما وبيوكاكا ودونا وتشينغ

وماساكا ودوداما وساكاسا وكومينكا وغوارينا وموراكاتاكا وشوكوينكا وماسانغا.

ارتدى الزعيم سوشاسيك جلد يغور، بالسهم الصافرة والسهم الحارقة والسهم السامة أحرق التيرونيون المعابد وكسروا الصليان وقتلوا الرهبان، قاتلوا ضد عدو الإله الذي يحظر عاداتهم.

منذ زمن موغل في القدم، كان أي شخص في هذه الأراضي يرغب بالطلاق يحصل عليه، وكان الأقرباء يمارسون الحب إن أرادوا ذلك، رجلاً مع رجل وامرأة مع امرأة أو رجلاً مع امرأة إلى أن جاء الرجال الذين يرتدون الحديد، أولئك الذين رموا إلى الكلاب كل من أحب كما كان أسلافه يفعلون.

احتفل التيرونيون بانتصاراتهم الأولى، عزفوا في معابدهم، التي سماها العدو منازل الشيطان، على المزار المصنوع من عظام المهزومين، وشربوا خمرة الذرة، ورقصوا على قرع الطبول وإيقاع الأبواق الصدفية. أغلق المحاربون جميع الممرات المؤدية إلى سانتا مارتا وجهزوا للهجوم الأخير.

## 1600 : سانتا مارتا

### كانت لهم بلاد

تحتاج النار إلى وقت لتشتعل. إنها تشتعل ببطء.

صرت المعادن، تحرك رجال يرتدون الدروع. لقد فشل الهجوم على سانتا مارتا وأصدر الحاكم أمراً بالتدمير الشامل، وصلت الأسلحة والرجال من كارتاجينا في الوقت المناسب وتبعثر التيرونيون الذين أهزلتهم سنوات كثيرة من دفع الجزية والعبودية منهزمين.

أبيدوا بالنار، أحرقت القرى والمزارع وحقول الذرة ومحاصيل البطاطا والمنيهوت وبساتين الفاكهة، أحرقت المزروعات المروية



التي أبهجت العين ومنحت الطعام والمزارع حيث كان التيرونيون يمارسون الحب في وضح النهار، لأن الأطفال الذين يُصنعون في الظلام يولدون عميانا. كان كل شيء يحترق.

كم من العوالم الكثيرة تضيء هذه النار؟ العالم الذي كان والذي شوهد والعالم الذي كان ولم ير.

نُفي التيرونيون في نهاية خمسة وسبعين عاماً من التمردات وهربوا إلى الجبال، إلى الأمكنة القاحلة والبعيدة التي تخلو من السمك والذرة. نفاهم الغزاة إلى تلك الأمكنة البعيدة المرتفعة، سيطروا على أراضيهم واستأصلوا ذاكرتهم، وهكذا يمكن أن يطال النسيان في عزلتهم البعيدة الأغنيات التي غنوها حين عاشوا معاً أحراراً وأقوياء يلبسون أردية قطنية متعددة الألوان وعقوداً ذهبية وأحجاراً مشعة. وهكذا يمكن أن ينسوا إلى الأبد أن أجدادهم كانوا يغاور.

يتركون خلفهم الخراب والقبور.

تهمس الريح، تهمس الأرواح المعذبة وترقص النار في المسافة.

## تقنيات الصيد

في أعماق الدغل الأمازوني جلس صياد من قبيلة ديزانا على صخرة مرتفعة وتأمل النهر، انحدرت المياه حاملة الأسماك والأحجار المصقولة، انحدرت المياه مع ضوء الصباح الأول، أمعن الصياد النظر وشعر بأن النهر القديم يتحول إلى دم يتدفق في شرايينه، لن يصطاد الصياد حتى يربح قلوب الإناث من الأسماك.

قريباً منه، في القرية، يستعدّ صياد آخر، لقد تقيأ واستحَم فيما بعد في النهر ونظف نفسه من الداخل والخارج، شرب عصير النباتات التي لها لون الأيائل بحيث تحبل عطورها جسده ورسم على وجهه القناع الذي تفضّله الأيائل. بعد أن نفخ دخان التبغ على أسلحته،

مشى بهدوء إلى النبع الذي يشرب منه الأيل. هناك يرشُ عصير الأناناس، الذي هو حليب ابنة الشمس.

نام الصياد وحيداً في تلك الليالي الأخيرة، لم يعاشر النساء ولم يحلم بهن، بحيث لا يغار الحيوان الذي سيصطاده ويخترقه برمحه وسهامه.

## 1600: بوتوسي

### العجبة الثامنة للعالم

حملت قوافل من اللامات والبغال إلى ميناء آريكا الفضة التي نزفتها جبال بوتوسي من أفواهاها. بعد رحلة طويلة وصلت السبائك إلى أوروبا لتمول الحرب والسلام والتقدم.

تلقت بوتوسي بدلاً من ذلك، من إشبيلية، أو عن طريق التهريب خمور إسبانيا قبعات وحرير فرنسا، ربطات ومرايا ونسيج فلاندرز، سيوفاً ألمانية وورقاً جنوياً وجوارب تيبوليتانية، زجاجاً من البندقية وشمعاً قبرصياً وأماساً سيلانياً ورخاماً هندياً غربياً وعطورا عربية وملقىة وسجاداً فارسياً وبورسلانا صينيا وعبيدا سودا من كيب فيرد وأنغولا، وخيولا قوية من تشيلي.

كان كل شيء مرتفع الثمن في هذه المدينة الأعلى في العالم، كان شراب الذرة وأوراق الكوكا فقط رخيصي الثمن، كان الهنود الذين أسروا بالقوة في البيرو يمشون أيام الآحاد في الزرائب ويرقصون على إيقاع الطبول ويشربون الشيكّا إلى أن يسقطوا أرضاً. في صباحات الاثنين يجمعون كالتطبيع في الجبل، يمشغون الكوكا ويضربون بالقضبان الحديدية، ليبحثوا عن شرايين الفضة، عن الثعابين الخضراء والبيضاء التي تظهر وتختفي في أحشاء هذا البطن الكبير حيث لا يوجد ضوء أو هواء. كان الهنود يكدحون طول الأسبوع. هؤلاء السجناء الذين يتنفسون الغبار الذي يقتل الرئات ويمضغون الكوكا التي تخدع الجوع وتقتنع

الإعياء، ولا يعرفون أبداً متى يخيم الليل أو يبزغ الفجر إلى أن ينتهي يوم السبت ويرن الجرس من أجل الصلاة ونهاية العمل، عندئذ يتحركون إلى الأمام حاملين شموعاً مضاءة ليظهروا فجر الأحد من الحفر العميقة والقنوات والأروقة اللانهائية.

شاهدتهم قسيس جاء حديثاً إلى بوتوسي يصلون إلى ضواحي المدينة في موكب طويل من الأشباح القذرة بظهور جرّحتها السياط فقال: "لا أريد أن أشاهد صورة الجحيم هذه".

اقتراح عليه أحدهم: "إذاً أغمض عينيك".

قال: "لا أستطيع، إذا أغمضت عيني سأرى أكثر من ذلك".

## نبوءات

ترؤجا البارحة أمام النار كما اقتضت التقاليد وسمعا الكلمات المقدسة.

لها: "حين يشتعل بنار الحب لا تتحولي إلى جليد".

له: "حين تشتعل بنار الحب لا تكن جليداً".

يستيقظان على وهج النار، يتعانقان ويهنئان بعضهما بعينيهما ويرويان أحلامها.

أثناء النوم، تسافر الروح خارج الجسد وتعرف في أبدية أو في رفة جفن ما الذي سيحدث؟، يتشاطران الأحلام الجميلة، وكفي يفعل ذلك يستيقظان باكراً جداً، تُرمى الأحلام السيئة، على أية حال، إلى الكلاب.

ذلك أنّ الأحلام السيئة، الكوابيس المتعلقة بالمهاوي والعقبان أو الوحوش، يمكن أن تنذر بالأسوأ.

كان الشيء الأسوأ هنا هو أن تجبر على الذهاب إلى مناجم زئبق هوان كاميلياً أو إلى جبل بوتوسي الفضي البعيد.

## أنشودة كوزكو

رغبت لامة  
أن تمتلك شعراً ذهبياً  
متألقاً كالشمس  
قوياً كالحب  
وناعماً كالضباب  
يحله الفجر  
لينسج ضفيرة  
يعلم عليها  
عقدة بعد عقدة  
الأقمار التي تعبر  
والأزهار التي تذبل.

## 1600: مدينة مكسيكو

### عربات

عادت العربات إلى شوارع مكسيكو العريضة بعد أن حظرها منذ أكثر من عشرين عاماً الملك المتقشّف فيليب الثاني. قال المرسوم إن استخدام العربات يحوّل البشر إلى عاطلين عن العمل ويعوّدهم على حياة الراحة والكسل وهكذا يخسرهم العضلات المفيدة في فنون الحرب.

وبما أن الملك فيليب الثاني ميت الآن، تنتشر العربات في هذه المدينة، تحوي في داخلها الحرير والمرايا ويزينها في الخارج الذهب ودرع السلاحف وعلى الباب تعلق شارات الشرف .

تنفت عطر الخشب الرائع وتتحرك بنعومة البندول وتهتز كالمهد، وخلف الستائر يبتسم النبلاء الاستعماريون ويلوحون بأيديهم، على مقعده الرفيع وسط الهدّابات والشرابات الحريرية، تقريبا مثل ملك يجلس الحوذي المحتقر، والأحصنة منعلة بالفضة.

ما يزال استخدام العربات محظوراً على الهنود والعاهرات والذين عاقبتهم محاكم التفتيش.

## 1601: فالادوليد

### كوفيدو

حكمت إسبانيا البرتغال ومستعمراتها عشرين عاماً بحيث استطاع الإسباني أن يمشي على الأرض دون أن تطأ قدمه تربة أجنبية. إلا أن إسبانيا هي أعلى بلد في أوروبا؛ تنتج دائماً أشياء قليلة ونقوداً كثيرة. من الإسكودات التي تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً والتي ولدت منذ ستة أعوام لم يبق حتى ظل. إن المعلومات التي نشرها مؤخراً دون مارتين غونزاليس في كتاب يدعى رسالة في السياسة الضرورية غير مشجعة. يعامل من الصدفة أو الوراثة، كل إسباني يعمل يحصل على ثلاثين إضافية. إن الذين يحصلون على دخل يعد العمل بالنسبة لهم خطيئة. أما الطبقة الأرستقراطية فتحوّل غرفة النوم إلى ساحة معركة. وفي إسبانيا ينمو الشحاذون والقساوسة أكثر مما تنمو بعض الأشجار القليلة.

تبحرُ مراكب محملة بذهب أميركا إلى جنوا، لا تتركُ المعادن التي تصل من المكسيك والبيرو أدنى رائحة في إسبانيا، ويببدو وكأن العمل

الغدّ للغزو أنجزه أصحاب البنوك والتجار الألمان والجنوبيون والفرنسيون والفلمنكيون.

عاش في فالادوليد شاب مشلول وضعيف البصر انحدر من دم نقى يمتلك لساناً وسيفاً حادّين. في أوقات المساء، وبينما ينزع له خادمه حذاءه، يحلم بالأشعار، وفي الصباح تنزلق ثعابينه من تحت أبواب القصر الملكي.

شخص فرانسيسكو دي كويفيدو في ذهنه، بينما رأسه مدفون في مخدته، القوة التي تحوّل الجبان إلى محارب، والتي تهدئ القاضي الأكثر قسوة، ولاعناً مهنة الشاعر هذه، حك عينيه وقرب المصباح، وبخبطة واحدة أخرج من رأسه الأشعار التي ستمنعه من النوم. الأشعار تخبر عن دون دويلون، الذي:

يولد بشكل مشرف في الأنديز

حيث العالم يرافقه

يجيء ليموت في إسبانيا

ويدفن في جنوا.

## 1602م: ريسيف

### الحملة الأولى ضد الماريس

في المطاحن التي تضغط وتعصر قصب السكر يقاس عمل كلّ عبد كما يقاس وزن القصبه وضغط الآلة الساحقة وحرارة الفرن، تنعدم قوة العبد خلال خمسة أعوام ولكنّ الملك يستعيد في عام واحد الثمن الذي يدفع له. حين تنعدم فائدة أيدي العبيد ويصبحون أفواها لا فائدة لها، يحصلون على حريتهم.

يختبئ العبيد الذين يربحون الحرية قبل الشيخوخة المفاجئة أو الموت المبكر في الجبال التي تقع في شمال شرق البرازيل. يرسل الحاكم العام للبرازيل الحملة الأولى ضد الماريس.

تتألف من بعض البيض الفقراء والهجن المتلهفين لأسر وبيع السود ومن بعض الهنود الذين وعدوا بالأمشاط والسكاكين والمرايا الصغيرة، ومن كثير من الخلاسيين.

يعود قائد الحملة من نهر تابيكورو، الذي يدعى بارتولوميو بيزيرا، ويعلن في ريسيف: "لقد دُمّر مركز التمرد". فيصدقه الجميع.

## 1603: روما

### أجزاء العالم الأربعة

صدرت في روما طبعة منقّحة وموسّعة من كتاب سيزار ريبا: "علم الأيقونات". يظهر قاموس الصور الرمزية هذا العالم كما يبدو من الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط.

تظهر أوروبا على القمة، ملكة، محاطة برموز قوتها، تدعمها الأحصنة والرماح، تحمل بيد واحدة أعمدة المعبد وتحمل بالأخرى شبحاً، تضع تاجاً على رأسها وتستلقي تيجان أخرى عند قدميها وسط التيجان الكهنوتية والكتب وفراشي الرسم والآلات الموسيقية: القوانين والقيثارات وإلى جانب البوق بوصلة ومسطرة.

في الأسفل، إلى اليمين، تظهر آسيا. تقدم القهوة والفلفل والبخور. تزئنها أكاليل الأزهار والفاكهة وينتظرها جمل راع.

في جانب آخر تظهر أفريقيًا امرأة مغربية غسقية اللون برأس فيل وعلى صدرها عقد مرجاني، وحولها أسد وثعبان وعقرب وسنابل قمح.

في أسفل كل شيء تظهر أميركا امرأة بوجه يخيف الناظر إليه. ترتدي الريش فوق جلدها الزيتوني العاري، عند قدميها يستلقي رأس بشري مقطوع وسحلية، إنها مُسلحة بالقوس والنشاب.

## 1603 : سانتياغو

### القطيع

حصل مجلس مدينة سانتياغو على حديد وشم جديد مصنوع من الفضة لوشم العبيد الهنود على وجوههم. أمر الحاكم ألونزو دي ريبيرا أن جزءاً خامساً من قيمة كل أروكاني تم بيعه في موانئ فالديفيا وآريكا يجب أن يخصص لكلفة الحرب وتغذية الجند.

تواصلت حملات الصيد، عبر الجنود نهر البيو - بيو وقاموا بالجلد ليلاً، حرقوا وبتروا وعادوا بالرجال والنساء والأطفال مقيدين من أعناقهم، وحالما يوشمون يباعون للبيرو.

رفع الحاكم إناء الخمرة وشرب نخب المعارك التي ربحت، شرب الأنخاب على الطريقة الفلمنكية مثل بدرودي فالديفيا؛ أولاً، جرعة كبيرة، تليها أخرى للسادة والسيدات الذين تذكروهم.

حين ينتهي من الناس يشرب أنخاب القديسين والملائكة ولا ينسى أبداً أن يشكرهم على الذريعة التي يقدمونها.

## 1605 : ليما

### ليلة القيامة

بعد عيد الميلاد تماماً، دمّرت المدافع الثقيلة للطبيعة مدينة آريكويبا. انفجرت سلسلة الجبال وتقيأت الأرض أسس المنازل، تبعثر البشر تحت الأنقاض وأحرقت الحمم المحاصيل ثم ارتفع البحر وابتلع مرفأ آريكا.



جمع راهب حافي القدمين حشداً في ساحة ليمان البارحة، عند الغسق، أعلن أن هذه المدينة الفاسقة ستنتهار في الساعات القليلة القادمة وسينهار محيطها كله.

صرخ: "لن ينجو أحد، لن ينجو حتى الحصان أو السفينة الأكثر سرعة".

امتألت الشوارع وقت الغروب بالتائبين الذين عاقبوا أنفسهم بالمشاعل. اعترف المذنبون بذنوبهم في الزوايا والأغنياء رموا عن شرفاتهم أنية الفضة وثياب الحفلات في الشوارع. كشفت أسرار تجعل شعر الرأس ينتصب، الزوجات الخائفات نزعن بلاط الأرصفة وضرين أئداءهن بها. ركع اللصوص والغواة أمام ضحاياهم، قبل الأسياد أقدام عبيدهم ولم تتسع أيدي الشحاذين للصدقات الكثيرة، تلقت الكنيسة نقوداً أكثر مما تلقت في جميع أعياد الصوم الكبير في تاريخها كله، وإذا لم يكن الناس يبحثون عن قسٍ يعترفون له، كانوا يبحثون عن واحد ليزوجهم، غصت الكنائس بالبشر الذين يريدون أن يلوذوا بحمايتها.

بزغ الفجر.

أشرقت الشمس فوق ليما كما لم يحدث من قبل، بحث التائبون عن مراهم لظهورهم المتشقة وطارد الأسياد عبيدهم، اللواتي خطبن حديثاً بحثن عن رجالهن الجدد الذين بخرهم ضوء الفجر، البشر الذين تابوا من خطاياهم تجولوا في الشوارع بحثاً عن خطايا جديدة يرتكبونها. سمعت شهقات البكاء واللعنات خلف جميع الأبواب. اختفى جميع الشحاذين عن البصر، اختبأ الكهنة أيضاً ليحصوا الجبال النقدية التي قبلها الله البارحة.

ستشتري كنائس ليما بالنقود المتبقية الريش الأصلي لكبير الملائكة جبريل.

## الفراولة

تذكر الضابط غونزاليس دي ناخيرا الذي عاش ستة أعوام في تشيلي وروى.

تحدث عن أولئك الذين ولدوا وسط الأبواق والطبول، عن النبلاء الذين أرادوا الدروع منذ أن كانوا في مهودهم، وجعلوا من أجسادهم جداراً لصد هجمات الهنود. أصر أن المطر يخرج السنابل الذهبية من التربة التشيلية وأن الهنود دفعوا الجزية من الذهب الذي استخرجوه من بطون العضاءات.

تحدث أيضاً عن فاكهة نادرة لها لون وشكل القلب تنفجر مخرجة عصيرها اللذيذ حين تلمس الأسنان، تستطيع أن تنافس بحيويتها ومذاقها وعطرها أذ الفاكهة الإسبانية، رغم أنهم هناك في تشيلي يشتمونها بتسميتها فراولة.

## 1608: بويرتو برينسبي

### سيلفستردي بالبو

ولدت أول قصيدة ملحمية في تاريخ كوبا في المنزل الطيني المسقوف بسعف النخيل لسيلفستردي بالبو الذي عمل في مجلس بلدة بويرتو برينسبي. أملى المؤلف مقاطعه الشعرية الفخمة على الأسقف ألتميرانو الذي اختطفه القرصان الفرنسي جلبرت جيرون منذ أربعة أعوام في مرفأ منزانييلو.

خرجت من مملكة نبتون<sup>28</sup> الفقمت والحوريات إلى سفينة القرصان متعاطفة مع الأسقف، الذي لم يقبل شيئاً في الدفاع عنه. قدّم سكان منزانييلو مائتي دوقية وألف جلد ومؤناً أخرى فأعتق القرصان اللوثري الرهينة، جاءت الساتيرات والفونات<sup>29</sup> والقنطورات<sup>30</sup> من الغابات إلى الشاطئ حاملات التين الشوكي والأناناس والأفوكاتو والتبغ. وأحضرت حوريات الغابة الفاكهة البرية وأشياء أخرى، وأحضرت حوريات الماء أيضاً لترحب بالقسيس الأسماك النهرية، وأحضرت له حوريات الينابيع والبرك سلاحف لذيذة الطعم من ماسابو. حين استعد القرصنة لأخذ الفدية هجم عليهم بعض الشباب، زهرة شباب منزانييلو، ومنحوم ما يستحقونه. كان الذي اخترق رمحه صدر جلبرت جيرون شاباً أسود يدعى سلفادور:

آه يا سلفادور الكرييولي: أيها العبد البطل

لتحلّق شهرتك في جميع الأصقاع بلا نهاية.

لأنه في مدح جندي شجاع

لن يكلّ قلم أو لسان أبداً

مليئاً بالإعجاب والرهبة، استحضر سيلفستر دي بالبو طراودة وقارن شباب منزانييلو بأخيل ويوليس بعد أن خلطهم بالحوريات والسنتورات. ولكن وسط هذه الآلهة الرائعة تمّ تخليد جميع سكان هذه القرية بشكل متواضع، سمى المؤلف العبد الأسود الذي تصرّف كبطل وكثيراً من فاكهة الجزيرة وأعشابها العطرية وحيواناتها بأسمائها.

<sup>28</sup> نبتون: إله البحر.

<sup>29</sup> فون: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

<sup>30</sup> قنطور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

## 1608: سيفيل

### ماتيو أليمان

سافر ماتيو أليمان على متن السفينة المبحرة إلى المكسيك، لكي يسافر إلى الآنديز قَدَم رشوة إلى سكرتير الملك وأثبت نقاء دمه.

هذا الذي ينحدر من أب وأم يهوديين، والذي لم تحرق له محكمة التفطيش أي قريب، ويدعى ماتيو أليمان ابتكر لنفسه نسبا مسيحيا متفوقا وشارة شرف مفروضة وحول سيدته فرانسيسكادي كالديرون إلى ابنته الكبرى.

عرف الروائي كيف يتعلم فنون شخصيته كوزمان دي ألفاراشي الماهر في الاحتياك والتشرد والخبث، الذي يغير لباسه واسمه ومدينته ليمحو العار الذي لحق به كي ينجو من البؤس: "سأرقص على اللحن نفسه مثل كل الآخرين، طالما يستمر". هذا ما قاله كوزمان دي ألفاراشي في الرواية التي تقرأها إسبانيا كلها.

## 1608م: قرطبة

### الأنكا غارسيلاسو

يبلغ الستين من العمر، يتكى على الطاولة، يغمس قلمه في المحبرة القرنية ويكتب بطريقة تبريرية. يكتب نثرا مليئا بالتفاصيل وأنيقا، يمدح الغازي بلغته التي جعلها لغة له، بيد واحدة يحيي الغزو معتبرا أنه عمل العناية الإلهية: "إن الغزاة، سواعد الإله، نصروا العالم الجديد ودفعت المأساة ثمن الخلاص". باليد الأخرى، يودع مملكة الأنكيين التي دُمّرت قبل أن تُعرف ويستحضرها وكأنه يحن إلى الفردوس. تنتمي يد واحدة إلى والده، الذي يعمل ضابطا

لدى بيزارو وتنتمي الأخرى إلى أمه، ابنة عم أتاهاوليا التي أذلها ذلك الضابط ورماها بين ذراعي جندي.

ولد الآنكا غارسيلاسو من عملية اغتصاب مثل أميركا، ويعيش مثل أميركا ممزقا إلى أشلاء.

رغم أنه عاش نصف قرن في أوروبا ما يزال يصغي إلى أصوات طفولته في كوزكو كأنها ما تزال مسموعة؛ الأشياء التي تعلمها وهو في طرحته، والحليب؛ جاء إلى العالم في تلك المدينة المدمرة بعد أن وصل الإسبان وشرب في تلك المدينة من شفتي والديه القصص التي جاءت من ذلك اليوم البعيد حين أسقط الشمس في بحيرة تيتيكاكا الأمير والأميرة اللذين ولدا من علاقته الغرامية مع القمر.

## 1609م: سانتياغو

### كيف تتصرف على المائدة

أخبروه بذلك هذا الصباح حين أحضروا الشوكولاته العطرية التي يتصاعد منها البخار. بقفزة واحدة خلص الحاكم نفسه من الأغذية الهولندية: قرّر ملك إسبانيا أن يجعل استعباد الهنود الذين يؤسرون في الحرب قانونياً.

احتاجت الأنبياء إلى عام تقريباً لتعبر المحيط وسلاسل الجبال، بيع الآروكانيون لبعض الوقت بحضور كاتب بالعدل وأي شخص حاول الهرب قطعوا مفاصله.

أغلقت موافقة الملك أفواه بعض المتذمّرين.

- "ليبارك الله هذا الخبز"

قدم الحاكم عشاء لمرّوضي البشر في هذه الأراضي العدوّة، شرب الضيوف خمرة البلاد بقرون الثيران وأكلوا خبز الذرة المغلف بأوراق الذرة، وكما أشار الحكيم ألفونسو، كانوا يلتقطون بثلاثة أصابع قطع اللحم المتبّلة، وكما أضاف إيرازموس روتردام، لا يقضمون العظام أو يرمون قشور

الفاكهة تحت الطاولة. بعد تناول شراب الكوبلين الساخن يستخدمون نكاشة أسنان دون أن يتركوها بين شفاههم أو خلف آذانهم.

## 1611م: باروتيني

### مدّمر الوثن

حطموا كاباك هوانكا بالفؤوس. صرخ القسيس فرانسيسكو دي آفيلا بالهنود أن يتحركوا، ما يزال هناك كثير من الأوثان التي يجب أن تكتشف وتدمر في أراضي البيرو حيث يعرف أن لا أحد يمتنع عن خطيئة عبادة الأوثان، لا يستريح الغضب الإلهي أبداً، ولا يجلس آفيلا، جالد السحرة، أبداً.

إلا أن عبيده الذين يعرفون كانوا يتألّمون عند كل ضربة. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل اختاره وأنقذه الإله بارياكاكا. تقاسم معه كاباك هوانكا لوحده كعكته وأوراق الكوكا حين قنّع بارياكاكا نفسه بالأسماك وجاء إلى باروتيني وتوسّل طالبا شيئاً يشربه ويمضغه، إن هذه الصخرة الكبيرة رجل كريم جمده بارياكاكا وحولّه إلى حجر كي لا يجرفه إعصار العقوبة الذي يجرف الجميع.

رمى آفيلا القطع عن الجرف ووضع مكان كاباك هوانكا صليباً، فيما بعد سأل الهنود عن تاريخ كاباك هوانكا ودونه.

## 1612: سان بدرودي أوماباتشا

### المضروب يضرب

يصفرّ السوط المصنوع من الجلد المدبوغ والذي هو رمز السلطة في الجو ويضرب، يمزق الجلد إلى قطع ويشق اللحم.

عاريًا وموثقًا إلى البكرة، يتحمّل كريستوبال دي ليون مولوهواماني زعيم جماعة أومباشا التعذيب، ويتزامن أُنينه مع لسعات السوط. متنقلًا بين الزنزانة ومنصة التعذيب والسوط يعيش الزعيم في الألم. تجاسر أن يتمرد على نائب الملك في ليما ولم يرسل النسبة المحددة له من الهنود. كان مسؤولًا عن قلة الأيدي التي تحضر الخمور من السهول إلى كوزكو والتي تنسج وتحيك الملابس كما يأمر الحاكم. يستخدم الجلاد الذي هو عبد أسود السوط بمتعة، إن هذا الظهر ليس أسوأ أو أفضل من أي ظهر آخر.

## 1613: لندن

### شكسبير

منيت شركة فيرجينيا بخيبة أمل كبيرة على شاطئ أميركا الشمالية الذي يخلو من الذهب أو الفضة، لكنّ كراريس الدعاية تذيع في جميع أنحاء إنكلترا أنّ الإنكليز يبيعون الهنود في فيرجينيا لآلئ السماء مقابل لآلئ الأرض.

منذ وقت ليس بطويل، كان جون دون<sup>31</sup> يستكشف جسد عشيقته في قصيدة كما يستكشف المرء أميركا، وفيرجينيا وذهب فرجينيا هو الموضوع الأساسي لاحتفالات خطبة الأميرة إلزابيث. تقام حفلة تنكرية بقيادة جورج تشايمان على شرف ابنة الملك، تدور حول صخرة ذهبية كبيرة هي رمز لفيرجينيا أو لأوهام مالكي أسهمها: الذهب، مفتاح القوى كلها، سرّ الحياة الذي يطارده السيميائيون، ابن الشمس كما الفضة، وُلد من القمر والنحاس من الزهرة. يوجد ذهب في مناطق العالم الكروية الدافئة، حيث تبذر الشمس أشعتها بسخاء.

<sup>31</sup> جون دون: شاعر بريطاني مشهور.

يُمثّل في احتفالات خطبة الأميرة عمل لوليم شكسبير يدعى العاصفة. وقد جاء هذا الإلهام بسبب تحطم سفينة تابعة لشركة فيرجينيا في برمودا. تجري أحداث مسرحية خالق الأرواح والعجائب الكبير هذه المرة في جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط، الذي يشبه البحر الكاريبي، هناك يقابل الدوق بروسبيرو كاليبان ابن الساحرة سيكوراكس، عابدة إله الهنود الباتاغونيين. كاليبان متوحش، هندي على النمط الذي شاهده شكسبير في معرض ما في لندن؛ شيء ينتمي إلى الظلمة، وحش أكثر من كونه إنسانا، تعلم فقط أن يلعن، ولا يمتلك قدرة على المحاكمة أو الإحساس بالمسؤولية. ولا يستطيع أن يعثر على موقع في المجتمع الإنساني (أي في المجتمع الأوربي) إلا كعبدٍ أو وهو مربوط كقرد، لكن ليس لديه أدنى اهتمام في الانضمام إلى هذا المجتمع.

## 1614: ليما

### مجلس مدينة ليما ولادة الرقابة على المسرح

رأى المجلس أنه بسبب عدم فحص الأعمال الكوميديّة التي تُمثّل في هذه المدينة قيلت أشياء كثيرة مؤذية بحق السلطات والشرف المرتبط بهذه الحكومة، ومن أجل أن تتوقّف هذه الأشياء غير اللائقة في المستقبل يتوجّب علينا أن نقدّم علاجاً. وبعد أن طرحت المسألة ونوقشت تم التوصل إلى اتفاق وصدر أمر يطلب من مؤلفي الأعمال الكوميديّة الحاليين والمستقبليين بأن لا يمثلوا أية ملهأة قبل أن تشاهد وتفحص وتتمّ الموافقة عليها من قبل الشخص الذي يعينه المجلس في حينه، وكل من يخالف سيدفع غرامة قدرها مائتا بيزو.



## رقصات هندية حُظرت في البيرو

جناحا الكندور، رأس الببغاء، وجلد اليغور: يرقص الهنود البيروفيون رقصة أسلافهم التي تدعى "ريمي" في عيد القربان. يؤدون صلاتهم للشمس باللغة الكويتشوانية في وقت رش البذار، أو يبايعون الشمس حين تحدث ولادة في فصل الحصاد.

إلى النهاية، وبمساعدة إلها، لكي تُقمع المناسبات التي تسبب البطالة والكسل، ولكي يتوقف الشيطان عن ممارسة خدعه، قرّر كبير أساقفة ليما أن تتوقف الرقصات والأغاني التي تتم باللهجة المحلية أو باللغة العامية، أعلن كبير الأساقفة عن عقوبات مريعة وأمر بحرق جميع الآلات الموسيقية المحلية بما فيه المزمار القسبي رسول الحب:

ستنامين على الشاطئ.

وسأجيء في منتصف الليل

## 1615م: ليما

### غوامان بوما

يتكئ على الطاولة، وهو يبلغ سبعين عاماً من العمر، يغمس القلم في المحبرة القرنية ويكتب ويرسم متحدياً، يكتب نثراً مستعجلاً ومتقطعاً، ويلعن الغازي بلغته ويجعلها تنفجر. تظل اللغة القشتالية تضغط على الكلمات الكويتشوية والأيمارية ولكن بعد كل شيء . قشتالة هي قشتالة بالنسبة للهنود، وبدون الهنود لا يساوي جلالتم أي شيء.

ينهي غوامان بوما اليوم رسالته الموجهة إلى ملك إسبانيا، كانت موجهة في البداية إلى فيليب الثاني الذي مات حين كان غوامان يكتبها. يريد أن يرسلها الآن إلى يد فيليب الثالث، يتنقل الرحالة من قرية إلى أخرى، يسير المؤلف فوق جبال تغطيها الثلوج، يأكل إذا استطاع ويحمل على ظهره مخطوطته التي تكبر بالأمثلة والكلمات، يعود المؤلف من العالم، يعبر في العالم وهو يبكي طوال الطريق ويصل أخيراً إلى ليما، ويقرر أن يسافر من هنا إلى إسبانيا، ولا يعرف كيف سيتدبر الأمر، وما الذي يهم؟ لا أحد يعرف غوامان، ولا أحد يصغي إليه، والمملك بعيد جداً ومرتفع جداً، إلا أن غوامان الذي يحمل القلم في يده يعامله ندا لند ويخاطبه بشكل مألوف ويشرح له ما يجب عليه أن يفعله.

منفياً من مقاطعته، عارياً، نُظر كأنه لا شيء، لا يتردد غوامان في إعلان نفسه وريثاً للسلالات الملكية الياروفيلكية والآنكية، ويسمّي نفسه مستشار الملك والمؤرخ الهندي الأول وأمير الإقليم ونائب الحاكم. كتب هذه الرسالة الطويلة بدافع من كبريائه: بدأ نسبه من أقدم أسياذ هوانكو واندماج في الاسم الذي منحه الباز والكوجر، شعار نبالة أسلافه الذين حكموا الأراضي التي تقع في شمال البيرو قبل الآنكيين والأسبان.

إن كتابة هذه الرسالة تسبّب البكاء. الكلمات، الصور، دموع الغضب. إن الهنود هم المالكون الطبيعيون لهذه المنطقة والأسبان غرباء هنا. يدوس الرسول سانتياغو الذي يرتدي الزي العسكري على محلي ساقط في المآذب الصحون مزينة بصور النساء. يحمل البغال سلة مليئة بأبناء الكاهن المهجنين. إنه عقاب من الله أيضاً أن يموت كثير من الهنود في مناجم الفضة والزئبق، في كل أنحاء البيرو، حيث يوجد مائة، لا يبقى عشرة.

يسأل الآنكا: "هل تأكلون الذهب؟". يجيب الغازي: "نأكل هذا الذهب".

ينهي غوامان رسالته اليوم، لقد عاش من أجلها؛ استغرقت نصف قرن لتكتب وترسم، تتألف من ألف ومائتي صفحة تقريباً. اليوم ينهي غوامان رسالته ويموت.

لن يراها فيليب الثالث ولا أي ملك آخر أبداً، سوف تتيه في الأرض ضائعة لمدة ثلاثة قرون.

## 1616: مدريد

### سرفانتس

- "أية أنباء تحضرها من أبنائنا؟".
- "إنه يستلقي يا سيدي وسيط الدموع والصلوات، إنه متورم وله لون الرماد، لقد أسلم روحه سابقاً وهو بين الكاتب بالعدل والقسيس والندابون ينتظرون".
- "لو كان معي فقط بلسم فييرابراس.. جرعتان منه وسيتحسن".
- "كيف وهو يبلغ السبعين وعلى وشك الاحتضار ولا يوجد إلا ستة أسنان في فمه ولا يمتلك إلا يدا واحدة تعمل وهو مليء بالندوب من الحروب واللعنات والسجون؟ هذا لن يفيدته بأي شيء يا سيدي".
- "لا أقول جرعتين بل قطرتين".
- "لقد تأخر الوقت".
- "لقد مات، أهذا ما تقوله؟".
- "يحتضر يا سيدي".
- "انزع قبعتك ياسانشو وأنت ياروزينانته، أخفض رأسك، وآه يا أمير النبالة وملك الحروف".
- "ما الذي ستفعله بدونه يا سيدي؟".
- "لا شيء لا يعظمه".
- "أين سنضع أنفسنا ونحن وحيدان هكذا؟".

- "سنذهب إلى حيث أراد أن يذهب ولم يستطع".
- "إلى أين يا سيدي؟".
- "لنقوم ما أعوجّ على شواطئ كارتاجينا وفي وهاد لاباز وغابات سوكونسكو".
- "إنها أمكنة ظريفة لطحن عظامك".
- "يجب أن تعرف ياسانشو، يا أخي على طرقات كثيرة وفي رحلات كثيرة أن العظمة في الآنديز تنتظر الفارس الجوّال المتعطش للعدالة والشهرة..."
- "حسناً، لم تمض وهلة على تعرضنا للضرب".
- "... وسوف يُكافأ المرافقون بممالك كبيرة لم تكتشف أبداً".
- "ألا يوجد بعضها في مكان أقرب؟".
- "وأنت ياروزينانته، إن الأحصنة في الآنديز تنعل بالفضة والقطع الذهبية، وتعتبر آلهة".
- "إنّ ألف ضربة غير كافية بالنسبة له، إنه يريد أكثر من ألف ضربة".
- "اخرس ياسانشو".
- "ألم يقل والدك إنّ أميركا هي ملاذ للأندال ومعبد للعاهرات؟".
- "اخرس، سأخبرك".
- "قال إن كل من يذهب إلى الآنديز يترك ضميره على رصيف المرفأ".
- "ولهذا سنذهب، لننظف شرفه، هذا الذي تبئانا كأحرار في السجن".
- "ألا تستطيع أن تندبه هنا فقط؟".

- "هل تدعو هذه الخيانة تبجيلاً؟ الآن أيها الوغد! سننطلق ثانية. إذا كان قد صنعنا لنطوف في العالم سنأخذه عبر العالم، أحضر لي خوذتي والدرع والرمح ياسانشو!"

## 1616: بوتوسي

### صور موكب

جبل بوتوسي السحري: في هذه السهول المرتفعة والمعادية والتي منحت العزلة والبرد فقط، ازدهرت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان.

ترأس صلبان فضية فخمة الموكب الذي يتقدّم بين صفيين من الرايات والسيوف. ترنّ في الشوارع الفضية الحوافر الفضية للأحصنة المزينة بالمخمل والسروج المطرزة باللالئ، من أجل المصادقة على الذين يحكمون وتقديم العزاء للذين يخدمون تمرّ الفضة في عرض متوهجة، واثقة، متبخترّة، متأكدة أنه لا يوجد مكان على الأرض لا تستطيع شراءه.

ترتدي المدينة ثياب المهرجان، وعلى الشرفات تتدلى شِعارات النبالة وأشياء أخرى، ومن بحر الحرير الذي يصدر حقيقياً، ومن زبد البريمات وشلالات اللالئ، تراقب السيدات بإعجاب الموكب الذي يتقدّم والمؤلف من مجموعة أبواق وشومات<sup>32</sup> وطبول بأصوات حادة. كان بعض السادة يضعون عصابة سوداء على إحدى أعينهم وتبدو أورام وجراح على جباهم، وهذه لم تكن علامات حرب بل سفلس. كانت القبلات وكلمات الغزل من الشرفات إلى الشارع ومن الشارع إلى الشرفات.

<sup>32</sup> الشوم: آلة موسيقية خشبية قديمة.

تظهر شخصيات الأنانية والجشع المقنعة، يغني الجشع من خلف  
قناعه الثعباني بينما حصانه يثب:

جَدْرَ جميع الشرور

يسمّونني، ولا أتعب أبداً

لا أشيع.

تجيب الأنانية التي ترتدي بنظوناً أسود وسترة سوداء مطرزة  
بالذهب وقناعاً أسود تحت قبعة سوداء كثيرة الريش:

إذا غزت الحب

وغزا الحب الموت، سيَتفق الجميع

أن لا شيء أقوى مني.

يرأس الأسقف جيشاً طويلاً وبطيئاً من الكهنة والتائبين الذين غطوا  
رؤوسهم مسلحين بشموع طويلة وبشمعدان فضي، بعد ذلك تفرض أبواق  
المذيعين أنفسهم على أصوات أجراس الكنائس معلنة عن العذراء  
غوادالوبه ضوء الصابرين، مرآة العدالة، ملاذ الخاطئين وعزاء المبتلين،  
النخلة الخضراء، الصولجان المزهرة والصخرة المضيئة. تظهر في موجات  
من الذهب وأمهات اللآلئ تحملها أذرع خمسين هندياً مثقلة بجواهر  
كثيرة وتراقب بعينين مندهشتين صخب الملائكة ذات الأجنحة الفضية  
والعرض البديع لعابديها. وعلى حصان أبيض مطهم يجيء فارس السيف  
المشعل تتبعه كتيبة من الخدم والغلمان ترتدي بزات بيضاء، يقذف  
الفارس قبعته بعيداً ويغني للعذراء:

جمال سيدتي المفرط

يذهل السماء والأرض!

يركض الخدم والغلمان الذين يرتدون بذلات أرجوانية خلف فارس  
الحب الإلهي الذي يجيء خبيبا على حصانه كخيال على الطريقة  
الرومانية وحواف رداثة الحريري الأرجواني تتأرجح في الريح. يركع على  
ركبتيه أمام العذراء ويخفض رأسه المتوج بالغار، ولكن حين يهسي نفسه

ليغني أشعاره ينبعث وابل من الدخان الكبريتي ويقاطعه . لقد غزت منصة الشيطان الشارع ولا أحد يعير أدنى انتباهه إلى فارس الحي الإلهي .

يفتح الأمير تارتر، عابد محمّد، جناحيه الخفاشيين وتظهر الأميرة بورسبيرين التي تملك شعرا طويلا وفتانا طويلا وتقذف من مكان عال تجديفات يصفق لها أتباعها من الشياطين، وفي مكان ما يُلفظ اسم يسوع المسيح وتنفجر منصة الجحيم مصدرة صوتا مرتفعا - يقفز الأمير تارتر والأميرة بروسبيرين عبر الدخان والهبب ويسقطان أسيرين عند قدمي أم الإله .

الشارع مغطى بملائكة صغار وهالات وأجنحة متألقة أما الكمنجات والغيتارات والبزق والشومات فتصدر أحناء عذبة . موسيقيات يرتدين ثياب عازبات يحتفلن بوصول الرحمة والعدالة والسلام والحقيقة، بنات بوتوسي الأربع الرشيقات محمولات على محفات من الفضة والمخمل، وكان للخيول التي تجرّ منصتهن صدور ورؤوس هندية .

بعد ذلك يجيء الثعبان ملتفاً وتموجاً، يتقدّم الثعبان على أقدام هندية في الطريق المضاء بالمشاعل زارعا الخوف والنار في الاحتفالات ومظهرا التحدي والقوة عند قدمي العذراء، حين يقطع الجنود رأسه بالفؤوس والسيوف يظهر من أحشاء الثعبان الآنكا بكبرياء محطم إلى أشلاء . جارا ثوبه الفانتازي، يركع ابن الشمس على قدميه أمام الضوء الإلهي . كانت العذراء تزهو بردائها الذهبي وباليواقيت واللآلئ والصليب الذهبي الذي يشع على تاجها الإمبراطوري أكثر تألقا من السابق فوق عينيها المندهشتين .

بعد ذلك يجيء الحشد؛ حرفيون من كل مهنة ومتشردون وشحاذون يستطيعون أن يجبروا حتى العين الزجاجية على البكاء . المهجنون أبناء العنف، الذين ليسوا عبيدا أو أسيادا، يمشون على أقدامهم، إذ إن القانون يحظر عليهم اقتناء الخيول أو الأسلحة كما يمنع الخلاسيين من استخدام المظلات بحيث لا يستطيع أي شخص أن يخبئ وصمة العار التي تلوث الدم إلى الجيل السادس . يجيء مع

المهجنين والخلاسيين أرباع الزنوج وأنصاف السود وبقية الخلائط التي أنتجها الصياد وفريسته.

وفي الخلف يتقدم حشد من الهنود محملاً بالفاكهة والأزهار وصحون الطعام التي يتصاعد منها البخار يتوسّلون إلى العذراء من أجل الصفح والعزاء.

وفي نهاية المؤخرة كان بعض السود يجرون المحفة التي تركها الآخرون.

## 1616: سانتياغو باباسكويارو

هل إله الأسياد، هو إله العبيد؟

تحدّث نبي هندي عن الحياة الحرّة، مرتدياً الثياب التقليدية، سافر عبر الصحارى والجبال مثيراً الغبار ومغنياً على الإيقاع الحزين لجذع شجرة أجوف، عن الأعمال الفذّة للأسلاف، وعن الحرية الضائعة. بشرّ العجوز بالحرب ضدّ أولئك الذين احتلوا أراضي الهنود وآلتهم وجعلوا الهنود يفجرون رثاتهم في مناجم زاكاتيكاس. أعلن أن أولئك الذين ماتوا في الحرب الضرورية سينبعثون والعجائز الذين ماتوا وهم يقاتلون سيولدون شباباً وأقوياء.

سرق التيبيهوانيون البنادق وصنعوا وأخبؤوا الأقواس والسهام لأنهم رماة مهرة كنجم الصباح، رامى السهام المقدّس. سرقوا الأحصنة وقتلوها ليأكلوا سرعة حركتها وقتلوا البغال ليأكلوا قوتها.

نشبت التمرد في سانتياغو باباسكويارو في شمال دورانغو. داس التيبيهوانيون، هنود المنطقة الأكثر مسيحية، والذين كانوا أوائل المرتدّين عن دينهم، على الصليب، وحين توسّل الأب برناندور سيزنيروس طالبا الرحمة، أجابوه: "اطلب من الله أن يساعدك". في الجنوب حطموا وجه العذراء بالمناجل وتجرعوا الخمرة بكؤوس القربان. وفي قرية زابجي طارد الهنود الملعون بالأردية الكهنوتية



الجزويتية والقلنسوات الإسبان الفارين عبر الغابات. ضربوا الأب هرناندو ديل توفار بالهروات في سانتا كاتارينا قائلين له: "لنر إذا كان سينقذ". انتهى الأب خوان ديل فالي متمّداً عارياً على الأرض رافعاً يده التي ترسم إشارة الصليب عالياً في الجو، أما يده الأخرى فتغطي عضوه الذي لم يستخدم أبداً.

إلا أن العصيان لم يستمر طويلاً، ذلك أن القوات الاستعمارية هزمت الهنود في سهول كاكاريا .

سقط مطر أحمر على الموتى، سقط المطر عبر فضاء كثيف بالبارود وثُقِبَ الموتى بطلقات من الوحل الأحمر.

رُنّت الأجراس في زاكاتياس داعية إلى الولائم الاحتفالية. تنهّد مالكو المناجم بارتياح، لن يكون هناك نقص في الأيدي التي تحفر، لا شيء سيقاطع رخاء المملكة، سيكونون قادرين على البوّل بهدوء في الأوعية الفضية ولن يمنع أحد زوجاتهم اللواتي تواكبهنّ مائة خادمة وعشرون فتاة من حضور القدّاس.

## 1617: لندن

### نفخات تبغ فيرجيني في ضباب لندن

الشخصيات:

الملك:

(ملك بريطانيا جيمس الأول، ملك اسكتلندة السادس). كتب: "إن التبغ يحوّل أعضاء الإنسان الداخلية إلى مطبخ، يوسخها ويملوها بنوع من السخام الزيتي والمذهن. كتب أيضاً أن أي شخص يدخن يحاكي التصرفات البربرية والوحشية للهنود المتوحشين والعبيد والكفار".

## جون رولف :

استعماري انكليزي في فيرجينيا. إنه أحد الأعضاء الأكثر تمييزاً بين البشر الخاصين الذين حددتهم واختارتهم إصبع الله... لأنه أنتج خلائط جيدة من التبغ في مزارعه وذلك من البذور التي أحضرها إلى فيرجينيا من ترينيداد. أرسل إلى لندن منذ ثلاثة أعوام في سفينة إيلزابيث أربعة براميل مليئة بالأوراق التي افتتحت تجارة التبغ التي كانت مزدهرة في لندن. يمكن أن يقال بشكل جيد إن جون رولف وضع التبغ على عرش فيرجينيا كنبته ملكية لها قوة مطلقة. في العام الماضي جاء إلى لندن مع الحاكم ديل بحثاً عن مستعمرين جدد وإيداعات جديدة لشركة فيرجينيا واعداء بأرباح خيالية لأصحاب الأسهم، لأن التبغ بالنسبة لفيرجينيا سيكون ماكانته الفضة في البيرو. جاء أيضاً ليقدم للملك جيمس زوجته، الأميرة الهندية بوكاهونتاس المعمدة باسم ريكا.

## السير توماس ديل :

كان حاكماً لفيرجينيا حتى العام الماضي. جعل زواج رولف بوكاهونتاس قانونياً والذي هو أول زواج أنكلو - هندي في تاريخ فيرجينيا على أساس أن هذا الزواج يعد عملاً سياسياً ملائماً جداً للمساهمة في تقديم تموين الحبوب والأيدي بسلام من قبل السكان المحليين. على أية حال، في طلبه للأذن لم يذكر جون رولف هذا الجانب من القضية، ولم يذكر أي شيء عن الحب رغم أنها لم تبلغ الثمانية عشرة من العمر. قال رولف إنه أراد أن يتزوج هذه الوثنية. ذات الثقافة الوقحة والتصرفات البربرية والمنحدرة من جنس ملعون من أجل

صالح مزرعته وشرف بلاده وعظمة الله ومن أجل خلاصه ولتحويلها إلى المعرفة الصحيحة بالله وبالمسيح.

## بوكاهونتاس :

كانت تُعرف أيضاً باسم ماتوكا حين عاشت مع الهنود. كانت البنت المفضلة لدى الزعيم الكبير بوهاتان. بعد أن تزوجت رولف تركت عبادة الأوثان وغيّرت اسمها إلى ربيكا وغطت عريها بملابس إنكليزية. ارتدت قبعة وربطة عنق مرتفعة وجاءت إلى لندن واستقبلت في البلاط. كانت تتحدث وتفكر كامرأة إنكليزية وشاركت زوجها في دينه الكالفيني بإخلاص ووجدت فيها شركة فيرجينيا الداعم الأكثر قدرة وغرابة لتمكّن لنفسها في لندن. ماتت مصابة بمرض إنكليزي. كانت تبحر في التايمز في طريقها إلى فرجينيا وحين انتظرت السفينة الرياح المفضلة لفظت بوكاهونتاس أنفاسها الأخيرة بين ذراعي جون رولف في آذار عام 1617 ولم تكن قد وصلت إلى سن الواحد والعشرين.

## أوبيكانكانوف :

إنه عم بوكاهونتاس والأخ الأكبر للزعيم الكبير بوهاتان. منح العروس في الكنيسة البروتستانتية في جيمس تاون. منذ ثلاثة أعوام لم ينطق بأية كلمة قبل وأثناء وبعد مراسيم الزواج إلا أن بوكاهونتاس أخبرت رولف بقصة عمها. عاش أوربيكانكانوف، مرة في إسبانيا وفي المكسيك، كان في ذلك الوقت مسيحياً معروفاً باسم لوي دي فيلاسكو ولكنه حالماً عاد إلى بلاده تخلص من الصليب والرداء الكنهوتي ورمهما في النار، ذبح القساوسة الذين كانوا

يرافقونه واستعاد اسم أوبيكانكانوف والذي يعني في اللغة الهندية: هذا الذي يمتلك روحاً نظيفة.

جمع ممثل من مسرح غلوب تفاصيل هذه القصة وسأل نفسه وهو يواجه إبريقاً من البيرة، ما الذي سيفعله بها؟ هل يكتب قصة حب مأساوية أم مسرحية أخلاقية عن التبغ وقواه الشريرة؟ أم يعدّ حفلة تنكرية يكون موضوعها غزو أميركا؟ أكيد أن المسرحية ستنتج لأن لندن كلها تتحدث عن الأميرة بوكاهونتاس وزيارتها سريعة الزوال إلى هنا. هذه المرأة التي تعادل مجموعة من الحريم تحلم كلّ لندن بها عارية بين الأشجار وفي شعرها أزهار عطرية. أيّ ملاك منتقم طعنها بسيفه؟ هل كفرت عن ذنوب شعبها الوثني أم هل كان موتها تحذيراً من الله لزوجها؟ التبغ، الابن غير الشرعي لبروسبرين وباخوس... ألا يحمي الشيطان العقد الغامض بين تلك العشبّة والنار؟ هذا الدخان الذي يصيب الرجل الفاضل بالدوار، أليس ابن الشيطان؟ والفسق المخبأ لجون رولف... وماضي أوبيكانكانوف، المعروف سابقاً باسم لوي دي فيلاسكو، أهو منتقم أم خائن؟... يدخل أو بيكانكانوف إلى الكنيسة وذراعه في ذراع الأميرة... طويلة، منتصبه، صامته...

اختتم صائد الحكايات غير الحكيم عمله وهو يدفع ثمن بيرته ويخرج إلى الشارع قائلاً: "لا، لا، إن هذه القصة جيدة جداً للكتابة وكما قال شاعر الأنديز اللطيف سيلفا: إذا كتبتها ما الذي سيبقى عندي كي أرويه لأصدقائي؟".

**1618: ليما**

**عالم صغير**

مات مالك فابيانا كريولا. خفّض في وصيته ثمن حرّيتها من مئتين إلى مائة وخمسين بيزو.

أمضت فابيانا الليل من دون أن تنام وهي تفكر كم يساوي صندوقها الخشبي المليء بمسحوق القرفة، لا تعرف أن تجمع ولهذا لا تستطيع أن تحسب الحريات التي اشترتها بعملها خلال نصف القرن الذي أمضته في العالم، ولا ثمن الأولاد الذين أنجبوا من خلالها وأخذوا منها.

يجيء الطائر مع ضوء الفجر الأول وينقر النافذة بمنقاره. يعلن الطائر نفسه كل يوم أن وقت الاستيقاظ والذهاب قد حان.

تتأب فابيانا، تجلس على الحصيرة وتفحص قدميها المتآكلتين.

## 1618: لواندا

### الرحيل في السفينة

يُقَبَضُ عليهم بشباك الصيادين، يتقدمون الآن إلى الساحل مربوطين إلى بعضهم من أعناقهم بينما تصدح طبول الألم في القرى.

يساوي العبد على الشاطئ الأفريقي أربعين عقداً زجاجياً أو صفارة مربوطة إلى سلسلة أو مسدسين أو حفنة طلاقات. كان يقدم اللحم الإنساني مقابل الحصول على البنادق القديمة والمناجل وشراب الروم والحرير الصيني.

يفحص الكاهن صف الأسرى على الرصيف الرئيس لميناء لواندا. يتلقى كلَّ عبدٍ قرصة ملح على لسانه ورشة من الماء المقدس على رأسه واسماً مسيحياً. يترجم المترجمون الموعظة: "أنتم الآن أبناء الله..." ينصحهم ألا يفكروا بالأراضي التي يغادرونها وأن لا يأكلوا لحم الكلب أو الجرذ أو الحصان، يذكرهم بالرسالة الإنجيلية التي أرسلها القديس بولس إلى أفسس: "أيها العبيد اخدموا أسيادكم". يذكرهم باللعنة التي صبها نوح على أبناء حام الذين بقوا سودا طول العصور.

يشاهدون المحيط للمرة الأولى ويروّعهم هذا الوحش الكبير الذي يزأر، يظنون أن البيض يأخذونهم إلى مسلخ بعيد كي يأكلوهم

ويصنعوا منهم الزيوت والشحوم، تسوقهم سياط مصنوعة من جلود جواميس البحر إلى قوارب كبيرة تعبر الأمواج المنكسرة. على السفن يواجهون مدفعية موزعة على الطرفين، تمنعهم السلاسل والقيود من الانتحار غرقاً.

يموت كثيرون في الرحلة ويباع الباقون على قيد الحياة في أسواق أميركا ويوشمون ثانية بالحديد المحمى.

لن ينسوا آهتهم أبداً، سيتقنّع أوكسالا الذي هو رجل وامرأة بالقدّيس جيرونيمو وبالقدّيسة بربارة. سيصبح أوتالا يسوع المسيح وسيتحول أوّشن، الذي هو روح الحسية والمياه العذبة، إلى عذراوات كانديلياريا، إلى الفهم والفضيلة والمتع، وسيصبح القدّيسة آنّي في ترينيداد. خلف القدّيس جورج والقدّيس أنطوني والقدّيس ميخايل ستكمن رماح أوغم، إله الحرب. سيغني بابلو داخل القدّيس لازاروس، ستحلّ رعود ونيران شانغو المخيف في القدّيس جون والقدّيسة بربارة وسيواصل إيليكوفا في كوبا امتلاك وجهين؛ الحياة والموت. وفي شمال البرازيل سيكون لإيكسو رأسان: الإله والشيطان، ليقدم للمؤمنين العزاء والانتقام.

## 1618: ليما

### ظلمة شديدة

دفع الصديقان رداً لهما الرثين إلى الخلف وكنسا الأرض بقبعتيهما. تبادلا تحيات الاحترام ثم بدأت المجاملات: "إن جدعتك شيء عجيب".

- "إن قرحتك التناسلية رائعة فنيّة".

عبرا قطعة الأرض الخالية والذباب يطاردهما.

تحدثا وهما يتبولان مديرين ظهريهما للريح.

- "مرّ وقت طويل ولم نر شيئاً".

- "إنني أهرب كذباً، وتزداد معاناتي".

- "نعم".

أخرج السحلية كسرة خبز من جيبه، نفخ عليها، ليّنها ودعا شحاذ الخبز ليكون ضيفه، تأملا الأزهار في النباتات الشائكة وهما جالسان على صخرة.

قضم شحاذ الخبز لقمة بأسنانه الثلاثة وقال: "يوجد في السراي صدقات جيدة... إنه أفضل مكان لعين في ليما، إلا أن الحمّال رماني في الخارج ورفسني".

- "أنت لا تعني خوان أوتشوا؟".

- "إن اسم الشيطان أفضل له، يعلم الله أنني لم أفعل له شيئاً".

- "لم يعد خوان أوتشوا هناك".

- "هذا صحيح".

- "لقد نبذوه ككلب والآن لم يعد حمّالاً في السراي ولم يعد يساوي شيئاً".

ابتسم شحاذ الخبز بعد أن شعر بأنهم انتقموا له. مدّد أصابع قدميه العارية.

- "إلا أنه قام بأعمال سيئة؟".

- "لا، لم يكن هذا هو السبب".

- "إذاً لأنه كان غيباً جداً".

- "لا، لا، لأنه ابن خلاسي وحفيد زنجي. أسود جيداً وبشكل مخز".

## رقصات الشيطان تجيء من أميركا

شكراً لجثة القديس إسيدور التي نامت قربه في الأيام القليلة الماضية. لقد شعر الملك فيليب الثالث بتحسّن. أكل هذا الظهر وشرب دون اختناق، أضاءت أطباقه المفضّلة عينيه وأفرغ كأس الخمرة بجرعة واحدة.

رطب أصابعه في الوعاء حملة خادم راعع. قدم خادم الاستحمام المنديل إلى كبير خدم الأسبوع، نقله كبير خدم الأسبوع إلى كبير الخدم، ركع كبير الخدم لدوق أوسيدا. أخذ الدوق المنديل وأحنى رأسه ثم سلمه للملك، وبينما جفف الملك أصابعه أزال خادم الفقات عن ثيابه وصلى قسيس صلاة شكر لله.

تثائب فيليب، وفكّ ياقته العالية المزركشة، وسأل عن الأخبار.

قال له الدوق إن هيئة إدارة المستشفى جاءت إلى القصر. شكوا من أن الجمهور يرفض الذهاب إلى المسرح منذ أن منع الملك الرقصات، والمستشفى يعتمد على إيرادات المسرح. قالت الهيئة للدوق: "سيدي منذ أن توقفت الرقصات توقفت الإيرادات. إن المرضى يموتون ولا نملك شيئاً ندفعه من أجل الضمادات والأطباء".

لقد قرأ الممثلون أشعاراً ألفها لوب دي فيغا تمجّد الهنود:

تاكويتان ميتاناكوني

إسباني من هنا إلى هناك

لا يوجد في إسبانيا حب

هكذا يبدو لي

هناك الأنانية هي الملك

أما هنا فالحب موجود.



لكن ما يريده الجمهور من أميركا هو الرقصات والأغاني غير المحتشمة التي تثير البشر الأكثر احتراماً. لا فائدة للممثلين في جعل الأحجار تبكي والموتى يضحكون ولا في جعل الفنون المسرحية تستخرج الإضاءة من الغيوم الكرتونية، قالت هيئة المستشفى وهي تنن: "إذا بقيت المسارح خالية ستغلق المستشفيات".

قال الدوق: "أخبرتكم أن جلالكم سيقرّر".

حك فيليب ذقنه وفحص أظفاره.

- "إذا لم يغير جلالكم رأيه فإن ما مُنِعَ قد مُنِعَ وبشكل جيد".

إن رقصة السربنده والشاكون تجعل الجنس يشع في الظلام . وقد شجب الأب ماريانا هذه الرقصات التي هي ابتكارات الزنوج الأميركيين المتوحشين، وهي شيطانية في كلماتها وحركاتها، حتى في المواقب تسمع أشعارهم التي تمدح الخطيئة. وحين تنفجر إيقاعات دهم الداعر وصورهم لا تستطيع حتى الراهبات في الأديرة أن يسيطرن على أقدامهن وعلى دغدغات الشيطان التي تكهرب أردافهن وبطنهن.

لاحقت عينا الملك طيران ذبابة كبيرة كسولة بين بقايا الأدبة، سأل الملك الذبابة: "وأنت، ماذا تعتقدين؟".

ظنّ الدوق أن الكلام موجّه إليه فقال: "إن هذه الرقصات التهريجية هي موسيقا لسبب السحرة كما قال جلالكم بشكل جيد، ومكان السحرة هو النار في الساحة الرئيسة".

اختفت الحلويات عن الطاولة إلا أن الرائحة علقت في الجو.

أمر الملك الذبابة هادياً: "أنت التي تقررين".

ألح الدوق: "إن أسوأ عدو لجلالكم لا يستطيع أن يتهمكم بعدم التسامح، كان جلالكم متسامحاً، في زمن الملك والدك حفظه الله..."

هذى فيليب: "ألست أنت التي تقودين؟".

- "إن كل من تجرأ على رقص السربنده حصل على مكافأة مختلفة... حصل على مائتي جلدة وجرعة تجذيف في السفن".

همس الملك وأغمض عينيه : "أقول، أنت".

- "أنت"، وظهرت كمية من الزبد واللعب الذي ينتجه فمه دائماً بإفراط على شفيته.

شم الدوق رائحة احتجاج، فأغلق فمه حالاً وانسحب على رؤوس أصابع قدميه.

غلب النعاس فيليب الذي ثقل جفناه وحلم بامرأة ريانة عارية تفترس ورق اللعب.

## 1622: إشيلية

### الجرذان

كان الأب أنطونيو فاسكويز دي اسبينوزا الذي وصل حديثاً من أميركا هو ضيف الشرف.

بينما كان الخدم يقدمون قطع الديك الرومي مع الصلصة اندفعت موجات زبدية في الجو وجننت العاصفة بحراً أبيض مرتفعاً. وحين جيء بالدجاجات المحشية سقطت أمطار استوائية على المائدة، روى الأب أنطونيو أن المطر يسقط عنيفا على الساحل الكاريبي حتى إن النساء يحملن وينجبين وهن ينتظرن توقفه، وحين يتوقف يكنّ قد كبرن.

أكل الضيوف الذين سحرتهم القصة والمأدبة وسمتوا، امتلاً فم الكاهن بالكلمات ونسي الطعام، استمع الأولاد والنساء الجالسون على الوسائد وكانهم في قدّاس.

كان العبور في ميناء هوندوران في تروجيلو إلى ساتلوكار دي باراميدا عملاً فذاً. تابعت السفن طريقها وهي تصطدم ببعضها. عذبتها رياح عنيفة باردة، ابتلع البحر الغاضب عدة سفن والتهمت أسماك القرش كثيراً من البحارة، ولكن لم يكن هناك شيء أسوأ من الجرذان، قال الأب أنطونيو هذا وهو يخفض صوته.

مأ الله السفن بالجرذان ليعاقب الذين ارتكبوا ذنوباً كثيرة في أميركا، والذين لا يكثرثون بالاعتراف أو بالعشاء الرباني كما يجب أن يفعلوا قبل أن يصعدوا إلى السفن، وضعها في المخزن، بين المون وتحت مؤخرات السفن، وتحت الكوثل وفي القمرات وعلى مقعد القبطان. كانت جرذانا كبيرة وكثيرة أثارت الخوف والرهبة، سرقت الجرذان أربعة قنطارات خبز من الحجرة التي كان الكاهن ينام فيها بالإضافة إلى البسكويت الذي كان تحت باب القبو، افترست لحم الخنازير وجوانب قطع اللحم المقدد في المخزن الصدري لمؤخرة السفينة، وحين ذهب المسافرون الظامئون ليبحثوا عن الماء وجدوا جرذانا غارقة تعوم في الصهاريج، وحين ذهب الجائعون إلى خم الدجاج، كان كل ما عثروا عليه هو العظام والريش وربما على دجاجة زاحفة بقدمين مقروصتين. لم تنج حتى الببغاوات وهي في أقفاصها، وبدأ البحارة يراقبون الماء والطعام المتبقيين ليلا ونهارا مسلحين بالهراوات والسكاكين فهاجمتهم الجرذان وعضت أيديهم وأكلت بعضهم.

وصلت الجرذان إلى الزيتون والفاكهة إلا أن الحلويات بقيت سليمة ولم تلمس قطرة من الخمرة.

- "هل ترغبون بسماع الصلوات الجديدة التي ألقتها؟ بما أن الصلوات القديمة لم تُهدئ غضب الرب...؟"  
لم يجبه أحد.

سعل الرجال ورفعوا المناديل إلى أفواههم، اختفت النساء الواقفات اللواتي كن يصدرن أوامرهن إلى الخدم. كان الذين يستمعون وهم جالسون على الأرض حولا وفاغري الأفواه. رأى الأطفال الأب أنطونيو بأنف كبير وأسنان ضخمة وبشارب طويل ثم حنوا رؤوسهم باحثين عن ذيله تحت الطاولة.

بشر للبيع

- "امش!"
- "أركض!"
- "غن!"
- "ما هي عيوبه؟"
- "افتح هذا الفم!"
- "هل هو سكران أم مشاكس فقط؟"
- "كم تدفع يا سيدي؟"
- "والأمراض!"
- "يساوي هذا الثمن مرتين"
- "اركض"
- "من الأفضل ألا تغشني وإلا سأعيده"
- "اقفز أيها الكلب"
- "لا تحصل على بضائع كهذه مقابل لا شيء"
- "اجعله يرفع ذراعيه"
- "اجعله يغني جيداً بصوت مرتفع"
- "هل لهذه المرأة أولاد أم لا؟"
- "لنر أسنانها"

كانوا يجرونهم من أذن واحدة ويوشم اسم المشتري على الخدود أو الجبهة ويصبحون أدوات عمل في المزارع وأحواض الصيد<sup>33</sup> والمناجم أو أسلحة في الحرب. يصبحون قابلات وظئرات يمنحن الحياة ليأخذها الجلادون وحافرو القبور، يصبحن مغنيات وجسدا للفراش.

تقع زريبة العبيد إلى اليمين في وسط ليما إلا أن مجلس المدينة صوّت لتوه من أجل إزالتها، سيوضع السود المعروضون للبيع في محجر للرقيق يقع على الجانب الآخر من نهر ريبال قرب مسلخ سان لازاور، هناك سيصبحون بعيدين عن المدينة بحيث لا تحمل الرياح أبخرتهم المتعفنة والمعدية.

## 1624: ليما

### أسود يسوق أسود

عُرِض ثلاثة عبيد أفارقة في شوارع ليما بأيدي موثقة وأعناق مقيدة بالحبل. كان الجلادون، الذين هم أيضا سود، يمشون خلفهم وبعد كل بضعة خطوات تنهال عليهم مائة ضربة سوط وحين يسقطون تُخصص لهم ضربات أخرى.

أصدر رئيس البلدية الأمر، لقد أدخل العبيد ورق لعب إلى مقبرة الكاتدرائية وحوّلوها إلى مقمرة مستخدمين أحجار القبور طاولات. وكان رئيس البلدية يعرف أن هذا الدرس سيكون عبوة لجمع السود الذين أصبحوا وقحين وكثيري العدد ومدمني شغب.

استلقى الثلاثة أخيراً في فناء منزل سيدهم، ظهورهم لحم ممزّق، عووا حين غسلت جراحتهم بالبول والرّوم.

<sup>33</sup> ظئرات: مرضعات لغير أولادهن.

لعن مالكهم رئيس البلدية، هز قبضتيه وأقسم بأن ينتقم، لأنه لا يجوز لأحد أن يلعب ألعاباً كهذه بملكية بشر آخرين.

## 1624: ليما

### الشیطان يعمل

شع القمر متألقاً حين أعلنت أجراس الكنيسة عن الساعة الواحدة، غادر خوان موغروفيوخو سيردا البار وسار في ليل ليما المعطر ببراعم أشجار البرتقال.

في تقاطع شارع باركن سمع أصواتاً غريبة أو أصداء، فتوقف وأصغى.

قال أسموديو إنه انتقل عدة مرات منذ أن أبحرت سفينته من إشبيلية. لدى وصوله إلى بورتوبيللو سكن في أجساد تجار عديدين يسمون الخدع القذرة صفقات، والسرقه عملاً، وأداة فتح الأقفال عصا للقياس، وعاش في بنما في رجل أعمال دجال باسم مزيف كان يحفظ غيباً كيف يتصرف كدوق ومركيز.

- "أخبرني يا أسموديو. هل ينتبه هذا الشخص لقواعد الطبقة الأرستقراطية الحديثة؟"

- "جميعهم يا أمونيو. كان يكذب، ولم يدفع أبداً ديونه، ولم يزعج نفسه بالوصية السادسة، كان يستيقظ متأخراً دائماً ويتحدث أثناء القداس ويشعر بالبرد طوال الوقت. فكر فقط كم هو قاس أن يشعر المرء بالبرد في بنما، والتي قامت بمحاولة جيدة لتصبح جحيمنا، في بنما تتعرق الأحجار، والناس يقولون: أسرعوا بتناول الحساء، سترداد سخونته."

لم يستطع دون خوان دي موغروفيوخو الدائخ أن يرى أسموديو أو أمونيو اللذين كانا يتحدثان من مكان ما، لكنه عرف أن أسماء كهذه لا تخطر في حيوات القديسين، ورائحة الكبريت التي لا

يمكن أن يخطئ في معرفتها المرء كافية لفهم فحوى هذه المحادثة البليغة، أسند دون خوان ظهره على الصليب الطويل في تقاطع شارع باركن الذي سقط ظله على الشارع ليبقى بعيداً عن أمونيو وأسوديو، رسم إشارة الصليب واستحضر سرية من القديسين لتحميه وتنقذه، إلا أنه لم يستطع أن يصلي لأنه يريد أن يصغي وأن لا يفقد كلمة واحدة من الحديث.

قال أسوديو أنه غادر جسد ذلك السيد ليدخل إلى كاهن مرتد عن دينه وبعد ذلك وفي الطريق إلى البيرو وجد سكناً في أحشاء سيدة ورعة مختصة ببيع الفتيات.

- "هكذا وصلتُ إلى ليما ونصحتك حول العمل في متاهاتها كانت مفيدة جداً. قل لي ماذا يحدث في هذه البراري... هل تُجمع الثروات هنا بشكل شريف؟".

- "لو كانت تُجمع بشكل شريف، ستكون الجحيم أقل ازدحاماً".

- "ما هي أفضل طريقة لإغراء رجال الأعمال"

- "ضعهم في العمل واتركهم فيه فحسب"

- "هل يحب الناس هنا أو يحترمون أسيادهم؟"

- "الخوف"

- "إذاً ماذا عليهم أن يفعلوا ليستمروا"

- "لا يستحقون ذلك"

استحضر دون خوان عذراء أنتوش وبحث عن المسبحة التي نسيها وأمسك بمقبض سيفه بينما استمرت الأسئلة وأجوبة أمونيو السريعة.

- "أخبرني هل يرتدي ثياباً جيدة أولئك الذين يفترضون أنهم أفضل الناس؟".

- "يستطيعون ذلك نظراً لأنهم يجعلون الشياطين منشغلين طوال العام"

- "هل يتدمرون كثيراً؟"

- "في ليما الوقت دائماً مناسب للتذمر"
  - "والآن أخبرني لماذا يغيرون بعض الأسماء؟"
  - "أولاً، ليتجنبوا قول الحقيقة، وثانياً كي لا يسمي أحد القديسين"
- تهاجم نوبة سعال دون خوان في تلك اللحظة. سمع صرخات:  
 "لنذهب! لنهرب!" وبعد صمت طويل خلص نفسه من الصليب الذي  
 حماه، تحرك بركبتين مرتجفتين نحو شارع ميرشانت وبوابات  
 بروفنسيا، لم يتبق من الرجلين المهذارين نفخة دخان واحدة.

## 1624: إشيلية

### الفصل الأخير من حياة النذل

عكس النهر وجه الرجل الذي يستنطقه.

- "ماذا أفعل ببطلتي؟ هل أقتله؟"

رقص حذاؤه الضيق المتدلي من الرصيف الحجري فوق نهر الوادي  
 الكبير. كان هذا الرجل يمتلك عادة هزّ قدميه حين يفكر.

- "يجب أن أقرّر. أنا وحدي الذي خلقتة وجعلته ابن حلاق  
 وساحرة وابن أخ جلد، توجّهت أميراً على العالم السفلي للقمل  
 والشحاذين وعلافاً للمشنقة"

لمعت نظارته على المياه المتدرجة نحو الخصرة وركزت على الأعماق  
 حين تفوه بأسئلته: "ماذا أفعل؟ علمته أن يسرق الدجاج ويستدر  
 الصدقات باسم جراح المسيح، تعلم مني الغش في لعبة الطاولة والورق  
 والمبارزة. بفنوني أصبح دون جوان الراهبات ومهرجا مشهورا".

جعد فرانسيسكو دي كوفييدو أنفه ليجعل نظارته مرتفعة إلى  
 الأعلى: "إنه قراري ويجب أن أتخذه. لم توجد أبداً رواية في تاريخ  
 الأدب لم تحتو فصلاً أخيراً".



مد عنقه باتجاه السفن التي كانت تخفض أشرعتها وهي تقترب من أرصفة المرفأ.

- "لم يعان أحد منه كما عانيت، ألم أجعل جوعه جوعي حين كانت معدته تئن، وحين لم يكن بوسع المستكشفين أنفسهم أن يعثروا على عينين في رأسه؟ إذا كان يجب أن يموت دون بابلو، ينبغي أن أقتله. إنه مثلي، فلذة بقيت من السنة اللهب".

حدق من بعيد شاب رث الملابس بالسيد الذي كان يحك رأسه متكئا فوق النهر، قال الصبي لنفسه: "لابد أنه عفريت عجوز، عفريت عجوز مجنون يحاول أن يصطاد بدون سنارة".

قال كويفيدو لنفسه: "هل أقتله؟ ألا يعرف الجميع أن تحطيم المرايا يجلب النحس؟ هل أقتله؟ لنفترض أنني جعلت الجريمة عقوبة عادلة لما اقترفه في حياته الشريرة؟ سيكون حصة صغيرة للمفتش ورجال الرقابة، إن مجرد التفكير بمتعهم يلوي معدني".

بدأ تحليق النوارس. رست سفينة قادمة من أميركا، قفز كويفيدو ماشيا، تبعه الصبي مقلدا مشيته المتقوسة.

توهج وجه الكاتب، لقد عثر على ظهر السفينة على القدر الملائم لشخصيته؟ سيرسل النذل دون بابلو إلى الأنديز، أين في غير أميركا يمكن أن تنتهي حياته؟ أصبح لرؤيته خاتمة، وهاهو كويفيدو يمشي شاردا في مدينة إشبيلية حيث يحلم الرجال بالرحلات والنساء بالعودة إلى الأوطان.

## 1624: مدينة مكسيكو

### نهر من الغضب

يقذف الحشد الذي يغطي الساحة الرئيسية والشوارع المجاورة للعنات والأحجار على قصر نائب الملك، تتكسر أحجار الأرصفة

والكلمات التي تتهمه بالخائن واللص والكلب ويهوذا على المصارع والمداخل محكمة الإغلاق. تختلط الشتائم المنصبة على نائب الملك مع صيحات الابتهاج بكبير الأساقفة الذي عزله من الكنيسة لأنه يضارب بخبز هذه المدينة. كان نائب الملك يخزن لبعض الوقت الذرة والقمح في مخازنه الخاصة ويلعب بالأسعار. يغلي الحشد: "اشنقوه، اضربوه، اضربوه حتى الموت". يطالب البعض برأس الضابط الذي دنس الكنيسة بجره لكبير الأساقفة خارجها، آخرون يريدون أن يعدموا ميخيا الذي يرأس صفقات عمل نائب الملك، والجميع يريدون أن يشووا نائب الملك المحتكر بالزيت.

ترتفع الرماح والعصي والمطارد فوق الرؤوس وطلقات البنادق والمسدسات. ترفع أيد لامرئية راية الملك فوق سقف القصر وتعول الأبواق طالبة النجدة، لكن لا يأتي أحد لمساعدة نائب الملك المحشور في الزاوية، يغلق سادة المنطقة قصورهم على أنفسهم ويهرب القضاة والمسؤولون عبر الشقوق، ويرفض الجنود أن يطيعوا الأوامر.

لا تقاوم جدران السجن عند الزاوية الهجوم، ينضم السجناء إلى المد الغاضب. تسقط بوابات القصر وتلتهم النار الأبواب ويغزو الرعاع الغرف إعصاراً ينزع ستائر الجدران ويكسر أقفال الصناديق الكبيرة ويلتهم ما يصادفه.

يهرب نائب الملك مقنعاً كأسقف عبر قناة سرية إلى أبرشية سان فرانسيسكو.

## 1625: مدينة مكسيكو

### ما الذي تحبه في مدينتنا؟

يسلّي الأب توماس كيج الذي وصل حديثاً نفسه في منتزه الأميديا . يراقب بعينين جانتعتين السيدات وهن يتجولن في نفق بين الأشجار الطويلة. لا يوجد امرأة واحدة ترتدي شالا أو طرحة تصل إلى تحت الخصر، فمن الأفضل إظهار الأرداف المتأرجحة وتصنع المشية

الجميلة، كان يمشي وراء كل سيدة مجموعة من النساء السود والخلاسيات الجذابات تظهر أظفارهن من تقويرات فساتينهن، ومن أجل الإثارة والدعابة يثبتن أزهاراً على أحذيتهم العالية الكعب ويلففن على جباههن عصابات حريرية عليها كلمات مطرزة.

يصل القس إلى القصر محملاً على ظهر هندي.

يقدم له نائب الملك الأناناس والشوكولاته الحارة ويسأله ما الذي يحبه في المدينة.

يقاطع المضيف مديح الأب كيج للمكسيك ولنسائها وعرباتها وأزقتها قائلاً: "هل تعرف أنني أنقذت حياتي بشعرة؟ وشعرة من رجل أصلع في ذلك..."

تنتبثق من فم نائب الملك جداول أخبار عن انتفاضة العام الماضي.

بعد الكلام عن الدخان الكثير والدم وبعد صحنين آخرين من الشوكولاته يعرف الأب كيج أن نائب الملك أمضى عاماً في أبرشية سان فرانسيسكو، وما يزال غير قادر على الخروج من القصر خوفاً من أن يجازف بتلقي وابل من الأحجار. على أية حال، إن كبير الأساقفة المرتد يعاني من عقوبة النفي في زامورا البائسة والبعيدة وأرسل بعض القسيسين للتجذيف في السفن وكان شفق ثلاثة أو أربعة من المشاغبين كافياً لسحق وقاحة العامة.

يقول نائب الملك: "لو كان الأمر بيدي لشنق الجميع". ينهض عن كرسيه ويعلن: "الجميع! جميع سكان هذه المدينة اللعينة". يعود إلى الجلوس ثانية. ثم يتنفس، ويقول: "إن هذه الأراضي جاهزة دائماً للتمرد، لقد نظفت شوارع المكسيك من العصابات".

يضيف بثقة وهو يطمع عنقه: "أتعرف شيئاً ما؟ أبناء الإسبان، الذين ولدوا هنا... من كان على رأس التمرد؟ لقد كانوا هم الكريبوليون! يعتقدون أنهم يملكون البلاد ويريدون أن يحكموا.."

يحدق الأب كيج بعيني متصوف إلى الشمعدان الكريستالي الذي يهدد بظلم رأسه ويقول: "لقد أسأؤوا إساءة مجحفة بحق الله... إنها سدوم ثانية... لقد رأيتها بأعينها هذا المساء.. إنها متعة أرضية..."

يهزّ نائب الملك رأسه مؤكداً.

يمرّ القس جملة: "سيقطعون عاجلاً كالعشب، سيذبلون كما تذبل الأعشاب الخضراء".

يتناول رشفة الشوكولاته الأخيرة.

يضيف وهو يضع الكوب الصغير في صحنه بهدوء: "هذا ما ينصّ عليه المزمور السابع والثلاثين".

## 1625: ساماياك

### رقصات هندية مُنعت في غواتيمالا

أعلن القساوسة أنه لم يبق ذكرى أو أثر للطقوس والعادات القديمة في إقليم فيراباز، إلا أن أصوات المنادين في البلدة بحثت وهي تعلن تعاقب مراسيم الحظر.

أصدر خوان مالدونادو القاضي الملكي قوانين جديدة ضد رقصات مؤذية لصيادي الهنود ولحفظ القانون المسيحي الذي يقرّون به لأن رقصات كهذه تحضر إلى الذهن تضحيات قديمة وطقوساً مسيئة لإلهنا. إن الهنود يبذرون الأموال على الريش وأنية الشرب التي تمنعهم من العمل في المزارع ومن دفع الجزية والحفاظ على منازلهم.

إن أيّ شخص يرقص رقصة "التن" سيجلد مائة جلدة. في رقصة "التن" يبرم الهنود عقداً مع الشيطان. إن "التن"، أو "رابينال آشي"، هي رقصة خصب ممسحة بالكلمات والأقنعة. و"التن" هو أيضاً جذع شجرة أجوف ترافق قرعه أصوات أبواق طويلة صدّاحة، حين تستمر مسرحية ابن الكويتشيين، سجين الرابيناليين يرقص المنتصرون ويغنون تمجيذا لعظمة المهور الذي يودع أرضه توديعاً مشرفاً ويصعد إلى المحرقة حيث سيقدّم كأضحية.

# 1626: بوتوسي

## إله غضب

تطوفنت البحيرة، هدمت السدّ وغزت المدينة، حطّم الطوفان أشياء كثيرة إلى أشلاء، جرّت البغال أشلاء البشر خارج الوحل . انتهى مزيج من الإسبان والكريبوليين والهجن والهنود في قبور مشتركة، بدت منازل بوتوسي جثثا محطمة.

لم يهدأ غضب بحيرة كاريكاري إلى أن نظّم القساوسة عرضاً لمسيح الصليب الحقيقي، هدأت المياه حين رأت الموكب يقترب، سمعت هذه المواعظ نفسها من جميع منابر البيرو في تلك الأيام: "أيها المذنبون، إلى متى ستلعبون ألعابكم مع رحمة الرب؟ إن صبر الرب لا نهائي. إلى متى أيها المذنبون؟ ألم تكفكم التحذيرات والعقوبات؟".

لم يكن انفجار بحيرة بوتوسي شيئاً جديداً في هذه البقاع العريضة الخصبية، سقطت منذ خمسة وأربعين عاماً صخرة كبيرة على مجموعة من السحرة الهنود في آتشوكالا التي تقع على بعد بضعة فراسخ من مدينة لاباز، كان الناجي الوحيد هو الزعيم الذي أصيب بالخرس وروى القصة بالإشارات، دفنت صخرة أخرى مجموعة من الهراطقة الهنود بعد وقت قصير في ياناأوكا قرب كوزكو، بعد عام انفتحت الأرض وابتلعت الرجال والمنازل في آركويا، وبما أن المدينة لم تتعلم من هذا الدرس أظهرت الأرض مخالبتها بعد فترة وجيزة ولم تترك شيئاً منتصباً سوى أبرشية سان فرانسيسكو. وفي عام 1586 اجتاح المحيط مدينة سان مراكوز دي آريكا وجميع مرافئها وشواطئها .

حين بدأ القرن الجديد، ثار بركان آبيناس، كان غضبه عظيماً إلى درجة أن رماده عبر سلاسل الجبال برا ووصل إلى شواطئ نيكاراغوا بحرا.

ظهر نجمان محذران في هذه السماء عام 1617 ومكثا رافضين  
الذهاب، أخيراً تحركا بعيداً. شكراً للأضحيات ولوعود المؤمنين في  
جميع أنحاء البيرو الذين صلوا التاسوعية<sup>34</sup> من دون توقف.

## 1628: شيباس

### الشوكولاته والأسقف

لا يضع فلفلاً أسود كالذين يعانون من مشاكل في الكبد، لا يضيف  
الذرة لأنها تسبب انتفاخاً في البطن، يضيف بسخاء القرفة التي  
تساعد على إفراغ المثانة وتقوي البصر والقلب لا يستثني الفلفل الحار  
المطحون جيداً، يضيف ماء زهر البرتقال والسكر الأبيض ومسحوقاً  
شجريا ليمنح اللون، ولا ينسى أبداً حفنة يانسون وحفنتين من  
الفانيلا ومسحوق زهرة الإسكندرية.

يعبد الأب كيج الشوكولاته المزبدة المحضرة جيداً؛ إذا لم تغمس  
الحلويات والمرزبانية<sup>35</sup> في الشوكولاته لا تكون لها نكهة، يحتاج  
كوبا من الشوكولاته في منتصف الصباح ليخرج، وكوبا آخر بعد  
العشاء لينهض عن الطاولة وآخر ليمتدّد في الليل ويصدّ النعاس.

منذ أن وصل إلى شيباس لم يلمسها، يحتجّ بطنه، إلا أن الأب  
توماس يفضل أن يعيش بشكل سيء بين الدوخات والإغماءات إذا  
كانت تجنبه القدر الذي قتل الأسقف بيرناردو دي سالازار.

حتى وقت متأخر، كانت نساء هذه المدينة يذهبن إلى القُدّاس مع  
مجموعة من الخادמות والوصيفات، اللواتي بالإضافة إلى حمل الوسائد  
المخملية كن يحملن كانوناً وأداة للتسخين وكأساً لتحضير الشوكولاته.  
ولأن للنساء معداً حساسية، لا يتحمّلن عناء الصلاة بدون الأكسير  
الساخن الذي ما يزال جزءاً من القُدّاس الأكبر. هكذا كان الأمر إلى أن

<sup>34</sup> التاسوعية: عبادة تستمر تسعة أيام.

<sup>35</sup> المرزبانية: حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض.

قرّر الأسقف بيرناردو دي سالازار أن يحظر هذه العادة بسبب الفوضى التي سببها في الكنيسة.

انتقمت السيدات، ومات الأسقف في صباح أحد الأيام في مكتبه. وعند قدميه كانت قطع الكوب الذي قدمه أحد ماله، تستلقي مبعثرة.

## 1628: مدريد

### دم أزرق للبيع

وقع الأسطول الإسباني في يد القرصان بيت هن مقابل شاطئ ماتنزاس في كوبا، ستذهب كل الفضة القادمة من المكسيك والبيرو إلى هولندا، رُفِع هن في أمستردام إلى أميرال فخري وحُضِر له استقبال كأنه بطل قومي، من الآن فصاعدا سيغني الأطفال الهولنديون:

بيت هن، بيت هن

اسمك قصير

لكن شهرتك طويلة.

في مدريد تُحكّ الرؤوس، لم يبق سوى ثقب في الكنز الملكي.

يقرّر الملك من ضمن إجراءات الطوارئ الأخرى أن يعرض في السوق ألقاب النبلاء للبيع، تمنح النبالة للأعمال المميّزة، وما هو العمل الأكثر تميّزا من الحصول على المال لدفعه من أجل ذلك؟ يستطيع أيّ عامي أن يستيقظ في الصباح نبيلاً له نسب عريق بأربعة آلاف دوقية والذي كان البارحة ابن يهودي أو حفيد مسلم يستطيع أن يبدأ يومه بدم نقي.

إلا أنه يمكن الحصول على الألقاب الثانوية بثمن أقل، يوجد في قشتالة كثير من النبلاء الذين سيخرجون رافعين مؤخراتهم إلى

الأعلى إذا لم تَغَطِّهِمْ أُرْدِيَتَهُمْ، سادة عظيمة وهمية يعيشون وهم يزيلون أوساخاً غير مَرثِيَّةٍ عن جركيناتهم<sup>36</sup> وشواربهم: إنهم يقدمون للذي يدفع ثمننا أعلى حق استخدام كلمة "سيد" والتي هي كل ما تبقى لديهم.

أولئك الذين فقدوا مكانتهم في العالم يشتركون مع أولئك الذين يركبون عربات فضية بالإحساس بالشرف والحنين إلى العظمة وبالرعب من العمل - والتسول أقل قيمة - وباحتقار الاستحمام الذي هو عادة المغاربة. والاستحمام غريب عن الدين الكاثوليكي ويغضب محاكم التفتيش.

## أغنية عن اليد الأندية تغنى في إسبانيا

يذهب المرء إلى روندا من أجل الإِجَاص

ومن أجل التفاح إلى أرغوناليس

يذهب إلى الأنديز ليجمع نقوداً.

وإلى سييرا لارتكاب الحماقات.

ذهب زوجي إلى الأنديز

لينهي بؤسه:

جاء ليخبرني أخباراً كثيرة

وبأشياء ثمينة قليلة من أجل الصرف.

ذهب زوجي إلى الأنديز

وأحضر لي خنجراً

عليه نقش يقول:

<sup>36</sup> جركينة: سترة طويلة ضيقة لا كمين لها.



إذا أردت أن تأكل يجب أن تعمل .  
يذهب الرجال إلى الأنديز  
من أجل قبرة ذهبية  
إنهم يمتلكون الأنديز ها هنا  
إذا أرادوا فقط أن يعملوا .

## 1629: لاس كانكريخيراس

### باسكونان

يصرّ رأسه ويتألم، ممدّداً في الوحل وسط كومة من الموتى، فتح نونيز دي بينيدا عينيّه: العالم لوحة من الدم والوحل ملطخة بالمطر الذي يدوم ويرتدّ ويطرطش ويرتدّ.

رمى الهنود أنفسهم عليه، مزقوا درعه وخوذته الحديدية التي بعجتها الضربة التي صرعته ثم عرّوه، صُلب فرانسيسكو قبل أن يقيدوه إلى جذع شجرة.

سفعت العاصفة وجهه، توقف العالم عن الدوران، أخبره صوت من داخله عبر صرخات الأروكانيين: "أنت في مستنقع في إقليم تشيلان، في أرضك، تشيلي. هذا المطر هو الذي رطب بارودك وهذه الريح هي التي أطفأت فتائلك، لقد خسرت، أصغ لهؤلاء الهنود الذين يتجادلون حول طريقة موتك".

تمتم فرانسيسكو صلاته الأخيرة.

فجأة تطايرت مجموعة من الريش الملون عبر المطر. فتح الأروكانيون طريقاً للحصان الأبيض الذي أخرج من منخرينه نارا متفجرة ومن فمه زبداً، همز الخيال المقنع بخوذة حصانه بشدة .

وقف الحصان على قائمته أمام موليكان المنتصر، خيم الصمت على الجميع.

فكر فرانسيسكو: "إنه الجلاد، انتهى كل شيء الآن".

قال الخيال المريح شيئاً ما لموليكان، لم يسمع فرانسيسكو إلا صوت المطر والريح، ولكن حين اختفى الخيال فك موليكان وثاق الأسير ونزع رداءه وغطاه به.

بعد ذلك عدت الأحصنة إلى الجنوب.

## 1629: ضفاف نهر البيو - بيو

### بوتابيتشون

شاهدوا حالاً حشداً يتقدّم من ناحية الجبال البعيدة. نخس موليكان حصانه وتقدّم ليلتقي بالزعيم بوتابيتشون.

كان مع المجموعة القادمة من سلاسل الجبال أسير يتعثّر بين الأحصنة مقيداً من عنقه بحبل .

نصب بوتابيتشون رِمحه الثلاثيّ الرؤوس على التلة المسطّحة، فك وثاق الأسير ورمى غصناً على قدميه.

- "سمّ القادة الثلاثة الأكثر شجاعة في جيشكم".

تعلمت الجندي: "لا أعرف"

أمر يوتابيتشون: "سمّ واحداً"

- "لا أذكر"

- "سمّ واحداً"

سمى والد فرانسيسكو

- "سمّ آخر"

سمى آخرَ. وأمر بأن يكسر غصناً مع كل اسم، راقب فرانسيسكو  
المشهد وأسنانَه تصطك، سَمَى الجندي اثني عشر قائداً، حمل اثني  
عشر غصناً في يده.

- "احفر حفرة الآن"

رمى الأسير الأغصان في الحفرة واحداً بعد آخر مكرراً الأسماء.

- "غطها بالتراب"

قال بوتابيتشون بعد ذلك: "لقد دُفِن القادة الشجعان الاثنا عشر الآن؟".

ضرب الجلاد الأسير بهراوته المليئة بالمسامير. انتزعوا قلبه،  
ودعوا موليكان إلى تجرع جرعة الدم الأولى. ارتفع دخان التبغ في  
الجو حين مُرَّ القلب من يد إلى أخرى.

بعد ذلك قال بوتابيتشون السريع في الحرب البطيء في الكلام  
لموليكان: "جننا لنشتري القائد الموجود معك.. نعرف إنه ابن ألفارو،  
الزعيم الكبير الذي جعل أرضنا ترتجف"

قدّم له إحدى بناته ومائة خروف قشتالي وخمس لامات وثلاثة  
أحصنة وسروجاً وعدة عقود من الحجر الثمين. سيكفي هذا لشراء  
عشرة إسبان.

ابتلع فرانسيسكو لعبه، وحَدَّق موليكان بالأرض، بعد برهة قال:  
"يجب أن آخذه إلى أبي أولاً وإلى الزعماء الآخرين لإقليمي ريبوكيوروا.  
أريد أن أريهم غنيمة شجاعتني".

قال بوتابيتشون: "سننتظر".

فكر فرانسيسكو: "إن حياتي هي فقط موت بعد آخر". طنّت أذناه.

## 1629: ضفاف نهر امبريال

موليكان

- "هل استحممتَ في النهر؟ اقترب من النار أنت ترتجف. اجلس واشرب، تعال أيها القائد، هل أنت أصم؟ وتحدث لغتنا كواحد منا؟... كل واشرب، أمامنا رحلة طويلة، ألا تحب الشيكيا؟ ألا تحب لحمنا غير المملح؟ طبولنا لا ترقص قدميك؟ أنت محظوظ أيها القائد الولد، أنتم بشر يحرقون وجوه الأسرى بالحديد الذي لا يمحي أثره. أنت سيء الحظ أيها القائد الولد؛ إن حريتك الآن ملكي، أنا آسف عليك، أشرب، اشرب، انزع هذا الخوف من قلبك لن أبيعك أبداً، إن قدرك في يد إله العالم والإنسان. إنه عادل، اشرب أكثر؟ قبل أن تشرق الشمس سنكون في ريبوكيورا، أريد أن أشاهد والدي وأحتفل. إنه عجوز، عاجلاً ستذهب روحه لتأكل البطاطا السوداء هناك خلف القمم الثلجية. أسمع وقع خطى الليل؟ أجسادنا نظيفة وقوية للبدء بالرحلة. الخيول تنتظرنا، قلبي يخفق بسرعة أيها القائد الولد. أسمع قرع طبول قلبي؟ أسمع موسيقا سعادتِي؟"

## 1629: إقليم ريبوكيورا

لتقول وداعاً

قمرًا بعد قمر مر الزمن، سمع فرانسيسكو وتعلم الكثير في سنوات أسره، لقد تعلم، ويوما ما سيكتب الجانب الآخر من هذه الحرب التشيلية؛ هذه الحرب العادلة التي شنها الهنود ضد الذين خدعهم وأخطؤوا معهم وسرقوهم وفعلوا ما هو أسوأ من ذلك.

صلى فرانسيسكو في الغابة راکعاً أمام صليب مصنوع من الأغصان . سيذهب الليلة إلى حصن ناسيمينتو، سيستبدل هناك بثلاثة زعماء آروكانيين أسرى، سيحرسه في الرحلة مائة رمح.

كان يسير نحو المقرّ، تنتظره في أجمة الأشجار دائرة من المعاطف الرثة والوجوه الموحلة، تمر الفراولة أو شيكا التفاح من فم إلى آخر.

تلقي المجلّ تيريوبيلان غصن القرفة الذي هو الكلمة ورفع ثم مدح طويلاً كلا من الزعماء الحاضرين. مدح موليكان، المجارب الباسل الذي ربح أسيراً مهماً في المعركة وعرف كيف يأسره حياً.

قال تيريوبيلان: "حين حملنا سلاحنا ضدّ الطغاة الإسبان الذين اضطهدونا وأذلونا فقدت شعوري بالعطف نحوهم فقط في المعركة، لكن حين رأيتهم كأسرى فيما بعد سبّب لي هذا ألماً وحزناً عظيماً، وما ألم روحي هو أنني أدركت أننا في الحقيقة لانكرهم كأشخاص، إلا أننا نكره جشعهم وقسوتهم وغرورهم".

التفت إلى فرانسيسكو قائلاً: "وأنت أيها القائد الصديق والرفيق الذي سيرحل بعيداً ويتركنا متألّمين وحزينين بدون عزاء لا تنسنا".

أسقط تيريوبيلان غصن القرفة في وسط الدائرة ثم هزّ الآروكانيون الأرض بضربات أقدامهم.

## 1630: موتوسينتل

### لن يخونوا موتاهم

كان فراي فرانسيسكو برافو يعظ في قرية مونو سينتل لمدة عامين تقريباً. أخبر الهنود في أحد الأيام أنه استدعي إلى إسبانيا، قال إنه يرغب بأن يعود إلى غواتيمالا ويبقى فيها إلى الأبد مع قطيعه الذي يحبه إلا أن رؤساءه في إسبانيا لن يسمحوا له.

قال فراي فرانسيسكو: "إن ما يمكن أن يقنعهم هو الذهب فقط".

قال الهنود: "لا نملك ذهباً".

صحح القسيس: "نعم تملكون... أعرف أن هناك ذهباً مخبأً في موتوسينتل".

شرحوا له: "ليس هذا الذهب لنا؛ إنه لأسلافنا، نحن نعنتي به فقط، إذا فقد منه شيء، ماذا سنقول لهم حين يعودون إلى الحياة؟".

- "أعرف فقط ماذا سيقول رؤسائي في إسبانيا؛ سيقولون: إذا كان هنود القرية التي تريد أن تمكث فيها يحبونك، فلماذا أنت فقير؟".

اجتمع الهنود ليناقدشوا المسألة.

في أحد أيام الأحد، عصبوا عيني فراي فرانسيسكو وداروا به إلى أن داخ. ذهب الجميع خلفه من الشيخ الأكبر إلى الرضيع، حين وصلوا إلى مؤخرة الكهف أزاحوا العصابة عن عينيه.

انبهر القس، وتألّت عيناه من لمعان الذهب، كان يوجد ذهب أكثر من كنوز ألف ليلة وليلة ولم تعرف يداه المرتجفتان أين تبدآن. حوّل رداءه إلى حقيبة وحمل ما قدر عليه، بعد ذلك أقسم بالله وبالكتب المقدسة أنه لن يكشف السرّ أبداً، ثم منحوه بغلا وكعكات ذرة كزادٍ في رحلته.

بعد مرور فترة من الزمن تلقى القصر الملكي في غواتيمالا رسالة من فراي فرانسيسكو برفو أرسلها من ميناء فيراكروز، قال إنه يؤدي واجبه رغم أن هذا يؤلم روحه بأن يقدم خدمة للملك تتعلق بقضية مهمة ومميّزة مرتبطة بنوع من العمل. وصف الموضع المحتمل للذهب: "أعتقد أنني ابتعدت عن القرية قليلاً، كان هناك جدول يجري في جهة اليسار". وضع في الظرف بعض العينات ووعد أن يستخدم ما تبقى من أجل روح قديس في ملّقة.

اندفع القضاة والجنود على ظهور خيولهم إلى موتو سينتل، طلب القاضي خوان مالدونادو الذي يرتدي رداء أحمر ويحمل صولجاناً أبيض، من الهنود أن يسلموا الذهب.

وعدهم وضمن لهم المعاملة الحسنة.

هدّهم بالعقوبات، سجن بعضهم، عدّب البعض الآخر بأدوات تعذيب خشبية، أجبر البعض على الصعود على درجات منصة الإعدام.

ولم يحظ بشيء.

## 1630: ليما

### ماريا، ملكة ظهور السفن

قالت ماريا ديل كاستيو وهي تطلق تنهيدة: كل يوم تحدث مشاكل كثيرة ولا يأتي زوج. يُقدّم عند قدميها عامل المسرح والملقن والمثلة النجمة العزاء ويمنحونها النسائم من مراوحهم.

اعتقل حراس محكمة التفتيش خوان من بين ذراعي ماريا في الغسق المتلبّد وزجوه في السجن لأن الألسنة المسمومة قالت إنه قال بينما كان يستمع إلى الإنجيل: "أوه... كل ما يوجد فيه هو الحياة والموت".

قبل بضع ساعات، في الساحة الرئيسية، وفي الشوارع الأربعة التي تؤدي إلى زاوية التاجر، أعلن الزنجي لازارو أوامر نائب الملك الجديدة بخصوص المسارح.

أمر نائب الملك الكونت تشينشون بأن يفصل حائط من الطوب النساء عن الرجال في المسرح تحت طائلة العقوبة إذا جلس أي شخص في منطقة الجنس الآخر. يجب أيضاً أن تتوقف المسرحيات الكوميديّة في وقت أبكر حين تقرع الأجراس من أجل الصلاة ويجب أن يغادر الرجال والنساء من أبواب مختلفة كي لا يتم ارتكاب اعتداءات خطيرة ضدّ الربّ، أبيننا، كما يحدث غالباً في ظلام المعبر الضيق. وقرّر نائب الملك أنه إذا لم يكن هذا كافياً فيجب أن يُخفض سعر البطاقات.

صرخت ماريا : "لن ينال مني أبداً، مهما حاصرني لن ينال مني".

حافظتُ ماريا ديل كاستيو، الزعيمة العظيمة للمسرح الكوميدي في ليما على حيويتها وجمالها اللذين جعلها مشهورة. وما تزال بعد ستين عاماً تسخر من المحجبات اللواتي يظهرن عينا واحدة. وبما أن عينيها جميلتان فإنها تنظر وتغوي وتخيف بوجهها المكشوف. كانت طفلة تقريبا حين اختارت هذه المهنة السحرية، وكانت تسحر الناس من على مسرح ليما منذ نصف قرن. أوضحت أنها حتى لو أرادت فإنها لا تستطيع أن تحوّل المسرح إلى دير لأن الله لن يتزوجها بعد ثلاث زيجات استمتعت بها بشكل كامل.

رغم أن المفتشين جرّدها من زوجها ورغم أن مراسيم الحكومة تحاول إخافة الجمهور، أقسمت ماريا أنها لن تنام مع نائب الملك.  
- "أبداً، أبداً".

ضدّ الجحيم والمياه العالية وحيدة وبنفسها واصلت تقديم أعمالها الجريئة في مسرحها الكوميدي خلف أبرشية القديس أوغسطين، بعد وقت قصير قدمت مسرحية الراهبة الملازمة التي كتبها الإسباني الساخر المشهور خوان بيريز دي مونتالبان وأنتجت مسرحيتين جديدتين لاذعتين لكي يرقص الجميع ويغنوا ويجيشوا بالعواطف في هذه المدينة المضجرة التي لا يحدث فيها أي شيء.

## 1631: غواتيمالا القديمة

### أمسية موسيقية في دير كونسيبسيون

غنت جوانا وهي تعزف على العود في حديقة الدير. ضوء أخضر، نسيم أخضر، كان الهواء ميتاً إلى أن لمستته بكلماتها وموسيقاها.

جوانا ابنة القاضي مالدونادو الذي يوزع الهنود على المزارع والمناجم والمشاغل، كان مهر زواجها ليسوع ألف دوقية وستة عبيد



سود كُرسوا لخدمتها في الدير. حين تغني جوانا كلماتها وكلمات الآخرين يصغي العبيد الذين يجلسون بعيداً منتظرين.

لا يستطيع الأسقف الجالس أمام الراهبة أن يسيطر على عينيه. ينظر إلى رأس جوانا المنحني فوق المزمار، إلى حنجرتها العارية، إلى فمها المتوهج الفاغر ويأمر نفسه بأن يلزم الهدوء. إنه مشهور بأنه لا يغير تعابير وجهه أبداً حين يمنح قبلة أو عزاء، إلا أن هذا الوجه الثابت يرتدي الآن تقطبية. يلتوي فمه ويرف جفناه، يبدو نبضه الصارم غير منسجم مع اليد التي تحمل كأس خمرة وهي مرتجفة.

كانت الألحان، مدائح الخالق أو اتهامات التجديف، تصعد بين الأوراق. في الخلف، ينتصب بركان الماء الأخضر. يود الأسقف أن يركز على حقول الدرة والحنطة والينابيع التي تتدفق على المنحدرات.

ذلك البركان يأسر المياه، كل من يقترب منه يسمع هيجانات كما يحدث في إناء ماء يغلي.

كانت آخر مرة تقياً فيها منذ أقل من قرن فأغرق المدينة التي أسسها بدرودي ألفارادو في سفوحه. هنا ترتجف الأرض في كل صيف واعدة بالغضب، هنا تعيش المدينة في قلق وتوتر بين بركانين يقطعان نفسها؛ واحد يهدد بالطوفان والآخر بالجحيم.

خلف الأسقف، يقع البركان الناري مواجهاً للبركان المائي. يمكن أن يقرأ المرء على ضوء ألسنة اللهب الصاعدة من فمه رسالة على بعد فرسخ واحد. يسمع من وقت لآخر رعد كأنه قصف مدافع عديدة، ويقصف البركان العالم بالأحجار؛ يطلق الصخور الضخمة التي لا يستطيع أن يحركها عشرون بغلاً ويملاً السماء بالرماد، والهواء بزئج الكبريت.

يحلّق صوت الفتاة.

ينظر الأسقف إلى الأرض راغباً بأن يحصي النمل إلا أن عينيه تنزلقان على قدمي جوانا اللتين يخبئهما حذاؤها ويكشفهما بطريقة ما. تحلق عيناه فوق الجسد المتناسق الذي يخفق تحت العباءة

البيضاء بينما تستيقظ ذاكرته فجأة وتعود به إلى الطفولة، يتذكر الأسقف تلك الاندفاعات التي لا يمكن السيطرة عليها، والتي كان يشعر بها ويعض خبز القربان المقدس في منتصف القداس ويتذكر هلعه من أن ينزف ثم يبدأ بحرا من الكلمات غير المنطوقة والرسائل غير المكتوبة والأحلام التي لم تروَ أبداً.

بعد وهلة، يصدر الصمت صوته، يلاحظ الأسقف وهو يجفل أن جوانا توقفت لبعض الوقت عن الغناء واللعب، تريح المزمارة على ركبتيها وتنظر إلى الأسقف بابتسامة عريضة، بعينين لا تستحقهما حتى هي، يعوم عطر أخضر حولها.

يعاني الأسقف من نوبة سعال، يسقط اليانسون على الأرض ويؤلم يديه من التصفيق ثم يصرخ .

-“سأجعلك الأم الرئيسة للدير، سأجعلك رئيسة الدير”-

## دوبيتات شعبية للعاشق الخجول

أريد أن أقول ولا أريد  
أنا أتحدث من دون أن أنطق كلمة  
أريد أن أحبّ ولا أريد  
وأنا أحبّ من دون أن يسمعي أحد  
يعتريني ألم لا أعرف أين موضعه  
ولا أعرف سببه  
ولا أعرف متى سيشفيني منه  
شخص ما نسيت اسمه  
في كلّ مرة تنظرين إليّ  
وأنا إليك

بعيني أقول  
ملا أقوله  
وبما أنني لا أجذك  
أبحث عن ذكراك .

## 1633: بينولا

### المجد لله في الأعالى

إن برغووث الرمل<sup>37</sup> أصغر من برغووث عادى وأشرس من نمر. يدخل من القدمين ويصرعك إذا حككت، إنه لا يهاجم الهنود بيد أنه لا يرحم الأجانب.

حاربه الأب توماس كيج لمدة شهرين، عندما احتفل بنصره على البرغووث وطد إقامته في غواتيمالا. إنه لن يتذمر من أي شيء لولا البرغووث. رحبت به القرى بالأبواق تحت مظلات من الأغصان والأزهار، امتلك ما يريده من الخدم وقاد سائس حصانه من لجامه.

جمع راتبه في الوقت المناسب فضة وقمحا وذرّة وكاكاواً ودجاجاً ودُفع له بشكل منفصل مقابل القدّاسات التي تلاها هنا في بينولا والمكسيك. هذا بالإضافة إلى عمليات التنصير والخطوبات والدفن والصلوات التي أداها رداً على دعوات لمحاربة الجراد والأوبئة أو الزلازل. وبالمقارنة مع ما يُمنح للقديسين الكثيرين الذين يرأسهم، وأولئك الذين يعملون في أثناء عيد الميلاد وعيد الفصح، يقبض الأب كيج أكثر من ألفي إسكود كل عام دون أن يقوم بأي عمل، بالإضافة إلى الخمرة والملابس مجاناً.

<sup>37</sup> برغووث الرمل: هامة من جنس دود الجين تورث لسعتها حكاكاً شديداً وتقر الجلد.

يأخذ القسيس راتبه من الجزية التي يدفعها الهنود للدون خوان ديكوزمان مالك هؤلاء الرجال وهذه الأراضي. بما أن المتزوجين فقط يدفعون الجزية، والهنود سريعون في نشر الفضيحة وفضوليون، يجبر المسؤولون الأطفال الذين هم في سن الثانية عشرة والثالثة عشرة على الزواج، ويزوجهم الكاهن بينما أجسادهم ما تزال تنمو.

## 1634: مدريد

من كان يختبئ تحت فراش زوجتك؟

قرّر المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش الذي يدقّق بمسألة نقاء الدم أنه سيجري تحقيقاً دقيقاً جداً مع موظفيه قبل أن يتزوجوا.

يجب على جميع من يعمل في محكمة التفتيش، من الحمال إلى النائب العام، إلى المعذب والجلاد والطبيب ومساعد الطاهي، أن يوضحوا نسب المرأة التي يختارونها لمدة قرنين وذلك لتجنب الزواج من المرضى.

وهؤلاء المرضى هم كل من يوجد فيه قطرات من الدم الهندي أو الأسود، أو كل من ينتمي أجدادهم أو أجداد أجدادهم إلى الدين اليهودي أو الثقافة الإسلامية أو لهم أية علاقة بأية هرطقة.

## 1636: كويتو

### النصف الثالث

أمضى الصياد الكبير ورئيس الحكومة وملك الحب وطاولة الورق والقّداس أكثر من عشرين عاما في منطقة كويتو، كان الجميع يمشون أو يركضون وفق سرعة حصانه.

اكتشف مجلس الأنديز في مدريد أنه مذنب ارتكب ستة وخمسين جنحة، إلا أن الأنباء السيئة لم تكن قد عبرت المحيط بعد. يجب أن يدفع غرامة الحانوت الذي افتتحه في الفناء الملكي لبيع الحرير والنسيج الصقيل الذي هربه، وغرامة الفضائح التي لا تحصى مع النساء المتزوجات والأرامل والعذارى وغرامة المقمرة التي افتتحها في منزله في غرفة التطريز قرب الكنيسة الصغيرة التي كان يمارس فيها عبادته كل يوم. لقد ربح دون أنطونيو دي مورغا من قلب ورق اللعب مائتي ألف بيزو هذا دون أن نحصى بطولات أصابعه الرشيقة الغشاشة (لقد حكم أنطونيو على عدد كبير من الهنود بأن يمضوا بقية حياتهم مقيدين إلى الأنوال، وذلك بسبب ديون تبلغ عشر قطع نقدية).

إلا أن قرار مجلس الأنديز لم يكن قد وصل إلى كويتو بعد: لكن هذا لم يكن الشيء الذي يقلق دون أنطونيو.

يقف في غرفته عارياً أمام المرأة المؤطرة بالذهب ويرى شخصاً آخر، ينظر إلى جسده البقري ولا يعثر عليه. كان يتدلى تحت البطن المترهل وبين الساقين النحيلتين صامتا، المفتاح الذي عرف التوافق مع أقفال أنثوية كثيرة.

يبحث عن روحه إلا أن المرأة لا تحتوي عليها. من الذي سرق النصف المقدس من الرجل الذي قدّم المواعظ للرهبان وكان أكثر قداسة من الأسقف؟ من الذي سرق بريق عينيه اللتين تشبهان عيني المتصوف؟ كان يوجد فقط ظلمة وتجاعيد فوق اللحية الشائبة.

يتقدّم دون أنطونيو دي مورغا إلى الأمام إلى أن يلمس المرأة، ويسأل عن نصفه الثالث، يجب أن تكون هناك منطقة لاذت إليها الأحلام التي حلم بها مرة ونسيها يجب أن يكون هناك مكان تستعيد فيه العينان اللتان أعطبهما النظر الكثير، ألوان العالم، وتستعيد فيه الأذنان اللتان هما الآن صماوان تقريبا ألعانه. يبحث عن ذوق لم يختف عن رائحة لم تتلاش، عن دفء تستطيع اليد أن تشعر به.

لا يعثر على أي شيء تم إنقاذه أو يستحق الإنقاذ، تعكس المرأة فقط رجلا عجوزا فارغا سيموت الليلة.

# 1637: مصّب نهر سوكري

## دييغيلو

تعلّم الأب توماس كيج منذ بضعة أيام كيف ينجو من التماسيح. إذا هربتَ من التماسيح بشكل متعرج فإنها ترتبك لأنها لا تستطيع أن تسبح إلا في خط مستقيم.

لكن لم يعلمه أحد كيف ينجو من القراصنة. هل يوجد أحد يعرف فعلاً كيف ينجو من تلك السفن الهولندية الكبيرة وهو يبحر في فرقاطة بطيئة غير مسلحة؟

تخفض الفرقاطة أشرعتها في البحر الكاريبي وتستسلم. تستلقي روح الأب كيج منبطحة أكثر انكماشاً من الأشرطة، كان يوجد معه في السفينة المال الذي جمعه في الاثني عشر عاماً التي قضاها في أميركا يحارب انتهاك المقدّسات ويسحب الموتى من الجحيم.

تأتي المراكب الصغيرة وتذهب، يأخذ القراصنة اللحم والطحين والعسل والدجاج والدهون والجلود. يأخذون تقريباً جميع الثروة التي يحملها القس من الذهب والآلئ. إلا أنه بقي شيء منها داخل المخدة لم يستولوا عليه لأنهم احترموا فراشه.

يستقبله زعيم القراصنة الخلاسيّ الجبار في حجرته. لا يقدم سوى مقعد وكأس من الروم، يتدفق عرق بارد على عنق القس ويجري على ظهره، يتجرّع جرعة سريعة. كان قد سمع عن هذا القبطان دييغيلو. يعرف أنه اعتاد أن يقوم بالقرصنة تحت أوامر المخيف بيكليك، إلا أنه الآن يشتغل لوحده بإجازة قرصنة من الهولنديين. يقولون إن دييغيلو يقتل كي لا يفشل في تحقيق هدفه.

يتوسّل القس، يتطأير اللعاب من فمه وهو يقول إنه لم يبق معه شيء سوى رذائه الذي يرتديه. يعيد القرصان ملء كأسه، ويخبر عن سوء المعاملة التي تعرّض لها حين كان عبداً لحاكم كامبيتشي.

”ما تزال أمي عبدة في هافانا. ألا تعرف أمي؟ إنها تمتلك قلباً طيباً  
يا للمسكينة - يكللك بالعار“.

يعوي القس: ”أنا لست إسبانياً؛ أنا انكليزي“. يكرر كلامه عبثاً:  
”إن بلادي ليست عدوة لك. ألا تجمع علاقة ودية بين بريطانيا  
وهولندا“.

يقول القرصان: ”اربح اليوم واخسر غداً“، يحبس في فمه جرعة  
كبيرة من الروم ويرسلها ببطء عبر حنجرتة.

يأمره وهو ينزع سترته ويكشف عن ظهره المرتفع آثار السياط:  
”انظر“.

يشكر القس الله لأنه كان يوجد صخب على ظهر السفينة يغطي  
على خفقات قلبه الوحشية.

- ”أنا إنكليزي“.

يخفق ويريد في جبهة الأب كيج بيأس، يرفض اللعاب أن يهبط  
عبر حنجرتة.

- ”خذني إلى هولندا أتوسل إليك، خذني إلى هولندا من فضلك!  
لا يمكن أن يتركني رجل كريم هكذا عارياً وبدون...“

يحرر القرصان بهزة واحدة ذراعه من أيدي القس الألف، يضرب  
الأرض بقصبة فيدخل رجلاًن. ”أخرجوه من هنا!“

يدير ظهره مودعاً، ناظراً إلى نفسه في المرآة ويقول له: ”إذا ذهبت  
إلى هافانا في أي وقت، ابحث عن أمي، اذكرني أمامها. قل لها..  
قل لها: أنا بخير“.

حين يعود إلى فرقاطته يشعر الأب كيج بتشنج في معدته، الأمواج  
تنشط والقس يلعن الذي قال هناك في جيريزديلا فورنتيز منذ اثني  
عشر عاما إن أميركا مرصوفة بالذهب والفضة وأنه عليك أن تمشي  
بحرص كي لا تدوس على الألباس.

# 1637: خليج ماساتشوسيتس

## الله رجل إنكليزي

قال الورع وراعي الأرواح جون إلر منذ بضعة أعوام إن الله رجل إنكليزي. وقال جون وينثروب مؤسس مستعمرة خليج ماساتشوسيتس إن الانكليز يستطيعون أن يستولوا على أراضي الهنود شرعياً كما فعل أبراهام مع اللواطيين؛ إن كل ما هو مشاع ليس ملكاً لأحد، إن هذا الشعب المتوحش يحكم أراض كثيرة من دون لقب أو ملكية. إن وينثروب هو رئيس البيوريتانيين الذين وصلوا في سفينة أرابيلا منذ أربعة أعوام، جاء مع أبنائه السبعة. ودع جون كوتون الحجّاج في مرفأ ساوثمبتن مؤكداً لهم أن الله سيطيّر فوق رؤوسهم ويقودهم من إنكلترا القديمة، أرض الأثام إلى أرض الميعاد.

جاء البيوريتانيون ليشيدوا قدساً جديدة على قمة هضبة. قبل الأرابيلا بعشرة أعوام، وصلت "زهرة أيار" إلى بليموث في وقت كان قد وصل فيه إنكليز آخرون جائعون للذهب إلى شواطئ فيرجينيا جنوباً. تهرب الأسر البيوريتانية من الملك وأساقفته، تخلف وراءها الضرائب والحروب والجوع والأمراض. إنها تهرب أيضاً من الخطر الذي يهدد في تغيير النظام القديم. وكما يقول وينثروب، محامي كامبردج، الذي ولد في مهد نبيل: "إن الله جلّ جلاله رتب بعنایتة الأكثر قداسة وحكمة الوضع البشري بطريقة، كما في جميع الأزمنة، تقتضي أن يكون البعض أغنياء والبعض في أعلى مراكز القوة والهيبة وأن يكون الآخرون وضعاء وخاضعين".

لأول مرة شاهد الهنود جزيرة عائمة. كانت الصارية شجرة والأشعة غيوماً بيضاء. حين توقفت الجزيرة خرج الهنود في قواربهم ليقطفوا الفراولة، إلا أنهم وجدوا الجدرى بدلا من الفراولة.

التهمت الجدرى القبائل الهندية ونظفت الأرض لرسول الله، للذين اختارهم الله، لشعب إسرائيل على رمال الأرض الكنعانية. الذين عاشوا هنا أكثر من ثلاثة آلاف عام يموتون كالذباب.



قال وينثروب: "أرسل الله الجدي ليلزم المستعمرين الإنكليز باحتلال أراضٍ أفرغها المرضُ من سُكانها".

## 1637: حصن ميستك

من وصية جون أندرهل بخصوص  
المجزرة التي ارتكبت ضد هنود بيكوت

لم يعرفوا شيئاً عن مجيئنا، سلّمنا أنفسنا لله ونحن نقترّب من الحصن وتوسّلنا طالبين مساعدته في مشروع كبير...

لم نستطع سوى أن نعجب بالعبادة الإلهية في هذا الأمر؛ إذ إن الجنود غير الخبراء في استخدام أسلحتهم أطلقوا وابلاً نارياً وكأن إصبع الله لمست الفتيل وحجر القداحة. أطلق الوابل فجراً حين كانوا نائمين فارتعبوا وصرخوا من الحزن وكان الله لم يصنع قلوب الرجال بشكل يناسب الخدمة، كان لا بد أنه ولد فيهم شفقة نحوهم. لكن بما أن كل رجل مجرد من الشفقة، تابعوا عملهم من دون عطف؛ سفحوا دم سكان بلدنا الأصليين وتعاملوا معهم بشكل بربري وذبحوا حوالي ثلاثين شخصاً. اقتربنا من الحصن حاملين سيوفا في أيدينا اليمنى وبنادقنا في اليسرى.

حرق كثيرون في الحصن وأجبر آخرون على الخروج. استقبلهم جنودنا وتسلوا بهم بحد السيف، سقط الرجال والنساء والأطفال، أما الذين نجوا فقد وقعوا في أيدي الهنود الذين كانوا في مؤخرتنا. لقد رووا ذلك بأنفسهم؛ كان يوجد في الحصن أربع مائة روحا ولم ينج أكثر من خمسة منهم من أيدينا. كان عظيماً ومحزناً بالنسبة للجنود الشبان الذين لم يشاركوا أبداً في حرب أن يشاهدوا أرواحاً كثيرة تشهق على الأرض، وكثيفة جداً في بعض الأماكن بحيث لا تستطيع أن تمر إلا بصعوبة. يمكن أن يسألنا أحد ما لماذا كان عليكم أن تكونوا متوحشين؟ ألا يجب أن يمتلك المسيحيون بعض الرحمة والشفقة؟

لكن سأحيلكم إلى حرب داؤود، حين يسفح شعب الدم ويذنب ضد الله والإنسان ويشترك الجميع في الفعل هناك يجب ألا يحترم الأشخاص ولكن يجب أن ينكل بهم بالسيف وبأكثر الميتات رعباً. أحياناً يصرح النص المقدس أن النساء والأطفال يجب أن يعانون مع آبائهم، وأحياناً تتغير الحالة، ولكن لن نتنازع حول هذا الآن، نمتلك ضوءاً كافياً من كلام الله من أجل أعمالنا.

## 1639: ليما

### مارتن دي بوريس

تدق أجراس كنيسة سانتو دومينغو دقة الموت. ففي ضوء الشمعة، مغتسلاً بالعرق، أسلم مارتن دي بوريس روحه بعد عراك طويل مع الشيطان بمساعدة مريم المقدسة كاترين؛ العذراء والشهيدة. مات في فراشه، حيث أسند رأسه إلى حجر بدلاً من المخدة ووضعت جمجمة إلى جانبه، بينما ركع نائب الملك في ليما وقبل يده وتوسّل إليه أن يتوسّط له من أجل مكان صغير في الفردوس.

كان مارتن دي بوريس من ذرية عبدة سوداء وسيدها، الذي كان من نسب إسباني نقي والذي لم يحبّها ليستخدمها كأداة، بل ليطبّق المبدأ المسيحي الذي يقول إن الجميع متساوون في الفراش أمام الله.

منح مارتن لأبرشية رهبان دومينكانيين في سن الخامسة عشرة. هناك قام بأعمال واجترح معجزاته، لم ينصب أبداً كقسّ كونه خلاصياً، إلا أنه يعاني الكنيسة بحب ويكنس كل يوم الغرف والأروقة والمستشفى والكنيسة. كان يحلق كل يوم بالوس لثائتي قسّ ويعتني بالمرضى ويوزع الملابس الجديدة المعطرة بحصى البان<sup>38</sup>.

<sup>38</sup> حصى البان: نبات عطر من الفصيلة الشفوية.

حين عرف أن الأبرشية أفلست مالياً ذهب ليقابل رئيسه: "سلاماً لك يا مريم".

- "سلاماً لك يا مريم الطاهرة".

عرض عليه: "يجب أن يبيع نيافتكم<sup>39</sup> هذا الكلب الخلاسي".

وضع في فراشه شحاذين متقرّحين وصلّى راکعاً على ركبتيه طوال الليل. أضفى عليه ضوء غير عادي لونا أبيض كالثلج. خرجت السنة لهب بيضاء من وجهه، حين عبر الرواق في الليل هارباً كشهابٍ مقدّس، متجهة إلى عزلة حجرته. مشى عبر أبواب مقفلة وصلّى أحياناً وهو راکع في الهواء مرتفعاً عن الأرض. رافقته الملائكة إلى الكورس حاملة في أيديها شموعاً، قدّم العزاء للأسرى في الجزائر من دون أن يغادر ليماً وأنقذ أرواحاً في الفلبين، والصين واليابان، وقرع، من دون أن يتزحزح من مكانه، ناقوس التبشير، أحياء الموتى بخرق غمست في دم الديكة السوداء ومسحوق الضفادع وبرقى تعلمها من أمه. أوقف آلام الأسنان بلمسة إصبع وحول الجراح المفتوحة إلى ندوب والسكر الأسمر إلى أبيض وأطفأ النيران بنظرة، فتوجب على الأسقف أن يمنعه من اجتراح معجزات كثيرة بدون إذن.

بعد صلوات الصباح شقّ ظهره سوط مصنوع من جلد ثور فيه عقد سميقة وصرخ وهو ينزف: "أيها الكلب الخلاسي الشرير، كم ستطول حياتك المذنبه؟".

يطلب دائماً الصفح بعينين متوسلتين غاصتين بالدموع، كان أول إضافة داكنة الجلد إلى قائمة الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة الناصعة البياض كالزئبق.

<sup>39</sup> نيافة: لقب شرف لرئيس أساقفه.

## 1639: سان ميغيل دي توكومان

من بيان شجب للأسقف توكومان  
أُرسل إلى محكمة التفتيش في ليما

بالحقيقة والإخلاص الذي يجب أن تخاطب بها محكمة مقدّسة، أشجب المبعّل، أسقف توكومان دي سافيردا الذي سمعت عنه أشياء مثيرة للشك بشكل خطير في ديننا الكاثوليكي المقدّس والتي هي منتشرة في الأبرشية كلها. لقد حدث في سالتا في أثناء احتفالات تثبيت العمادة أن جاءت فتاة جميلة وقال لها: "من الأفضل أن تنتزع قداستك بدلاً من أن تؤكّد". وأنه حدث في قرطبة العام المنصرم 1638 أن جاءت فتاة أخرى فقال لها، وبحضور بشر عديدين وهو يرفع رداءه: "اخرجي، يجب ألا أعمدك من الأسفل بل من الأعلى". ولقد عاش مع الأولى دون زواج كما هو معروف.

## 1639: بوتوسي

وصية رجل أعمال

ينتأ أنف الكاتب بالعدل من خلال الستائر. تفوح رائحة غرفة النوم بالشمع والموت. يمكن أن تشاهد في ضوء الشمعة الوحيدة الجمجمة تحت جلد الرجل الذي يحتضر.

- "ما الذي تنتظره أيها العقاب؟"

لا يفتح رجل الأعمال عينيه إلا أن صوته يعلو بحزم.

يقول متنهداً: "لقد تناقشتُ أنا وظلي". ثم يأمر الكاتب بالعدل: "يجب ألا تضيف أو تحذف أي شيء، أسمعني؟ سأمنحك طيوراً يبلغ ثمنها مائتي بيزو، بحيث تستطيع أن تطير بريشها وبالريش الذي تكتب به إلى الجحيم، هل تسمعني؟ إن كل يوم أعيشه هو وقت مستعار، وكل يوم يمرّ يكلفني أكثر. اكتب، أسرع بالكتابة أيها الرجل. أوحى أن يبني بجزء رابع من ثروة الفضة التي أخلفها مرحاض كبير في الساحة العامة لكي يمجّديني في كل يوم نبلاء وعامة بوتوسي. أوحى أن يدفن جزء آخر رابع من سبائكي الذهبية وقطعي النقدية في ساحة منزلي، وأن يوضع على المدخل أربعة كلاب شرسة مربوطة بالسلاسل، وأن تزود بكمية كبيرة من الطعام لتحرس هذا الكنز".

لا يتدلى لسانه، يتابع الكلام من دون أن يأخذ نفساً: "وأوحى أن يطبخ طعام عالي الجودة بجزء آخر رابع من ثروتي ويوضع في أنيتي الفضية ويدفن في حفرة مع كل شيء تبقى في موضع حفظ اللحوم لأنني أريد أن تتخم الديدان نفسها حتى تمرض كما ستفعل بي. وأوصي..."

يحرك سبّابته راسماً ظلاً كالهراوة على الجدار: "وأوصي ألا يحضر أحد كائناً من كان جنازتي وأن ترافق جثتي جميع البغال الموجودة في بوتوسي مزينة بأعلى الألبسة وأفضل المجوهرات ويفعل هذا بالجزء المتبقي من ثروتي".

## يقول الهنود

الأرض مالِك؟ كيف حصل هذا؟ كيف تُشترى؟ إذا لم تكن لنا، إذن ماذا حدث؟ نحن منها، نحن أبناؤها، هكذا كان الأمر دائماً. الأرض حيّة وتغذي الديدان كما تغذيها. لها عظام ودم، فيها حليب وهي ترضعنا، لها شعر وعشب وقش وأشجار، تعرف كيف تنجب البطاطا، تنجب المنازل وتنجب الناس، تعطني بنا ونعتني بها.

تشرب الشيكات وتقبل دعوتنا، نحن أبناءها، كيف إذاً يمكن أن تباع؟  
كيف يمكن أن تُشترى؟

## 1640: ساو سلفادور دي باهيا

### فييرا

يطلق الفم شرراً وهو يتفوه بالكلمات المهلكة كقذائف المدافع. إن أخطر خطيب في البرازيل هو قس برتغالي نشأ في باهيا وهو باهي إلى روحه.

غزا الهولنديون هذه الأراضي وأنطونيو فييرا الجزويتي يسأل الأرسقراطيين المستعمرين: "ألستا سودا بالنسبة للهولنديين كما هم الهنود بالنسبة إلينا؟"

من على المنبر يوبّخ مالك الكلمة مالكي الأرض قائلاً: "أجعلني سيذا أنني ولدت بعيداً عن الشمس ويجعل الآخريين عبيداً أنهم ولدوا قربها؟ لا يوجد سوء فهم فادح جداً كهذا وخطأ فادح في الحكم كهذا بين البشر."

في كنيسة آيودا الصغيرة، أعرق كنيسة في المكسيك، يتهم أنطونيو فييرا أيضاً الله الذي أذنب بمساعدة الهولنديين الغزاة: "رغم أننا جميعاً مذنبون يا إلهي، أنت من يجب أن يتوب اليوم."

## 1641: ليما

### أفيلا

حَقَّق مع آلاف مؤلفة من الهنود من دون أن يجد أحداً منهم بريئاً من الهرطقة. دَمَّر الأوثان والمعابد، أحرق المومياءات، حلق

الرؤوس وسلخ الظهور بالسوط في أثناء مروره. طهرت ريح الإيمان المسيحي البيرو.

وصل القسّ فرانسيسكو دي آفيلا إلى سن الخامسة والسبعين ليجد أن قوته تخونه؛ إنه نصف أصم وثيابه تؤله ويقرر ألا يغادر العالم قبل أن يحصل على ما كان يريد منذ أن كان طفلاً. وهكذا يقدم طلباً ليدخل إلى صحبة يسوع.

يقول الكاهن الجزويتي أنطونيو فاسكويز: "لا".

"لا"؛ لأنه رغم أنه يدّعي بأنه رجل متعلّم ولغوي كبير فإن فرانسيسكو آفيلا لا يستطيع أن يخفي وضعه كهجين.

## 1641: موروري

### الإرساليات التبشيرية

الملكون قادمون. من إقليم سان بابلو يتقدّم صائدو الهنود، ملتهمو الأراضي على إيقاع الطبول رافعين علمهم. يتقدم منفذو الأمر العسكري كعاصفة من الرياح الحربية عبر البارغواي، يحملون حبالاً طويلة بياقات للهنود الذين سيصطادونهم ويبيعونهم عبداً في مزارع البرازيل.

كان الملكون أو قطاع الطرق يدمرون طوال أعوام كثيرة إرساليات الجزويتيين. لم يبق شيء من البعثات التبشيرية الثلاث عشرة في غويرا سوى الأحجار والفحم. خرجت مجموعات تبشيرية جديدة في هجرة جماعية نحو اتجاه مجرى نهر "البارانا" إلا أن الهجمات لم تتوقف. يجد الثعبان في البعثات التبشيرية الطيور مجتمعة وسمينة، آلاف الهنود المدربين على العمل والبراءة، غير مسلحين، ومن السهل اصطيادهم. يعيش الجوارانيون حياة منظمة تحت رعاية الأساقفة من دون ملكية خاصة أو نقود أو عقوبات قتل، بدون رفاه أو ندرة ويتقدمون إلى العمل وهم يغنون على ألحان المزمار. لا تفيد سهامهم

المصنوعة من قصب السكر في وجه بنادق الملاكين الذين يختبرون شفرات سيوفهم بقطع الأطفال إلى نصفين ويحملون أردية الكهنة الممزقة وقوافل من العبيد كغنائم حرب.

لكنّ مفاجأة تنتظر الغزاة في هذا الوقت؛ إذ أمر ملك إسبانيا الذي خاف من هشاشة هذه الجبهات منح الجوارانيين الأسلحة النارية. هرب الملاكون مشتتين.

يتصاعد ريش الدخان وأغاني المديح لله فوق المنازل، هذا الدخان الذي ليس صاعداً من المباني المحترقة بل من المداخن، يحتفل بالنصر.

## 1641: مدريد

### الأبدية ضد التاريخ

يقضم كونت ودوق أوليفاريس قبضتيه ويطلق اللعنات، يصدر أوامر كثيرة بعد عشرين عاماً من الأعمال والتعطيل في المحكمة، إلا أن خطوة الله أقوى.

كان مجلس اللاهوتيين قد رفض مشروعه بفتح قناة تصل بين نهري تاكوس ومنزناريس والتي سترحب بها سهول قشتالة، ستبقى الأنهار كما خلقها الله وستنتهي مخططات المهندسين كاردوشس ومارتيللي في الملفات.

أعلن في فرنسا أن قناة لانكويديوك ستفتتح حالاً لتصل بين البحر الأبيض المتوسط ووادي غارون. في أثناء ذلك وفي إسبانيا التي غزت أميركا يقرّر مجلس اللاهوتيين: "إن كلّ من يحاول أن يحسّن ما أرادته العناية الإلهية أن يبقى غير مكتمل يذنب ضدّها. لو كان الله يرغب في جعل الأنهار صالحة للملاحة لجعلها كذلك".



# 1644: جيمس تاون

## أوكانكانوف

قبل أن يطلق جندي إنكليزي النار على ظهره، سأل أوكانكانوف نفسه: "أين الحارس اللامرئي لخطواتي؟ من الذي سرق ظلي؟". حين وصل سنة إلى المائة هزم، جاء إلى ساحة المعركة محمولاً على محفة.

أخذهُ الأميرال بدرو ميندينيز دي آفيلز إلى قادش منذ ثمانين عاماً. قدّمه في بلاط الملك فيليب الثاني قائلاً: "هنا أمير هندي رائع لفلوريدا"، ألبسوه بنطالاً قصيراً وسترةً وطوقاً، علموه في أبرشية دومينكانية في إشبيلية لغة ودين قشتالة ومنحه نائب الملك في المكسيك اسمه فأصبح اسم أوكانكانوف لوي دي فيلايسكو. عاد فيما بعد إلى أرض أجداده مترجماً ودليلاً لليسوعيين، ظن قومه أنه عاد من الموت، بشر بالمسيحية وبعد ذلك نزع ثيابهم وذبح اليسوعيين وعاد إلى اسمه القديم.

قتل الكثير منذ ذلك الوقت ولم يشاهد إلا قليلاً؛ رأى قرى وحقولاً تلتهمها النار وأخوته يباعون إلى الذي يدفع الثمن الأعلى، في هذا الإقليم الذي عمده الإنكليز باسم فيرجينيا تخليداً لذكرى ملكة عذراء روحياً رأى رجالاً ابتلعهم الجدري وأراضي التهمها التبغ المستعبد. شاهد سبع عشرة قبيلة من القبائل الثمانية والعشرين التي كانت هنا تُكنسُ عن الخارطة. ورأى آخرين منحوا الخيار بين الشتات أو الحرب. رحب ثلاثون ألف هندي بالبحارة الإنكليز الذين وصلوا إلى خليج تيسابيك في صباح عذب من عام 1607. بقي منهم فقط ثلاثة آلاف على قيد الحياة.

## مريم المسيح

حلّ عام من الكوارث في المدينة، تدلّ قوس أسود على كل باب؛ لقد غزت ودمّرت الجيوش اللامرئية للحصبة والخنّاق. خيم الليل تماما بعد الفجر وانفجر البركان بيتشينشا، ملك الثلج؛ تقياً كمية كبيرة من الماغما والنار سقطت على الحقول، وإعصاراً من الرماد.

- "مذنبون، مذنبون!"

قذف الأب ألونزودي روخاس اللهب من فمه كالبركان. على المنبر المتوهج لكنيسة اليسوعيين المشيدة من الذهب ضرب الأب ألونزو على صدره الذي رجع الصدى وهو يبكي ويصرخ صاخباً: "اقبل يا إلهي تضحية الأكثر تواضعاً بين خدمك، اجعل لحمي ودمي يكفران عن ذنوب كويتو".

بعد ذلك نهضت امرأة شابة عند قدم المنبر وقالت: "أنا".

أعلنت مريم أمام الناس الذين ملؤوا الكنيسة أنها هي المختارة؛ ستهدي غضب الله، وتتحمّل جميع العقوبات التي تستحقها مدينتها.

لم تعرف مريم السعادة أبداً، ولم تحلم بأنها كانت سعيدة، ولم تنم أكثر من أربع ساعات كل يوم. كانت المرة الأولى التي لمس فيها رجل يدها حين أصيبت بالحمى. قرّرت وهي طفلة أن تصبح عروس الله ومنحته حبها ليس في الدير فحسب، بل في الشوارع والحقول، وليس بالتطريز وصناعة الحلوى والمربيات في الأديرة بل بالصلاة ركوعاً على الأشواك والحجارة وهي تبحث عن خبز للفقراء وعلاج للمرضى وعن ضوء للراعتين في ظلمة الجهل بالقانون الإلهي.

شعرت مريم أحياناً أن صوت المطر أو صوت النار يدعوها، إلا أن صوت رعد الله يعلو أكثر دائماً: إله الغضب، الذي له لحيّة من الأفاعي وعينان من البرق، والذي يظهر عارياً في أحلامها ليختبرها.

عادت مريم إلى البيت، تمدّدت في فراشها وجهّزت نفسها للموت بدلاً من الجميع، دفعت لتحصل على صفح الله، قدّمت جسدها له ليأكل دمه ودموعها ليشرّب حتى يدوخ وينسى.

بهذه الطريقة سيتوقف المرض ويهدأ البركان وتكفّ الأرض عن الارتجاج.

## 1645 : بوتوسي

قصة إستيفانيا امرأة بوتوسي المذنبّة

(عرض موجز للأحداث نقله بارتولومي أرزانز أورسووي ميلا)

ولدت إستيفانيا في البلدة الملكية واكتسبت جمالاً تعجز الطبيعة عن زيادته.

غادرت الشابة الجميلة المنزل في سن الرابعة عشرة متأثرة بنصائح نساء أخريات ضالّات. حين شاهدت أمها هذا التصميم البغيض الذي دفع ابنتها إلى الرحيل أسلمت روحها بعد بضعة أيام.

لم يجعل هذا الأمر الفتاة تعود إلى الطريق المستقيم، بعد أن فقدت سابقاً كنز عذريتها المجاني بدأت تلبس ثياباً فضائحية وأصبحت مذنبّة علنية مثيرة للفضائح.

بعد أن طالّت السمعة شقيقها استدعاها إلى منزله وقال: "مهّما تأملت يجب أن تبسميني، إن استمرارك في هذه الخطايا المهلكة سيجعلك عدوة الله وعبدة للشيطان وستلطحين نبالتك وتسيئين إلى شرف سلالتك، فكري أيتها الأخت، إن ما تفعلينه يخرج من هذه القذارة. خافي الله وتوبي". أجابت إستيفانيا: "ماذا تريد مني أيّها

المنافق؟". حين وبّخها شقيقها تناولت بسرعة هائلة خنجرًا كان معلقاً على الجدار وهجمت عليه بوحشية شيطانية قائلة: "هذا هو الجواب الوحيد الذي تستحقه كلماتك". تركته ميتاً في بحيرة من الدم. قنّعت بعد فترة فعلها السيء بالتظاهر بالحزن وارتدت ثياباً سوداء وعبرت عن أحزانها الكثيرة.

نجح والدها المتقدم في السن والمتأسف على موت ولده الطيب وفضيحة ابنته السيئة في التصدي لها بكلمات مقنعة، استمعت إليها الفتاة القاسية القلب ضد إرادتها وبدلاً من أن تصلح نفسها، اشمأزت من العجوز. أشعلت ليلاً النار في سقف منزله، قفز العجوز المتألم من فراشه صارخاً بأعلى صوته: "حريق! حريق!" إلا أن الأعمدة التي تدعم السقف انهارت والتهمة العنصر المريع.

بعد أن وجدت نفسها حرة كرّست إستفانيا نفسها للأثام والخطايا بفسوق أكبر.

جاء إلى بوتوسي في تلك الأيام رجل من إسبانيا؛ كان تاجراً غنياً، جاء في سفينة شراعية إلى البيرو ولفت انتباهه جمال وفتنة المذنبية. أغراها، بينما كانا يتمتعان بفحشهما قرّر عاشق سابق للسيدة مسلح بجميع أصناف الأسلحة أن ينتقم لهذه الإساءة.

وجد العاشق السابق المرأة وحيدة إلا أنها كبحت روحه الغاضبة بكلمات مخادعة وحين هدأت غضبه أخرجت سكيناً من كمّها بسرعة كبيرة وطعنته فسقط المسكين ميتاً على الأرض.

ذكرت إستفانيا الحادثة للتاجر الغني، هدّد بعد عدة شهور وبعد أن عدّبتة الغيرة كثيراً أن يحاكمها من أجل الجريمة. في تلك الأيام ذهباً ليستحمياً في بحيرة تارابايا، خلعت ثيابها الفاخرة كاشفة ثلج جسدها المنقط باللون القرمزي الجميل ورمت نفسها في الماء عارية. تبعها التاجر السعيد، وعندما أصبحا في وسط البحيرة دفعت رأس الرجل المنحوس في الماء بكل قوة ذراعيها.

لا يظنّ أحد أن أفعالها الشنيعة انتهت هنا؛ بضربة سيف واحدة أنهت حياة سيّد من دم نقي وقتلت اثنين آخرين بالسّم الذي دسّته

في وجبة الغداء. أنهت ألعابها الماكرة حياة الآخرين بطعنات سيف في الصدور وأفرحها أن هذا الدم كله يسفك من أجلها.

واستمر الأمر إلى عام 1645 حين سمعت المرأة المذنبه موعظة ألقاها الأب فرانسيسكو ماتينو خادم الله الذي كانت فضائله المثيرة للإعجاب ممتعة جدا في ذلك الوقت في بوتوسي. كان حزن إستفانيا كبيرا فبدأت تبكي وترخي جداول الدموع من عينيها مطلقة تنهدات عظيمة وشهقات بدت وكأنها تمزق روحها وحين انتهت الموعظة رمت نفسها على قدمي الكاهن متوسلة من أجل الاعتراف.

حُثَّها الكاهن على التوبة وغفر لها، إذ إنه معروف بشكل جيد بأية سعادة تسلم النساء أنفسهن ليدي الأفعى، وذلك عائد إلى ذنوب موروثه منها تلك التي أغرت آدم. نهضت إستفانيا عن قدمي كاهن الاعتراف كأنها مجدولين أخرى وحين كانت في طريقها إلى البيت — آه للمذنبه السعيدة — اكتسبت مظهر مريم الأكثر قداسة التي قالت لها: "يا ابنتي لقد صفح عنك، توصلت لابني من أجلك لأنك صليت في طفولتك وأنت تحملين مسبحتي".

## 1670: سانتياغو. تشيلي

### منع لعبة للهنود التشيليين

أعلن القائد العام دون مارتن موخिका منع لعبة "الشويكا" التي يلعبها الآروكانيون وفق تقاليدهم ضاربين كرة بعصي محنية في ساحة محاطة بأغصان خضراء.

عوقب بمائة جلدة الهنود الذين لم ينفذوا الأمر وفرضت ضرائب على الآخرين لأن لعبة "الشويكا" السيئة انتشرت بشكل واسع بين الجنود الكريبوليين.

قال مرسوم القائد العام أن المنع فرض ليتم تجنّب الذنوب المخالفة لشرف الله أبينا، ولأن مطاردة الكرة تدرب الهنود على الحرب وتسبب اللغة إزعاجات وبعد ذلك تأتي السهام. قال القرار إنه من غير اللائق أن يتجمّع الرجال والنساء عراة تقريباً من أجل اللعبة، لا يرتدون شيئاً سوى الريش وجلود الحيوانات التي يعتقدون عليها آمالهم في الريح. يستحضرون في بداية اللعبة الآلهة لتدعم شجاعتهم وسرعة أقدامهم وفي النهاية يشرب الجميع وهم يتعانقون محيطات من شراب "الشيكا".

## 1648: أوليندا

### مغذّي المدفع

كان طفلاً حين اقتادوه من قريته الأفريقية ورحلوه بحراً من لواندا وباعوه في ريسيف. كان رجلاً حين فرّ من حقول القصب ولاذ إلى أحد المعامل التابعة للسود في بالماريس.

حالما دخل الهولنديون إلى البرازيل وعد البرتغاليون أن يعتقوا كل من يقاتل من العبيد ضد الغزاة. قرّر الهاربون إلى بالماريس أن الحرب ليست حربهم ولم يكن يهم كثيراً إذا كان الذين يحملون السوط في حقول القصب وطواحين السكر برتغاليين أم هولنديين. إلا أن هنريك دياز ذهب وتطوّع وأصبح قائداً لفوج من السود الذي يقاتلون من أجل التاج البرتغالي في شمال شرق البرازيل، منحه البرتغاليون لقب نبيل.

أرسل القائد هنريك دياز من أوليندا رسالة تهديد إلى الجيش الهولندي المتمركز في ريسيف قال فيها: "إن فوجي يتألف من أربعة أمم؛ من المينييين والآردييين والأنغوليين والكريبوليين". وهؤلاء المينييون حاقدون لا يعرفون الخوف ومتوحشون تخضع سمعتهم من لا يستطيعون الوصول إليهم. والآردييون غاضبون يريدون أن يقطعوا الجميع بضربة واحدة والأنغوليون خشنون لا يتعبهم العمل. فكروا

الآن إذا لم يكن الرجال الذين حطموا كل شيء مقدر عليهم أن يحطموا كل هولندا.

## 1649: مريم، قديسة قبيلة الهورن

### لغة الأحلام

يفكر الأب راغوينو وهو يراقب هنود الهورن يحيظون بالهدايا والطقوس رجلا حلم البارحة حلما غامضا ويقول: "إنهم مساكين". تضع القبيلة الطعام في فمه وترقص له. تربت عليه الشابات ويدلكنه بالرماد. بعد ذلك يتحلق الجميع وهم جالسون ويبدوون تفسير الحلم. يطاردون الحلم بصور لامعة أو كلمات ويتابع هو القول: "لا لا!" إلى أن يقول شخص ما: "النهر". ثم ينجح الجميع في التقاطه: النهر، جدول غاضب، امرأة وحيدة في زورق، فقدت المجذاف، يجرفها النهر بعيدا. تسأل إحدى النساء: "أهذه أنا؟". تسأل أخرى: تدعو القبيلة المرأة التي تخترق عينها الرغبات الأكثر غموضا لتفسر رموز الحلم، حين تشرب شاي الأعشاب العطرية تستحضر العصاره روحها العارفة وتفك رموز الرسالة.

يؤمن هنود الهورن مثل جميع شعوب الأوركوا أن الأحلام تحوّل الأشياء الأكثر وضاعة إلى رموز حين تلمس بأصابع الرغبة. يؤمنون أن الأحلام هي لغة الرغبات غير المتحققة ويستخدمون كلمة "أوندينوك" من أجل الرغبات السرية للزوج التي لا تعرفها اليقظة. وتأتي الرغبات السرية في الرحلات التي تقوم بها الروح حين يكون الجسد نائما.

يفكر الأب راغوينو: "مساكين".

كل من لا يحترم ما تقوله الأحلام يرتكب جريمة كبيرة بالنسبة للهورنيين. يأمر الحلم. إذا لم ينفذ الحالم الأوامر تغضب الروح وتُمرض الجسد أو تقتله. تعرف جميع شعوب الأوركوا أن المرض

يمكن أن يجيء من الحرب أو الصدفة أو من الساحرة التي تغرز أسنان الدب أو نتف العظام في الجسد، إلا أنه أيضاً يجيء من الروح حين ترغب بشيء ولا يمنح لها. يناقش الأب راغوينو الموضوع مع يسوعيين فرنسيين آخرين يبشرون في المنطقة، يدافع عن هنود كندا: "من السهل أن ننتع باللايين ببساطة كل ما هو غباء..."

يرى بعض الكهنة قرني الشيطان يبزغان من هذه الخرافات مرتعبين لأنه عند نزع قبة سوف يحلم الهنود ضد الوصية السادسة وسينغمسون في اليوم التالي في طقوس الشفاء العريضية. ينتقل الهنود عراة وينظرون إلى بعضهم ويلمسون بعضهم بحرية شيطانية ويتزوجون ويطلقون متى شاؤوا. ويكفي أن يأمر الحلم لبدء الاحتفال الذي هو دائما مناسبة لارتكاب الذنوب المسعورة. لا يستطيع الأب راغوينو أن ينكر أن الشيطان يستطيع أن يجد أرضا خصبة في هذا المجتمع الذي هو بلا قضاة أو شرطة أو ملكية حيث تتقاسم النساء القيادة مع الرجال ويعبدون سوية آلهة مزيفة، إلا أنه يصرّ على البراءة الأساسية لهذه الأرواح البدائية التي ما تزال تجهل شريعة الله.

حين يرتجف اليسوعيون الآخرون من الهلع لأن بعض الأوركوانيين يمكن أن يخلصوا في إحدى الليالي بقتل كاهن، يتذكر راغوينو ما حصل سابقا عدة مرات وأنه حين حصل هذا، كل ما كان ضروريا هو أن تجعل الحالم يمزق رداءً وهو يرقص حلمه في إيماءة غير مؤذية.

قال الأب راغوينيو: "هذه عادات غبية إلا أنها ليست إجرامية".

## قصة إركوية

إنها تتلج في الخارج، وفي وسط المنزل يتحدث الحكواتي المسنّ ووجهه إزاء النار. يصغي الجميع جالسين على جلود حيوانية وهم يخيطنون الثياب ويصلحون الأسلحة.



يقول العجوز: "لقد نمت الشجرة الفائقة الحسن والبهاء في السماء، امتدّت جذورها البيضاء الأربعة في جهات أربع. ولدت جميع الأشياء من هذه الشجرة..."

يروى العجوز أنه في أحد الأيام اقتلعت ريحُ الشجرة من جذورها. من الثغرة التي فتحت في السماء سقطت زوجة الزعيم العظيم حاملة حفنة من البذار. أحضرت لها سلحفاة التربة في درعها فاستطاعت أن تزرع البذار وهكذا بزغت النباتات الأولى التي منحتنا الطعام. فيما بعد أنجبت المرأة فتاة كبرت وأصبحت زوجة الريح الغربية، نفخت الريح الشرقية الكلمات في أذنيها.

يروى الحكواتي الجيد قصة ويجعلها تحدث. تهبُّ الريح الغربية الآن على المنزل الكبير، تدخل من المدخنة ويحجب الدخان جميع الوجوه.

يعوي الأخ الذئب الذي علم الأوركوانيين أن يجتمعوا معاً ويصغوا، إنه وقت النوم.

في أحد الصباحات لن يستيقظ الحكواتي، إلا أن واحداً من الذين سمعوا قصصه سيرويها للآخرين، وفيما بعد سيموت هذا الشخص أيضاً وستبقى القصص حية طالما توجد منازل كبيرة وبشر مجتمعون حول الموقد.

## أغنية عن أغنية للأوركوانيين

حين أغني

يمكن أن يساعدك ذلك

نعم يمكن، نعم .

إنه غناء قوي

حين أغني

يستطيع ذلك أن يوقظها

نعم، يمكن، نعم

إنه غناء قوي

حين أغني ينبسط ذراعها

نعم، يمكن ذلك، نعم

إنه غناء قوي.

حين أغني

يتمدد جسدها

نعم، يمكن ذلك، نعم

إنه غناء قوي

## 1650: مدينة مكسيكو

### الغزاة والمغزؤون

تتدلى شارة العائلة بأبهة على الحديد المزخرف فوق البوابة وكأنها فوق مذبح. ينطلق سيد المنزل في عربة من خشب الماهو غاني مع حاشيته من الأتباع والأحصنة المزينة، يتوقف أحد ما في الداخل عن العزف على موترّة المفاتيح. يُسَمَعُ حفيفُ الحرير والأنسجة وأصوات بناتٍ قابلاتٍ للزواج ووقعُ خُطى على سجّادٍ ناعمٍ مستسلمٍ ثم يُسَمَعُ رنينُ الملاعق الفضية المنقشة على الخزف الصيني.

إن مدينة مكسيكو هذه، أو مدينة القصور، هي من أضخم المدن في العالم. ورغم أنها بعيدة عن البحر، تحضر السفن الصينية والإسبانية بضائرها وفضتها إلى شمال المدينة. إن غرفة تجارتها القوية تنافس تلك التي في إسبيلية. ومن هنا تتدفق البضائع إلى البيرو ومانبلا والشرق الأقصى.

إن الهنود الذين بنوا مدينة الغزاة هذه علي خرائب مدينتهم  
تينوشيتيتلان يحضرون الطعام في القوارب - يمكن أن يعملوا هنا أثناء  
النهار، إلا أنهم يُنقلون في الليل تحت ألم ضربات السياط إلى  
أحيائهم القذرة خارج الأسوار.

يرتدي بعض الهنود الجوارب والأحذية ويتحدثون الإسبانية آملين أن  
يُسمَح لهم بالبقاء وبهذه الطريقة ينجون من دفع الجزية والعمل الإجباري.

## من أغنية الناهواتل حول سرعة زوال الحياة

نعيش دورة حياة واحدة  
نتلاشى في يوم ونهبط في ليلة  
إلى إقليم اللغز  
جننا إلى هنا لنعرف أحدنا الآخر  
نحن هنا فقط في العبور  
فدعونا نمضي الحياة في سلامٍ ومرتعةٍ  
تعالوا ودعونا نستمتع بها  
إن الأرض ليست واسعة  
لأولئك الذين يعيشون غاضبين  
كم هو جميل أن نحيا  
وأن لا نموت أبداً .  
وبينما نحن نحيا، وروحنا محطمة  
هنا يضايقوننا باستمرار ويتجسسون علينا  
ولكن رغم كل المصائب

وكلّ جراح الروح  
يجب ألا نحيا عبثاً  
كم هو جيد أن نحيا  
وأن لا نموت أبداً.

## 1654: أوهاكا

### الطب والسحر

أخبر هنود الزابوتيك، الذين كانوا قبل أن يسقطوا على الأرض طيوراً متألقة الألوان، غنزالو بالسالوبر بعض الأسرار، بعد أن عاش بينهم، وبعد البحث في أسرار الدين والطب، كتب الدون غونزالو تقريراً مفصلاً في أوهاكا سيرسله إلى مدينة مكسيكو؛ يدين التقرير الهنود متوجهاً إلى محكمة التفتيش المقدّسة، ويطلب معاقبتهم بسبب الشعوذات التي لم يقدر الكهنة والعدالة الطبيعية على قمعها. منذ فترة غادر الآركون الجامعة ليعيش عشرة أعوام مع قبيلة كويهو الهندية، عرف الأعشاب السرية التي تشفي المرضى وشجب فيما بعد الممارسات الشيطانية للهنود.

أثار الطب المحلي في الفترة الأولى للغزو فضولاً كبيراً في أوروبا وأضيفت العجائب على نباتات أميركا. جمع فراي بيرناندو ساهاغن ونشر حكمة ثمانية أطباء آزتيكيين وأرسل الملك فيليب الثاني طبيباً الخاص فرانسيسكو هرنانديز إلى المكسيك ليقوم بدراسة شاملة للطب المحلي.

يعتقد الهنود أن الأعشاب تتحدّث وتمارس الجنس وتشفي، إنها نباتات صغيرة تستطيع بمساعدة كلمات إنسانية أن تسحب المرض من الجسم وتكشف الأسرار وتقوم الأقدار وتثير الحب أو النسيان. تبدو أصوات الأرض هذه كأصوات الجحيم بالنسبة لإسبانيا القرن السابع عشر المشغولة بالاستجاب والرقى التي تعتمد على سحر الصلاة في الشفاء وعلى الاستحضارات والطلاسم أكثر من اعتمادها على الشراب والتطهير والتشبيب.

## 1655: سان ميغيل نيبانتلا

### جوانا في سن الرابعة

تتحدث جوانا باستمرار مع زوجها التي هي صديقتها الداخلية حين تمشي على ضفة الجدول، تشعر بسعادة كبيرة لأنها مصابة بالحازوقة، تقف وتتنظر إلى ظلها الذي ينمو معها وتقيسه بغصن بعد كل قفزة صغيرة لبطنها. نمت البراكين أيضا وهي مصابة بالحازوقة حين كانت حية، قبل أن تحرقها نيرانها. ما يزال يوجد بركانان يدخنان إلا أنهما غير مصابين بالحازوقة الآن، إنهما لا ينمون. تكبر جوانا وهي مصابة بالحازوقة وتزداد كبرا.

يجعلك البكاء أحيانا أكثر صغرا، لهذا السبب العجائز وندابو الجنازات هم بحجم الصراير. ليس هذا موجودا في كتب والدها التي تقرأها، إلا أنها تعرف ذلك. تعرف هذه الأشياء لأنها تتحدث كثيرا مع روحها. تتحدث جوانا أيضا مع الغيوم، كي تتحدث مع الغيوم يجب أن تتسلق التلال أو قمم الأشجار.

- "أنا غيمة، نحن الغيوم لنا وجوه وأيد، ليس لنا أقدام."

## 1656: سانتياغو لافيكيا

### كيچ

مات الراهب الأنجليكاني توماس كيچ في جامايكا في أرجوحة شبكية معلقة بين شجرتي نخيل.

حلم أن يصبح نائب الملك الإنكليزي الأول للمكسيك منذ الأيام القديمة عندما طاف في أراضي أميركا في رداء راهب كاثوليكي مبشرا

ومتجسّساً ومستمتعاً بالشوكولاته وثمار الجوافة. حين عاد إلى لندن حرك الأحزاب وأقنع اللورد كرومويل أنه من الضروري والممكن تجهيز أسطول جيد لغزو المستعمرات الإسبانية.

في العام الماضي غزت قوات الأميرال ويليام بن جزيرة جامايكا. انتزعت انكلترة من إسبانيا الجزء الأول من إمبراطوريتها الأميركية وفقد ورثة كولومبوس مركزيات جامايكا أفضل ممتلكاتهم. بعد ذلك ألقى المبجل توماس كيج موعظة بروتستانتية وطنية من على منبر أضخم كنيسة في سانتياغو لافيكيا بينما كان الحاكم الإسباني قادماً بين أذرع عبده ليسلم سيفه.

## 1658: سان ميغيل نيبانتلا

### جوانا في السابعة

ترى في المرأة أمها قادمة فترمي السيف الذي يسقط محدثاً جلبه كطلقة مدفع، وتجفل جوانا بطريقة تجعل كل وجهها يختفي خلف القبعة العريضة الحواف.

تقول بغضب حين تضحك أمها: "أنا لا ألعب". تنزع القبعة وتظهر شاربها المرسوم بالسخام. تتحرك قدماً جوانا بارتباك في البوط الجلدي الضخم، تزل وتسقط وترفس الهواء مذلة غاضبة وأمها لا تستطيع التوقف عن الضحك.

تحتج جوانا والدموع تبرز في عينيها: "أنا لا ألعب؛ أنا رجل سأذهب إلى الجامعة لأنني رجل".

تضرب الأم رأسها: "يا ابنتي المجنونة! يا حبيبتي جوانا! يجب أن أجلك بسبب هذه الأعمال غير المحتشمة".

تجلس قربها وتقول بنعومة: "من الأفضل لو أنك ولدت غبية يا ابنتي التي تعرف كل شيء".

تداعبها بينما تبلل جوانا رداء أمها الفضفاض بالدموع.

## جوانا تحلم

تتجول في سوق الأحلام، وضعت نساء السوق أحلاماً على قطع قماش كبيرة على الأرض.

يصل جدّ جوانا إلى السوق حزناً جداً لأنه لم يحلم منذ زمن طويل، تمسكه جوانا من يده وتساعدته على اختيار الأحلام؛ يختاران أحلاماً من الحلوى أو من القطن، أجنحة للطيران في أثناء النوم ويقلعان معاً محملين بأحلام لن يكون أي ليل كافياً لها.

## 1663: غواتيمالا القديمة

### دخول المطبعة

إن الأسقف انركويز ريبيرا هو من أشدّ المدافعين عن فرض العمل الإلزامي على الهنود، من دون أن يفكر بإعطاء الهنود شيئاً يفكر الأسقف بمن سيحرق الحقول وإذا لم يكن هناك أحد لحرثها، بمن سيحرق الأرواح؟

حين كان الأسقف يعدّ سجلاً عن ذلك يتلقى من بويبلا - أول مطبعة وصلت إلى غواتيمالا - طلب الرأس الروحي المثقف للكنيسة معها مجموعة حروف مطبعية وأسلوب المادة الطباعية وكلّ شيء لكي يقدر على طباعة أطروحته اللاهوتية.

لم يكن الكتاب الأول الذي نُشر في غواتيمالا مكتوباً بلغة المايا أو باللغة القشتالية، بل باللاتينية.

# 1663: ضفة نهر بارايبا

## الحرية

استمر نباح الكلاب وتبويق صيادي العبيد طويلاً قبل أن يتلاشى.  
عبر الهارب حقلاً من الجذامة المفترسة الطويلة وجرى نحو النهر.  
رمى نفسه على الأعشاب مديراً وجهه إلى الأسفل فاتحاً ذراعيه،  
مادا رجليه سمع أصوات الجنادب والزيزان والضفادع الصغيرة:  
"لست شيئاً، إن تاريخي ليس تاريخ الأشياء". قبل الأرض وعضها:  
"أخرجت قدمي من الفخ، لست شيئاً". ضغط جسده العاري على  
الأرض المبللة بالندى وسمع صوت نباتات صغيرة تنمو في التراب  
متلهفة للولادة. كان يتصور جوعاً ولأول مرة منحه الجوع السعادة.  
جسده مثخن بالجراح ولا يشعر بذلك، التفت نحو السماء وكأنه  
يعانقها، طلع القمر وضربه ضربات ضوء عنيفة، هبطت عليه سياط  
ضوئية من القمر والنجوم، نهض ونظر إلى جهته.

الآن إلى الأدغال، الآن إلى الشاشة الكبيرة للخضرة.

سأل الهارب نملةً تزحف على يده: "هل أنت ذاهبة أيضاً إلى  
بالماريس؟ دليني على الطريق".

## أغنية بالماريس

أيها الرجل الأسود

الرجل الأبيض لا يجيء إلى هنا

وإذا جاء

سيتكفل به الشيطان.

استرح أيها الرجل الأسود



إذا جاء سيغادر  
بعد أن يتذوق طعم هراواتنا.

## 1663: سيرا باريكا

### بالماريس

حين يلمع البرق في بعض الليالي يمكن أن تشاهد القمم البرّاقة لسلسلة الجبال من الشواطئ. أباد البرتغاليون على تلالها السفحية هنود الكايتي الذين حرمهم البابا كنسيا إلى الأبد لأنهم أكلوا الأسقف البرازيلي الأول. وهنا المكان الذي يأوي إليه العبيد السود الهاربون بعد أن وجدوا ملاذاً في السنوات العديدة الأخيرة في قرى بالماريس المخفية.

تشكل كل مجموعة حصناً وتمتدّ الحقول المزروعة الشاسعة وراء الأسيجة الخشبية المرتفعة وموائد الأوتاد الخشبية الحادة. يعمل المزارعون وأسلحتهم في متناول أيديهم وحين يعودون في الليل إلى الحصن يحصون الأجساد ليتأكدوا أنه لا يوجد مفقودون.

يحصلون هنا على موسمي ذرة سنوياً وعلى اللوبياء والمنيهوت والسكر والبطاطا والتبغ والخضار والفاكهة ويربّون الخنازير والدجاج. يأكل سود بالماريس أكثر وأفضل من سكان الساحل حيث يأكل الجميع قصب السكر الذي يُنتج لأوروبا ويسرق أوقات الجميع وأمكنتهم.

كما في أنغولا، تُعدّ شجرة النخيل ملكةً عند هذه الجماعات السوداء. ينسجون من خيوطها الملابس ويصنعون السلال والمراوح ويستخدمون السعف لبناء السقوف والأسرة ويأكلون لحم فاكهتها ويصنعون منها الخمرة، ويستقطنون زيت النار، من قشورها، ويجعلون دهونها للطبخ، ويصنعون منها أيضاً الغلايين. وكما في أنغولا يؤدي

الزعماء الشعائر النبيلة للحدّاد ويحتلّ مشغل الحدّاد مكان الشرف في الساحة حيث يجتمع الناس.

إلا أن أنغولا متعددة وأكثر أفريقية. ينحدر سكان بالماريس من ألف إقليم وألف لغة، إن لغتهم المشتركة الوحيدة هي التي سمعت من أفواه أسيادهم مترافقة مع أوامر يصدرها السوط على ظهر سفن العبيد وفي حقول القصب. إن اللغة البرتغالية المختلطة بكلمات أفريقية وكوارانية هي الآن عقد اتصال بين أولئك الذين أذلّتهم سابقاً.

منذ أن طرد الهولنديون من بيرنامبكو شنّ البرتغاليون أكثر من عشرين حملة عسكرية ضد أرض الأحرار هذه. كتب راو من البرازيل إلى لشبونة: "إن جيشنا الذي يستطيع أن يروّض كبرياء هولندا لم يصل إلى نتيجة مع هؤلاء البرابرة في غزواته الكثيرة والمتعاقبة لبالماريس".

لم يحالف الهولنديين حظ أفضل؛ انتهت حملاتهم بالفشل أيضاً. حرق البرتغاليون والهولنديون قرى فارغة وضاعوا في الأدغال ملتفتين حولهم كالمجانين تحت أمطار عنيفة. شنّوا الحرب ضدّ ظلّ يعرض ويهرب. وكانوا يدعون النصر في كل مرة. لم يفلح أي منهما في تدمير بالماريس أو منع هرب العبيد الذين يغادرون "ملك السكر" وبلاطه من دون عمل، رغم أن الهولنديين صلبوا سودا متمردين والبرتغاليين جلدوا وبتروا ليبتوا الخوف والعبرة.

عادت إحدى الحملات البرتغالية على بالماريس لتوها إلى ريسيف فارغة اليد، كان يقودها ضابط أسود علي رأس منتهي جندي أسود يدعى كونكالو ريبيلو. ذبحوا بعض الأسرى الذين استطاعوا القبض عليهم.

## 1665: مدريد

### تشارلز الثاني

يهتز الملك الجديد ويبكي، يرفعونه من الخلف بحملات مربوطة إلى الإبطين والخصر. لا يعرف أن يتحدث ويمشي في سن الرابعة ويجب أن ينتزعه عن حملات أربعين حاضنة ليجلسوه على عرش إسبانيا.

إنه يبكي الآن لأن التاج المنزلق فوق عينيه يؤلمه ولأنه يريد أن يعود ليلعب مع الأقزام ويشرب الحليب الدافئ للجنّيات.

عاش هذا الضعيف بفعل معجزة أو شكراً لحقيقة أنهم لم يغسلوه حتى عندما ولد رغم أن رأسه وعنقه مغطيان بالجروح المتقيحة للجرب (لا أحد يستحم في البلاط حتى منذ أن توفي دومينغو سينتوريون من البرد منذ عشرة أعوام).

”آرورو“، يتلثم الملك ويضع قدمه على أذنه.

## 1666: أمستردام الجديدة

### نيويورك

أسقط الإنكليز ببضع طلقات من مدافعهم العلم الذي كان يرفرف فوق الحصن، واحتلوا جزيرة مانهاتن من الهولنديين الذين اشتروها من هنود الديلاوير مقابل ستين فلورينا.

قال هنود الديلاوير، متذكّرين وصول الهولنديين منذ أكثر من نصف قرن: ”أراد الرجل العظيم فقط أرضاً صغيرة بمساحة جلد ثور ليزرع فيها الخضار من أجل حسائه. كان أول شيء لاحظناه هنا أرواحهم المخادعة“.

صارت أمستردام الجديدة، أهم سوق عبيد في شمال أميركا وتدعى الآن نيويورك وسُمِّي وول ستريت باسم الجدار الذي شيّد ليمنع هرب العبيد.

## 1666: لندن

### الخدم البيض

تنحدر ثلاث سفن مليئة بالخدم البيض في نهر التايمز متجهة إلى البحر. حين يفتحون بوابات الهبوط في جزيرة باربادوس البعيدة سيذهب الأحياء إلى مزارع السكر والقطن والتبغ، وسيذهب الموتى إلى قاع الخليج.

يسمّون المتاجرين بالخدم البيض أرواحاً وهم ماهرون جداً في تبخير البشر؛ يرسلون إلى جزر الأنتيل العاهرات والمتشردين الذين خطفوا في أحياء لندن الفقيرة والشبان الكاثوليكيين الذين اصطيدوا في إيرلندا وإسكتلندا والسجناء الذين ينتظرون المقصلة في السجن. يستيقظ السكارى الذين أسروا على رصيف المرفأ ومعهم في الرحلة إلى أميركا بعض الفتيان الذين أغروا بالحلويات ومغامرون كثيرون خدعوا بوعود ثروة سهلة. هناك سيعتصرون في مزارع باربادوس أوجاماياكا أو فيرجينيا إلى أن يردوا الثمن الذي دفع لشرائهم وأجرة الطريق.

يحلم الخدم البيض بأن يصبحوا مالكين للأرض وللأسود، حين يستعيدون حريتهم بعد أعوامٍ من الندم والكدح بلا مقابل، كان أول ما يفعلونه هو أن يشتروا زنجياً ليهوِّي لهم في ساعة القيلولة.

يوجد أربعون ألف عبد أسود في باربادوس. سجّلت الولادات في كتب إحصاء المزرعة، يسعّر الزنجي الصغير عند الولادة بنصف جنيه استرليني.

# 1666: جزيرة تورتوكا

## صلوات القراصنة

حين نهب ديفيدنو، المعروف باسم إيل أولونيس مدينة ريميديوس ماراكايبو فرم بقطلسه<sup>40</sup> كثيراً من الإسبانيين، عادت سفنه بنصف سرعتها بسبب وزن الثروة المسروقة.

يرسو إيل أولونيس، وبين قدميه يهزّ ذيله وينبح صديقه الوحيد الذي يثق به ورفيقه في مغامراته. تجيء خلفه مجموعة من الرجال خرجت حديثاً من نسيج عنكبوت حبال الأشرعة والصواري جائعة للخمّارات والنساء والأرض الصلبة.

على هذه الرمال الحامية التي تقدر أن تسلق بيض السلاحف يقف القراصنة صامتين في أثناء قدّاس طويل، بأجسادهم المرقّعة وستراتهم المتسخة ولحاهم المدهنة ووجوههم التي تشبه السكاكين التي ثلمتها السنين. إذا تجرأ أيّ شخص على السعال أو الضحك في أثناء القدّاس يسقطونه بطلقة ويرسمون إشارة الصليب. إن كل قرصان يشكل مستودع أسلحة؛ يحمل على خصره أربعة سكاكين وحرية موضوعة في غمد مصنوع من جلد تمساح ويحمل مسدسين وسيفاً وبنديقية معلقة على الصدر.

توزّع الغنائم بعد القدّاس بدءاً بالبتورين؛ كلّ من فقد ذراعه اليمنى يحصل على ستمائة بيزو أو على ستة عبيد، وكل من فقد الذراع اليسرى يحصل على خمسمائة بيزو أو خمسة عبيد. وينطبق هذا الثمن على القدمين وكلّ من فقد عيناً أو إصبعاً على شواطئ كوبا وفنزويلا له الحق بمائة بيزو وعبد واحد.

<sup>40</sup> قطلس: سيف قصير ثقيل.

يبدؤون عمل اليوم بكوّوس الروم وينهونه بشواء شرائح لحم السلاحف، يُطهى لحم السلاحف المقطع ببطء تحت الرمل المغطى بالجمر داخل الدروع مع مح البيض والبهارات وهذا يعتبر أفضل طبق للحفلات في الجزيرة. يشعل القراصنة غلايينهم مستلقين على الرمال مسلمين أنفسهم للدخان والحنين.

حين يخيم الليل يغطون باللالئ جسد امرأة خلاسية ويهمسون لها قصص الرعب والعجائب، قصصاً عن الشنق والتحميل والكنوز ويقسمون لها إنهم لن يبحروا ثانية في وقت قريب. يشربون ويمارسون الحب دون أن ينزعوا أبواطهم؛ الأبواط التي ستصل غدا حصى المرفأ باحثة عن سفينة من أجل غارة أخرى.

## 1667: مدينة مكسيكو

### جوانا في السادسة عشرة

يحدّد الجرس في السفن أوقات المراقبة وفي المناجم وحقول القصب يستدعي الهنود الأتقان والعبيد السود إلى العمل. يحدّد المواعيد في الكنائس ويعلن عن القداسات والوفيات والحفلات.

لكن، في البرج الذي يقع فوق قصر نائب الملك، يتدلى جرس صامت، قيل إن المفتشين أخذوه من برج الأجراس في قرية إسبانية قديمة وأزاحوا لسانه ونفوه إلى الآنديز، ولا يعرف أحد متى حصل هذا. منذ أن صنعه المايسترو رودريغو عام 1530 كان هذا الجرس دائما نظيفا ومطيعا. قيل كان له مائة نغم على هوى قارعه، وكانت القرية كلها فخورة به، إلى أن جاءت ليلة جعل فيها رنينه العنيف المتواصل الجميع يقفزون من أسرّتهم. كان الجرس يعلن الخطر بدافع من الفرح أو الخوف أو بما لا يعرف أحد ماذا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يفهمه فيها أحد. اجتمع حشد في الردهة بينما كان الجرس يرنّ بجنون وذهب رئيس البلدية والعش إلى البرج وأكدا، وهما متجمدان من الخوف،

أنه لا يوجد أحد هناك، لم تحركه يد بشرية. نقلت السلطات القضية إلى محكمة التفتيش. أعلن مجلس التفتيش أن قرع الجرس لا قيمة له إطلاقاً وأنه أصمت إلى الأبد ونفي إلى المكسيك.

تمشي جوانا آنيز أسباخي خارج قصر حاميها، نائب الملك مانسيراً وتعبر الساحة الكبيرة يتبعها هنديان يحملان صندوق ثيابها، تصل إلى الزاوية، تقف وتنظر إلى البرج وكأن الجرس الصامت يناديها، إنها تعرف قصة حياته، تعرف أنه عوقب لأنه كان يغني لوحده.

تتجه جوانا إلى دير سانتا تيريزا لا أنتيغوا، لم تعد سيدة في البلاط، ستبحث في الضوء الهادئ للأروقة وعزلة الحجر عمّا لا تستطيع أن تجده في الخارج، كانت تودّ أن تدرس ألغاز العالم في الجامعة إلا أن النساء يولدن محكوماً عليهن بالتطريز وبالزواج الذي يتم اختيارهن له. ستصبح جوانا راهبة حافية القدمين وستلقب نفسها سور جوانا آنيز لاکروز.

## 1668: جزيرة تورتوكا

### الكلاب

لم يتبق هنود في هذه الجزيرة التي تقع شمال هايتي، إلا أن الكلاب التي أحضرها الإسبان لاصطيادهم ومعاقتهم بقيت.

تتنازع كلاب الدّرواس التي تكاثرت وتتحرك في قطعان مع القراصنة الفرنسيين للسيطرة على هذه الأرض، يسمع نباحها ليلاً بعد أخرى من الأدغال، يرتجف القراصنة وهم نائمون وراء متاريسهم.

تنتمي جزيرة تورتوكا إلى المشروع الذي أسسه الوزير الفرنسي كولبرت لإدارة تجارة العبيد والقراصنة. عيّن المشروع برتراند دي أوغبيرون حاكماً وهو سيد له مقام رفيع بين القراصنة وقطاع الطرق.

أحضر الحاكم من فرنسا شحنة سمّ لقتل بعض الأحصنة التي نُشرت جيفها في الجزيرة وملئت بطونها بالسمّ. وبهذه الطريقة توقع أن يضع حداً لتهديد الكلاب المتوحشة.

## 1669: بلدة جبرالتر

### كلّ ثروة العالم

واصل رجال هنري مورغان البحث على طول شواطئ بحيرة ماراكيبو عن كنز إيل أولينسو المدفون، والذي لم يستطع حمله معه، فرغم كل الوقت والجهد الذي بذل لم يكن أولينسو يمتلك الوقت الكافي والسفن الكبيرة لتحميله.

بدأ الإنزال بعد رشق المدافع المضاد، قفز القراصنة من مراكبهم الصغيرة ودخلوا المدينة التي يتصاعد منها الدخان بسيوفهم المشهورة. لا أحد هناك. لا شيء هناك.

استقبلهم شاب رثّ الملابس في وسط الساحة ضاحكاً. كان للقبعة الكبيرة التي تغطي عينيه حافة مكسورة تتدلى على كتفه. صاح: "سرّ، سرّ". حرك ذراعيه كطاحونة هواء ضارباً ذباباً متخيلاً ولم يتوقف عن الضحك.

حين خدش حدّ سيف حنجرته همس: "لا تناموا وأقدامكم عارية وإلا ستأكلها الخفافيش".

يصبح الجوّ كثيفاً بالدخان والبارود، غنى مورغان من الحرارة وفقدان الصبر، قيّدوا الشاب: "أين أخفوا المجوهرات؟". ضربوه: "أين الذهب؟". فتحو الجراح الأولى في خديه وصدره.

صرخ: "أنا سيباستيان شانشير! أنا شقيق حاكم ماراكيبو، أنا شخص مهم جداً".



قطعوا نصف أذنه.

جروه، قاد الشاب القراصنة إلى كهف عبر غابة وكشف كنزهِ؛ كان هناك صحنان من الصلصال مخبآن تحت الأغصان، وحدٌ صدىء لمرساة ودرع فارغ، وبعض الريش الملون والحجارة ومفتاح وثلاث قطع نقدية صغيرة.

كرر مالك الكنز قائلاً: "أنا سيباستيان شانشيز"، وهم يقتلونه.

## 1669: ماراكايبو

### الطوق المحطّم

اكتشف مورغان فجراً أن سفناً إسبانية خرجت من الليل وأغلقت المدخل إلى البحيرة. قرر الهجوم؛ أرسل أمام أسطوله مركباً أحادي الصاري ضدّ بارجة الأدميرال. كانت راية الحرب ترفرف متحدية فوق المركب المليء بالزفت والقار والكبريت الذي حصل عليه مورغان في ماراكايبو، ووزعت علب البارود في جميع الزوايا. كان الطاقم مؤلفاً من بعض الدمى الخشبية، التي ترتدي القمصان والقبعات. انفجر الأدميرال الإسباني دون ألونزو ديل كامبو في الجو دون أن يكتشف أن مدفعيته أطلقت على برميل بارود.

هجم أسطول القراصنة، كسرت فرقاطات مورغان الطوق الإسباني بنيران المدفعية وريح البحر المفتوح. أبحر محملاً بالذهب والمجوهرات والعبيد.

تبختر هنري مورغان في ظلّ الأشعة مرتدياً من رأسه إلى قدميه غنائم ماراكايبو. كان يملك منظارا ذهبياً وبوطاً أصفر اللون مصنوعاً من جلد قرطبي، أما أزرار سترته فزمرّد صنعه صائغو أمستردام.

ترفع الريح التخريم الزبديّ لقميصه الحريري الأبيض وتحمل من بعيد صوت امرأة تنتظر مورغان في جامايكا، تلك الخلاسية

النارية التي حذرته على رصيف المرفأ حين ودّعته قائلة: "إذا مت سأقتلك".

## 1670: ليما

### احزن من أجلنا

قال له هنود مناجم بوتوسي بلا كلام: "احزن من أجلنا"، وكتب العام الماضي الكونت ليموس، نائب الملك في البيرو إلى ملك إسبانيا: "لا يوجد شعب في العالم مرهق هكذا، إنني أريح ضميري وأعلم جلالتكم بكل وضوح: إن ما يجلب إلى إسبانيا ليس فضة بل دم الهنود وعرقهم".

رأى نائب الملك الجبل الذي يأكل الرجال، يحضر الهنود من القرى مقيدون معاً بياقات حديدية وكلما ابتلع الجبل مزيداً من الهنود يزداد جوعه. أفرغت القرى من الرجال.

بعد أن يرسل التقرير إلى الملك يحظر الكونت ليموس فترات العمل التي تستمر أسبوعاً في الأنفاق المخيفة، تقرع الطبول ويعلن في الشوارع: "يأمر نائب الملك أن الهنود سيعملون في المستقبل من الشروق إلى الغروب لأنهم ليسوا عبيداً كي يقضوا الليل في المناجم".

لا يكثر أحد بذلك.

تلقى جواباً في قصره في ليما من مجلس الأنديز في مدريد، رفض المجلس قمع العمل الإجباري في مناجم الفضة والزئبق.

# 1670: سان خوان آتيتلان

## متطفل في المذبح

يحمل الحمار في الصباح الأب ماركوز رويز إلى قرية سان خوان آتيتلان، من يعرف فيما إذا كانت الموسيقى اللطيفة للماء والأجراس التي يحملها النسيم تجيء من القرية أو من الحلم؟

يلف ويدور كثيراً قبل أن يصل آتيتلان القرية التي تقع عميقاً في الريف الوعر. من المعروف جيداً أن الهنود يزرعون محاصيلهم في الزوايا الأكثر خفاءً في الجبال ليبياعوا في تلك المخابئ المهتم الوثنية.

حين يصل إلى المنازل الأولى يبدأ فراي ماركوز بالاستيقاظ، كانت القرية مهجورة ولم يأت أحد لاستقباله، ترف عيناه بعنف لدى وصوله إلى الكنيسة؛ كانت تغص بالبشر، يخفق قلبه بشدة وهو يشق طريقه إلى الداخل ويحك عينيه ليرى ما يحدث؛ كان الهنود في الكنيسة مزينين بالأزهار ومعطرين كما لم يحدث من قبل ويعبدون أبله القرية؛ كان جالساً على المذبح مغطى من رأسه إلى قدميه بالثياب المقدسة، ويتلقى هدايا البخور والفاكهة والطعام الساخن وسط جدول من الخطب والترنيمات الغامضة. لا يسمع أحد صرخات فراي ماركوز الساخطة الذي ينسحب بسرعة لبحث عن الجنود.

يغضبُ المشهَدُ الراهبَ الورعَ، إلا أن دهشته لا تستمر طويلاً، فبعد كل شيء ما الذي يستطيع المرء أن يتوقعه من هؤلاء الوثنيين الذين يعتذرون من الشجرة حين يقطعونها، ولا يحفرون بثراً إلا بعد أن يعتذروا من الأرض؟ ألا يخلطون الله بحجر أو بآخر؟ بصوت جدول متدفق أو رذاذ مطر؟ ألا يسمون الخطيئة الجسدية لعباً؟

## الأبله

تشرق الشمس لحظة من خلال السحب ثم تختبئ خجلة أو خائفة من تألق البشر هنا في الأسفل لأن الأرض مضاءة بالفرح؛ رقص حواري، مسرح للرقص، مسرحيات هزلية موسيقية ظريفة وواضحة. يدير الأبله المهرجان ليس باللغة النهواتلية أو الإسبانية بل بلغة هجينة نمت في نيكاراغوا وغذاها ألف مصطلح طوره الناس لأنهم تحدثوا بجرأة وابتكروا، وهم يتحدثون، فلقلاً حاراً من مخيلة شعب يسخر من أسياده.

يشغل هندي عريق ومتحدث سريع أجش الصوت وسط المسرح. إنه الأبله أو المعروف باسم الفأر ماشو الذي يسخر من المنوعات، الذي لا يقول أبداً ما يقوله ولا يصغي لما يسمعه ويتجنب ببراعة أن يتمّ تحطيمه من قبل الأقوى: حين لا يستطيع أن ينجز انسحاباً يرتبك.

## 1670: كوزكو

### العجوز مولي

تنوء جدران الكاتدرائية بالذهب، تهيمن على العذراء الداكنة ذات الشعر الأسود الذي يتدفق من تحت قبعتها القشبية والتي تحمل لامة صغيرة بين ذراعيها، يحيط بصورتها البسيطة بحر مزبد من الزبد المخرم. تريد كاتدرائية كوزكو أن تتقياً من جوفها الغني هذه العذراء الهندية، عذراء اليأس وكأنه لم يحدث منذ زمن بعيد أن منع بوابوها امرأة عجوزا حافية من الدخول.

صرخ الكاهن عن المنبر: "اتركوها وشأنها، دعوا هذه الهندية تدخل؛ إنها أُمي".

يسمي الجميع الكاهن خوان إسبينوزا ميدرانو باسم العجوز ذي الشامات لأن الله غطى وجهه بالشامات. حين يعظ العجوز ذو الشامات تتجمع الحشود في الكاتدرائية، ولا يوجد في الكاتدرائية البيروفية خطيب أفضل منه. والأكثر من ذلك أنه يدرس اللاهوت في معهد سان أنطونيو اللاهوتي ويكتب المسرحيات، تشبه ملهاته "أحبب موتك" التي كتبها بالإسبانية، لغة والده، المنبر الذي يلقي منه مواعظه؛ أشعار فخمة تدور في بناء أرابيسكي متباهية ومسرفة كالكنائس الاستعمارية. وفي نفس الوقت كتب بلغة الكويتشو، لغته الأم مسرحية دينية طقسية تركيبها بسيط وأسلوبها تسلسلي ولغتها واضحة تدور حول موضوع الابن الضال. في هذه المسرحية الشيطان مالك أراض بيروفي والخمرة هي الشيكو والعجل التوراتي خنزير سمين.

## 1671: مدينة بنما

### حول دقة المواعيد

مر أكثر من عامين على وصول هنري مورغان إلى بنما في سفينة على رأس حفنة من الرجال وعصف بمتاريس بورتو بيللو حاملاً سكيناً بين أسنانه. استولى بقوته الصغيرة وبدون بنادق ومدافع على هذا المعقل المنيع وطلب كي لا يحرقه، جبلاً من الذهب والفضة كفدية. أرسل حاكم بنما الذي هزمه وحرره من وهمه هذا العمل الفذ ليطلب من مورغان مسدساً كالذي استخدم في الهجوم.

قال القرصان: "ليحتفظ به لمدة عام وسأذهب لأعيده".

يدخل الآن إلى مدينة بنما متقدماً بين أسنة الذهب، يرفرف العلم الإنكليزي في إحدى يديه وتمسك الأخرى بقطلس، يتبعه ألفا رجل

وعدة مدافع، تحوّل النار الليل إلى نهار، يعلو صيف آخر فوق الصيف الأبدي لهذه الشواطئ، يلتهم المنازل والأديرة والكنائس والمستشفيات ويلعق شفتي القرصان الذي يصرخ: "أنا هنا من أجل المال وليس من أجل الصلوات".

بعد كثير من القتل والحرق يتحرك متبوعاً بقافلة لا نهائية من البغال المحمّلة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.  
يرسل مورغان اعتذاراته إلى الحاكم عن تأخره.

## 1672: لندن

### عبء الرجل الأبيض

أسّس دوق يورك، شقيق ملك إنكلترا شركة المشاريع الملكية منذ تسعة أعوام. اشترى المزارعون الإنكليز في الأنتيل عبيدهم من تجار عبيد هولنديين إلا أن التاج لم يسمح بالحصول على هذه المواد من الأجانب. رتب المشروع الجديد التجارة مع أفريقيا وضّم مالكي أسهم من نوي المكانة الرفيعة؛ الملك تشارلز الثاني، ثلاثة دوقات، ثمانية إيرلات، سبعة لوردات وكونتيسة وسبعة وعشرين فارساً. تمجيداً لدوق يورك طبع الضباط الحرفين الأولين من اسمه على صدور ثلاثة آلاف عبد من الذين كانوا ينقلونهم سنوياً إلى باربادوس وجاماика بالحديد المحمّى.

سيدعى المشروع الآن شركة أفريقيا الملكية. شجّع الملك الإنكليزي الذي يملك معظم الأسهم على شراء العبيد في مستعمراته حيث تزيد كلفة العبيد ست مرات عنها في أفريقيا.

بدأت أسماك القرش رحلتها إلى الجزيرة وراء السفن منتظرة الأجساد التي ترمى عن ظهورها.

يموت كثيرون لأنه لا يوجد ماء كاف والأقوياء جداً يشربون ماهو متوفر، أو يموتون من الزحار والجذري ويموت كثيرون من الكآبة، يرفضون أن يتناولوا الطعام ولا توجد طريقة لفتح أفواههم.

يستلقون في صفوف، محطمين فوق بعضهم، تلمس أنوفهم ظهر المركب، تُقَيِّدُ رسوغهم وتسلخُ الأغلالُ كعابهم. حين يتوجب إغلاق فتح الرمي في البحار العاصفة أو في المطر، ترتفع حرارة كمية الهواء القليلة إلى درجة الحمى ولكن حين تفتح الكوى يفوح المعتقل برائحة الكراهية والحدق المتخمر، أكثر إتنانا من زنج المسالخ وتصبح الأرضية زلقة من الدم والتقيؤ والبراز.

يصغي البحارة الذين ينامون على السطح في الليل إلى الأنين الذي لا يتوقف الصاعد من الأسفل، وعند بزوغ الفجر يصغون لصرخات أولئك الذين حلموا أنهم كانوا في بلادهم.

## أغنية شعب الماندينغو عن طائر الحب

دعني، آه ياديامبير

أنت أيها الذي يرتدي حزاماً بهدايات طويلة

دعني أغني للطيور

التي تصغي للأميرة الراحلة

وتتلقى آخر أسرارها

وأنتن يا عذراوات، غنّين، غنّين

بنعومة

للطائر الجميل

وأنت ياسيد البندقية المرعبة

دعني أنظر إلى طائر الحب

الطائر الذي أحبه أنا وصديقي  
دعني يا سيد الرداء الرائع  
يامالك الثياب المتألقة  
أكثر من ضوء النهار  
دعني أحب طائر الحب

## 1674: ميناء رويال

### مورغان

كان طفلاً حين باعوه لتاجر في بريستول، باعه الضابط الذي أخذه إلى الآنتيل ببضع قطع نقدية في باربادوس.

تعلّم في تلك الجزر أن يكسر بضربة فأس واحدة أي غصن يصدّم وجهه، وتعلّم أنه لا يوجد ثروة لا تجرم الأب أو لا تسيء إلى الأم. أمضى أعواماً يسرق السفن ويرمّل النساء. كان يقطع ببساطة الأصابع التي ترتدي الخواتم الذهبية، إنه أميرال القراصنة، يعلق دائماً على عنقه التي تشبه الضفدعة رخصة القرصنة التي تضي طابعا قانونيا على وظيفته وتحميه من المشنقة.

منذ ثلاثة أعوام وبعد نهب بنما، نقلوه إلى لندن كسجين، حرّره الملك من الأغلال وسماه فارس البلاط وعينه حاكما على جامايكا.

صاغ الفيلسوف جون لوك تعاليمه عن الحكومة الجيدة من هذه الجزيرة التي هي مقرّ القراصنة الإنكليز. أكد مورغان أن الكتب المقدّسة والكلاب التي تصطاد الهاربين ستكون موجودة وسيشنق أخوته القراصنة في كل مرة يقرّر فيها ملكه تحسين علاقاته مع إسبانيا.



يهبط حديثاً في ميناء رويال، ينزع قبعته المرّيشة، يسكر من الروم ويفرغ الإناء على شعره المستعار الكثير الالتفاف، يصيح القراصنة ويلوحون بسيوفهم وهم يتبادلون الأنخاب.

الحصان الذين ينقل مورغان إلى قصر الحكومة مُنَعَل بالذهب.

## 1674: بوتوسي

### كلوديا الساحرة

حرّكت الغيوم بيدها وسلّطت ومنعت العواصف، أعادت البشر بطرفة عين من أراض بعيدة ومن الموت، مكنت حاكم مناجم بوركو أن يشاهد مدينته مدريد في مرآة وقدمت على مائدة دون بدرودي آيامونت الذي جاء من أتريرا كعكات مطهّوة حديثاً في فرن انزيرا. جعلت الحدائق تزهّر في الصحارى وحولت العاشقات المحترفات إلى عذراوات، أنقذت أسرى لاندوا إلى منزلها بتحويلهم إلى كلاب وقطط. قالت إن الأوقات السيئة بحاجة إلى وجه متألّق، وصرعت الجوع بالغيّطار، كانت تعزف على غيتارها وتهزّ دفها لتسفي المرضي وتبعث الموتى. إذا كنت صامتا ستجعلك تتحدّث وإذا تحدّثت كثيرا تستطيع أن توقّفك عن الكلام. مارست الحبّ علناً مع شيطان أسود في الريف، وهربت بعد منتصف الليل.

ولدت في توكامان وماتت هذا الصّباح في بوتوسي، استدعت وهي على فراش موتها كاهناً يسوعياً وطلبت منه أن يخرج من الدرج قطع شمع معيّنة ويزيح الدبابيس الملصقة عليها لكي يشفي خمسة كهنة زرعت فيهم المرض.

عرض عليها الكاهن الاعتراف والرحمة الإلهية، إلا أنها ضحكت وماتت وهي تضحك.

# 1674: يورك تاون

## الجواد الأولي

تحدّى جيمس بلوك وهو خياط من يورك تاون، ماثيو سيلدر في سباق أحصنة، غرّمته المحكمة الإقليمية بسبب جرّاته وحذرتّه أنه من المخالف للقانون أن يشارك في سباق لأن هذه الرياضة خاصّة بالسادة. يجب أن يدفع بلوك ما يعادل منتي رطل من التبغ.

بشر على أقدامهم، أرسقراطيون على خيولهم، هالة الأرسقراطية هي الغبار الذي ترفعه الحوافر على طول الطريق، تصنع حوافر الأحصنة أو لا تصنع الثروة. يخرج فرسان التبغ من عزلة المزرعة مرتدين ثيابا حريرية وشعرا مستعارا مجعدا من أجل السباق بعد ظهر أيام السبت، ومن أجل الحديث عن الخيول في أوقات المساء، يتناقشون فوق أكواز عصير التفاح والبراندي ويتراهنون بينما يُرمى النرد على الطاولة، يقامرون بالمال أو التبغ أو العبيد السود أو الخدم البيض، ويرهنون فقط في ليالي العظمة أحصنتهم؛ يقاس الحصان الجيد بقيمة مالكه، مزارع التبغ الفرجينى الذي يعيش ويحكم وهو على ظهر الحصان وعلى ظهره يموت طائرا كالريح إلى البوابات السماوية.

لا يوجد وقت في فيرجينيا لأي شيء آخر، استطاع الحاكم ويليام بيركلي منذ ثلاثة أعوام أن ينوّه بفخر: "أشكر الله، لا يوجد مدارس مجانية ولا طباعة وأمل أن لا نحصل على كليهما لمئات السنين لأن التعليم يولد العصيان والهرطقة والانقسام وتنتشر الطباعة ذلك".

# 1676: وادي كونيتيكت

## فأس المعركة

ينتفض هنود الوامبانوغ حين تسقط الثلوج الأولى. لقد تعبوا من رؤية حدود نيوانجلاند تمتد جنوباً وغرباً بقدمين سريعتين. خربوا وادي كونيتيكت وهم يقاتلون على بعد أقل من عشرين ميلاً من بوسطن.

يجر الحصان راكبه على الأرض بعد أن علقت رجله بالركاب، لقد قتله سهم. يضرب المحاربون الرشيقيون، ضحايا السلب والنهب، يختفون. وهكذا يدحرون الغزاة نحو الساحل حيث جاؤوا منذ أعوام.

# 1676: بليموث

## ميتاكوم

مات نصف السكان الهنود في الحرب. تستلقي إثنتا عشرة بلدة إنكليزية في الرماد.

يحضر الإنكليز في نهاية الصيف رأس ميتاكوم زعيم الوامبانوغ إلى بليموث؛ إن ميتاكوم هو الشيطان الذي حاول أن ينتزع من الطهرانيين المستعمرين الأراضي التي خصهم الله بها.

تتناقش محكمة بليموث العليا: "ماذا نفعل بولد ميتاكوم؟ أنرسله إلى المشنقة أم نبيعه؟" آخذين بعين الاعتبار سفر تثنية الاشرع وأول كتاب الملوك والمزامير قرر القضاة أن يبيعوا ولد ميتاكوم الذي يبلغ التاسعة من العمر في أسواق النخاسة في جزر الآنتيل.

وكدليل على الكرم قدّم المنتصرون للهنود قطعة أرض صغيرة ممّا كان لهم، في المستقبل ستوضع القبائل الهندية التي قاتلت أو لم تقاتل مع متياكوم في أربعة أراضٍ مفردةٍ في خليج ماساتشوسيتس.

## 1677: بلدة الطريق القديم

موت هنا، ولادة هناك

إن الجسد الذي يعرف القليل لا يعرف ذلك، ولا الروح التي تتنفس، بل الروح التي تحلم، التي تعرف أكثر، تعرف ذلك؛ إن الرجل الأسود الذي يقتل نفسه في أميركا يولد في أفريقيا. مات كثير من عبيد جزيرة القديسة كيتس رافضين تناول الطعام، أو أكلوا فقط التراب والرماد والكلس، شق آخرون أنفسهم بالحبال. وفي الغابات بين الأعشاب المتعرّشة التي تعلق بالأشجار تدلى عبيد انتحروا، لا ليحموا ذكرى الألم، بل لينطلقوا في قوارب بيضاء في رحلة العودة الطويلة إلى أرض أسلافهم.

يتقدّم شخص من البوارو مالك للمزارع، عبر الأوراق ويقطع بمنجله رؤوس المشنوقين.

ينصح الأحياء: "اشنقوا أنفسكم إذا أردتم، لن تكون لكم رؤوس هناك في بلدانكم ولن تقدرُوا على الرؤية والسمع والكلام وتناول الطعام".

يدخل مزارع آخر يدعى كريبز، خاصي الرجال، إلى الغابة ومعه عربة مليئة بورق السكر وقطع آلة الطحن، يبحث ويعثر على عبيده الفارين الذين تجمعوا سوية وكانوا يجهزون أنفسهم للانتحار، قال لهم:

- "سأشوق نفسي معكم، سأرافقكم، اشتريت مطحنة سكر كبيرة في أفريقيا وهناك ستعملون عندي".

يختار كرييز شجرة كبيرة، يربط الحبل حول عنقه ويزلق العقدة المنزلقة، يراقبه السود منذهلين، إلا أن وجهه كان فقط ظلاً تحت القبعة القشبية ويردد: "هيا بنا جميعاً! هيا بسرعة أحتاج إلى سواعد في غينيا".

## 1677: بورتوكالفو

بعد القائد بالأراضي  
والعبيد والألقاب الرفيعة

ينطلق الجيش باكراً في الصباح من بورتوكالفو، يتقدم الجنود والمتطوعون والذين وقعت عليهم القرعة لمحاربة السود الأحرار في الماريس الذين يحرقون حقول القصب في جنوب بيرانمبكو.

يخاطب فيرناوكاريلهو القائد الأعلى مقاماً في الحرب جنوده بعد القدّاس: "إن جيش أعدائنا كبير وهو جيش عبيد؛ لقد خلقتهم الطبيعة ليطيعوا لا ليقاوموا. إذا سحقناهم سنحصل على أراضٍ لمزارعنا وعلى سود لخدمتنا وعلى شرف لأسماننا. إن السود يقاتلون كالفارين ونحن سنطاردهم كاللوردات".

## 1678: ريسيف

غانكا زومبا

في عيد قدّاس الشكر الذي يقام في الكنيسة الأم، يلتقط حاكم بيرانمبكو آيريس سوسا كاسترو أذيال معطفه ويركع أمام عرش

الأكثر قداسة، كان يركع إلى جانبه غانكا زومبا، الرئيس الأعلى لفيدرالية بالماريس.

ترنّ الأجراس، تصخب المدفعية والطبول، يمنح الحاكم غانكا زومبا لقب ضابط النظام، وكدليل على الصداقة يتبنى اثنين من أولاده اللذين سيحملان اسمه. تمت الاتفاقية في نهاية محادثات السلام التي عقدت في ريسيف بين وفد ملك البرتغال وممثلي بالماريس، سيتم إفراغ المعابد البالماريسية؛ أعلن أن جميع الذين ولدوا هنا أحرار أما الذين يحملون علامة الوشم فيجب أن يعودوا إلى أسيادهم.

إلا أن زومبي ابن أخ غانكا زومبا قال: "لن أستسلم".

بقي زومبي في ماككوس عاصمة بالماريس وأعار أذنأ صماء للجماعات المتعاقبة التي منحته الصفح.

من بين ثلاثين ألف بالماريسي، رافق غانكا زومبا خمسة آلاف شخص فقط، إذ إن الآخرين عدوه خائناً يستحق الموت والنسيان.

قال زومبي: "لا أصدق كلمة أعدائي، إن أعدائي أنفسهم لا يصدقونها".

## رقية يوروبا ضدّ العدو

حين يحاولون اصطياد حرباء

من بين الأغصان

تتقمص الحرباء لون الأغصان

فلا يستطيعون التمييز بينهما

حين يحاولون اصطياد تمساح

في قاع النهر

يتقمص التمساح لون المياه  
ولا يستطيعون تمييزه عن الجدول  
حين يحاول الساحر أن يصطادني  
يمكن أن أتقمص سرعة الريح  
وأنجو

## 1680: سانتا في مكسيكو

### صليب أحمر وصليب أبيض

تعلن عقد الحبل المصنوع من ألياف الصبّار عن التمرد وتحصي أيام الانتظار. ينقله الرسل الأكثر سرعة من قرية إلى أخرى في نيو مكسيكو إلى أن يشرق أحد الغضب.

تنتفض أربع وعشرون قبيلة هندية، بقيت من القبائل الست والستين التي عاشت في الأراضي الشمالية حين وصل الفاتحون. نجح الإسبان في قمع التمرد في قرية أو قريتين.

- "استسلم".

- "أفضل الموت".

- "ستذهب إلى الجحيم".

- "أفضل الجحيم".

يتقدم الذين ينتقمون لألمهم ويدمرون الكنائس والحصون ويصبِحون بعد بضعة أيام أسياد الإقليم بأسره. يغتسل الهنود في النهر ويدلكون أجسادهم بنباتات الأموال ليزيلوا زيت التعميد ويتخلصوا من الأسماء المسيحية، يرتدون ثيابا كالكهنة ويشربون أنخاب استعادة أراضيهم

وآلهتهم، يعلنون أنهم لن يعملوا ثانية أبداً للآخرين وأن اليقطين سينمو في كل مكان وستلج الدنيا قطناً.

ترسم أنشطة حول مدينة سانتا في آخر معقل إسباني في هذه الأقاليم البعيدة. يعدو زعيم الهنود إلى الأسوار مسلحاً ببندقية وخنجر وسيف مرتدياً قطعة نسيج حريرية وجدها في دير، ويرمي عند قدم السور صليبين أحدهما أبيض والآخر أحمر.

- "إن الصليب الأحمر هو المقاومة والأبيض هو الاستسلام، اختاروا أحدهما".

يدير ظهره إلى العدو المحاصر ويختفي في هبة غبار.

يقاوم الإسبان، إلا أنهم يرفعون العلم الأبيض بعد عدة أيام. جاؤوا منذ فترة بحثاً عن مدن سيبولاً الذهبية الأسطورية، الآن يبدوون الانسحاب جنوباً.

## 1681: مدينة مكسيكو

### جوانا في سن الثلاثين

بعد صلوات الصبح وتسابيح الضحى تنصب خذروفاً وتدوره في الطحين وتدرس الدوائر التي يرسمها، تفحص الماء والضوء والهواء والأشياء. لماذا تتجمع بيضة في الزيت المغلي وتتفرق في شراب الفاكهة؟ تشكل مثلثاً من الدبابيس وتبحث عن خاتم سليمان، تصطاد النجوم بعين واحدة ملتصقة على المنظار.

هددوها بإبلاغ محكمة التفتيش ومنعوها من فتح الكتب إلا أن سور جوانا آينز كروز، تدرس الأشياء التي خلقها الله والتي تخدمها لتتعلم منها كتاب العالم.

تبدأ جوانا جدلاً بين الحب الإلهي والحب الإنساني، بين الألفاظ الخمسة عشر للمسبحة التي تتدلى حول عنقها وألفاظ العالم. تمضي



ليال عديدة من دون أن تنام وهي تصلي وتكتب حين تبدأ الحرب اللاتهيائية ثانية في داخلها بين الهوى والعقل. يدخل في نهاية كل معركة الضوء الأول للفجر إلى حجرتها في الدير الجيرونيمي، ويساعد سور جوانا على تذكر ما قاله لوبريسيو ليوناردو بأن بإمكان المرء أن يتفلسف وأن يحضر العشاء. تبعد القوائد على الطاولة وتعد الفطائر في المطبخ وكل هذا سيمنح للآخرين قيثارة داود المهدئة لشاول كما هو الأمر لداود، متع الروح والفم التي يشجبها محامو الأمم.

قال لها كاهن الاعتراف: إن المعاناة فقط ستجعلك تستحقين رضا الله. يأمرها أن تحرق ما تكتب وتجهل ما تعرف وأن لا ترى ما تنظر إليه.

## 1681: مدينة مكسيكو

### سيكوينزا غونكورا

أضاء شهاب سماء مكسيكو منذ نهاية العام الماضي، أية شرور يعلنها النبي الغاضب؟ أية مشاكل سيسبب؟ هل ستضرب الشمس الأرض كقبضة الله الكبيرة؟ هل ستجف المحيطات وتتلأشى آخر قطرة من الأنهار؟ يقول الحكيم للبشر المرتعبين: "لا يوجد سبب يوضح أن النيازك تجلب الحظ السيء".

ينشر كارلوس سيكوينزا غونكورا بيانه الفلسفي ضد النيازك الضالة التي تبقيها الإمبراطورية فوق رؤوس الجبناء، والذي شكل اتهاماً مرعباً للخرافة والخوف. ينفجر جدل بين علم التنجيم وعلم الفلك، بين الفضول البشري والوحي الإلهي. يضع اليسوعي الألماني أوسيبينو فرانسيسكو كينو الذي يزور هذه الأقاليم ستة أسس توراتية لتأكيد أن جميع النيازك تقريباً هي بشائر بحوادث شريرة ومخربة وكارثية.

يحاول كينو بازدرء أن يصلح نظرية سيكوينزا غونكورا، وابن كوبرنيكوس وغاليليو وهراطقة آخرين، ويجيب الكريولي المتعلم:

”هل ستسلمون على الأقل أنه يوجد أيضاً علماء رياضيات خارج ألمانيا يمكن أن يوجدوا بين خيزران وديس<sup>41</sup> بحيرة مكسيكية“.

يحدث كوزموغرافي<sup>42</sup> الأكاديمية الأولى سيكوينزا غونكورا بقانون الجاذبية ويؤمن أن كواكب أخرى، يجب أن يكون لها، مثل الشمس، كواكب تدور حولها، معتمداً على الكسوفات والنيازك، ثبت تواريخ أحداث تاريخ مكسيكو الطبيعي وكما أن الأرض من اختصاصه كما السماء، ثبت بدقة خطوط طول هذه المدينة ورسم الخريطة الأولى للإقليم، وقال كل هذا في أعمال شعرية ونثرية لها عناوين طنانة متناسبة مع عصره.

## 1682: آكرا

### أوروبا كلها تباع اللحم البشري

غير بعيد عن الحصون الإنكليزية والدمركية، في المدى المجدي لطلقة مسدس، ينتصب المكتب التجاري البروسي. يرفرف علم جديد على هذه السواحل فوق سقوف مستودعات العبيد المصنوعة من جذوع الأشجار وعلى صواري السفن التي تبحر بحمولة كاملة.

ينضمُّ الألمان إلى العمل الأكثر إدراةً في تلك الفترة بشركتهم التي تدعى أفريقيا، يصطاد البرتغاليون ويبيعون السود عبر شركتهم التي تدعى غينيا. تعمل شركة أفريقيا الملكية للتاج البريطاني. يرفرف العلم الفرنسي على سفن شركة السنغال، وتعمل الشركة الهولندية للأنديز الغربية بشكل جيد. ويدعى أيضاً المشروع الدنماركي المتخصص بتسويق العبيد شركة الأنديز الغربية. وتملاً شركة البحر الجنوبي جيوب السويديين.

<sup>41</sup> الديس: عشب ماني من الفصيلة السعدية.

<sup>42</sup> الكوزموغرافيا: وصف عام للعالم أو الكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا.

ليس لإسبانيا عمل في تجارة العبيد، إلا أن غرفة التجارة في إشبيلية أرسلت إلى الملك منذ قرن تقريراً موثقاً يشرح أن بيع العبيد هو التجارة الأرباح في أميركا، تدفع المؤسسات التجارية الأجنبية للصناديق الملكية من أجل حقوق بيع العبيد في المستعمرات الإسبانية. بنيت بهذه الإيداعات من بين أشياء أخرى قصور مدريد وطليلة. تجتمع لجنة الزوج في القاعة الرئيسة لمجلس الآنديز.

## 1862: ريميدوس

### بأمر من الشيطان

يرتجف، يلتوي، يزار، يسيل لعابه، يهز أحجار الكنيسة، يتصاعد البخار في كل مكان من أرض كوبا الحمراء.

- "أيتها الشيطانة، أيتها الكلبة! أيتها الكلبة السكرانة، تكلمي وإلا سأبول عليك". يهدد المفتش خوسيه غونزاليس لاکروز، كاهن أبرشية ريميدوس ويرمي أرضاً المرأة السوداء ليوناردو أمام المذبح الرئيس، ينتظر الناسخ بارتولومي دي كاستيلو دون أن يتنفس، يمسك كومة ورق سميكة في يد ويلوح بريشة طائر في الأخرى.

يلهو الشيطان مرتاحاً في الجسد الساحر لليوناردو السوداء.

يضربها المفتش فتسقط على وجهها، تأكل الغبار وترتد، ترفع نفسها إلى الأعلى وتلتفت، محترقة ونازفة على الرقعة الآجرية.

- "أيتها الشيطانة! لوسيفر الزنجية! تكلمي أيتها الخراء النتن".

يخرج من فم ليوناردو اللهب والرغوة وأصوات صاخبة، لا يفهمها أحد سوى الأب خوسيه الذي يترجم ويملي على الناسخ.

- "تقول إنها لوسيفر. تقول إنه يوجد ثمانمائة شيطان في ريميدوس".

تخرج أصوات أكثر صخباً من فم المرأة.  
- "ماذا أيضاً؟ ماذا أيضاً أيتها الكلبة؟". يرفعها الكاهن ليوناردو من شعرها.

- "تكلمي أيها الخراء!" لا يلعن أمها لأنه ليس للشيطان أم.  
قبل أن يُغمى على العبدة يصرخ الكاهن ويكتب الناسخ: "تقول إن ريميديوس ستنهار، إنها تعترف بكل شيء، تقول إن الأرض ستبتلعنا".

يزأر: "فم الجحيم! تقول إن ريميديوس هي فم الجحيم".  
يصرخ الجميع، يقفز جميع سكان ريميديوس صارخين وصاخبين، يغمى على أشخاص عديدين، يرخي الكاهن المستحم بالعرق، ذو الجلد الشفاف والشفيتين المرتجفتين، قبضته عن عنق ليوناردو، تنهار المرأة السوداء.  
لا أحد يسعفها.

## 1682: ريميديوس

إلا أنهم يمكنون

ثمانمائة شيطان! إذاً يوجد شياطين في سماء ريميديوس أكثر مما يوجد بعوض؛ يخصّص 1305 شياطين لتعذيب كل مواطن.

إن الشياطين عرجاء منذ السقوط الذي يعرف العالم كله عنه، ولها لحي ماعز وقرن وأجنحة خفافيش وأذيال جرذان وجلود سوداء، ولهذا فإن الدوران في جسد ليوناردو أكثر متعة لها لأنها سوداء.  
تبكي ليوناردو وترفض أن تأكل.

يقول لها الأب خوسيه: "إذا كان الله يريد أن يطهرّك سيبيّض جلدك".

تصدر الأغاني الحزينة للزيزان والجنادب عن الأرواح التي تتعذب. السراطين مذنبه مكتوب عليها أن تمشي عرجاء. تعيش في المستنقعات والأنهار عفاريت تسرق الأطفال. حين يسقط المطر يسمع شجار الشياطين من الكهوف والشقوق عنيفاً وصاخباً لأن الشر الذي تطلقه لحرق السماء يصبح رطباً. والنقيق الحاد للضفادع في مرجة بوكوبرون هل يتنبأ بالمطر أم يلعن؟ هل يأتي ذلك الضوء الذي يشع في الظلام من الحباحب؟ هل هاتان العينان للبومة حقاً؟ ضد من يهسهس الثعبان؟

يسمع طنين الخفّاش الليلي الأعمى؛ إذا مشطك بجناحه، ستذهب إلى الجحيم مباشرة، الجحيم تقع تحت ريميديوس، هناك السنة اللهب تحرق ولا تصدر ضوءاً ويجعل الجليد الأبدى أسنان الذين أذنبوا واتبعوا شهواتهم على الأرض، تصطك وترتعش.

- "ابق مكانك".

يقفز القس في جرن المعمودية المقدس.

- "ابق مكانك أيها الشيطان".

يغسل الخسّ بالماء المقدس، يتشاءب البشر وأفواههم مغلقة.

- "يسوع! يا يسوع!" يصلب الأساقفة.

لا يوجد منزل غير مزين بجداول الثوم ولا يوجد هواء لا يحبله دخان الحبق العذب.

- "يملكون أقداماً إلا أنهم لا يصلون إليّ وحديداً إلا أنهم لا يجرحونني وأنشوبات إلا أنهم لا يقيدونني.."

إلا أن الناس يمكثون، لا يغادر أحد، لا أحد يهجر مدينة ريميديوس.

## 1682: ريميدىوس

بأمر من الله

ترن أجراس الكنيسة المنصوبة إزاء السماء من أجل الخدمة، يغادرُ جميع سكان ريميدىوس منازلهم. يجلس الكاتب بالعدل إلى يمين المذبح، ينضغط الحشد عبر الأبواب المفتوحة.

سرت شائعة قالت إن الأب خوسيه سيسمع شهادة من الله. كان يؤمل أن المسيح سينزع يده اليمنى عن الصليب ويُقسم أن يقول الحقيقة، الحقيقة كاملة ولا شيء سوى الحقيقة.

يتقدم الأب خوسيه إلى المذبح الرئيس ويفتح وعاء خبز القربان، يرفع كأس القربان وخبز القربان المقدس ويركع أمام جسد ودم الإله على ركبتيه ويصوغ طلبه، يدون الناسخ ملاحظاته، سيظهر الله لسكان ريميدىوس أين يجب أن يعيشوا.

إذا تحدّث الشيطان من خلال فم ليوناردو فستكون ليوناردو أداة عدوه الذي لا يقهر.

يغطي الكاهن عيني الصبية ليوناردو التي لا تصل إلى خصره بعصابة، وتغمس ليوناردو يدها في حُق القربان المقدس الفضي الذي يحتوي على بعض القطع الورقية التي كتبت عليها أسماء الأمكنة.

تلتقط الصبية قطعة ورقية، يفتحها الكاهن ويقرؤها بصوت مرتفع: "سانتا ماري دي غوادالوبه! دون أيها الناسخ!" ثم يضيف بانتصار: "لقد أشفق الله علينا. هو، برحمته اللانهائية، يقدم لنا الحماية. هيا يا أبناء ريميدىوس لقد آن أوان الرحيل."

يذهب الكاهن.

ينظر خلفه، يتبعه البعض.

يأخذ الأب خوسيه معه كل شيء؛ كأس القربان، خبز القربان،  
المصباح والشمعانات الفضية، الصور والنقوش الخشبية، يرافقه فقط  
النساء والرجال الخائفون إلى أرض الميعاد.

تجر ممتلكاتهم الأحصنة والعبيد، يأخذون الأثاث والثياب والأرز  
واللوبياء، الملح والزيت والسكر واللحم المجفف والتبغ وكتبا من  
باريس وقطنا من روين وبعض الأشياء الأخرى المهربة إلى كوبا.

الطريق طويلة إلى سانتا ماريا دي غودالوبه. هناك تقع أراضي هاتو  
ديل كيوي التي يمتلكها الأب خوسيه؛ كان الكاهن يبحث منذ  
سنوات عن مشتريين لها.

## 1688: هافانا

### بأمر الملك

كان الموضوع الرئيس للمحادثة في كل أنحاء كوبا، كانت المراهنات  
تُعقد أينما اجتمع الناس.

هل سيطيع سكان ريميديوس؟

يبقى الأب خوسيه الذي هجره أتباعه وحيداً ويعود إلى  
ريميديوس، إلا أنه يتابع حرب العنيدة المقدسة التي تردّد صداها في  
القصر الملكي. أمر تشارلز الثاني من مدريد أن سكان ريميديوس يجب  
أن ينتقلوا إلى أراضي هاتو ديل كيوي في سانتا ماريا دي غوادالوبه.

يعلن رئيس الحكومة وأسقف هافانا أن أمر الملك يجب أن يُحترم.

ينفذ الصبر.

يستمر سكان ريميديوس بالتظاهر بالصمم.

# 1691: ريميديوس

## ما يزالون لا يتحركون

يصل الضابط بيريز دي موراليز فجراً من هافانا مع أربعين رجلاً مسلحين جيداً.

يذهبون إلى الكنيسة، يتلقى الجنود العشاء الرباني وبارك الأب خوسيه بنادقهم وفؤوسهم القتالية، يجهزون المشاعل.

تتحول بلدة ريميديوس ظهراً إلى نار كبيرة، يراقب الأب خوسيه الدخان المتدرج نحو الزرقة متصاعداً من الحطام الملتهب.

حين يخيم الليل يظهر الناس من مخابئهم في الأدغال ويعودون إلى الحطام.

يجلسون في حلقة، أعينهم مثبتة على سحب الدخان المتواصلة، يلعنون ويتذكرون؛ لقد سرق القراصنة هذه البلدة مرات عديدة. وحملوا في السنوات الماضية حتى كأس القربان الأكثر قداسة وقيل إن أسقفاً مات من الغرف، وقالوا إنه من الجيد أن وشاحه بقي على صدره إلا أن أي قرصان لم يشعل النار في ريميديوس.

يعقد الناس في ضوء القمر، تحت شجرة سيبة مجلساً للبلدة، يقرّر الذين ينتمون إلى أرض التربة الحمراء هذه في الغابة أن يعيدوا بناء ريميديوس.

تضمّ النساء الأطفال إلى صدورهن ويحدّقن بأعين أمهات النمر الجاهزة للقفز.

يفوح الهواء بالاحتراق، لكن ليس برائحة الكبريت، أو روث الشيطان.

الأصوات المتصاعدة بين الأشجار هي أصوات تتناقش وصوت طفل حديث الولادة، يبكي من أجل الحليب، واسم يُعرف به.



# 1691: مدينة مكسيكو

## جوانا في سن الأربعين

يضيء جدول من ضوء أبيض كلسي سور جوانا آنيز لاكروز وهي راكعة وسط المسرح، ترفع ظهرها وتنظر نحو الأعلى حيث ينزف مسيح كبير، ذراعه مفتوحتان على السلم الرفيع المخطط بالمخمل الأسود والملليء بالصلبان والسيوف والرايات. يقف على المنصة مدعيان يوجهان اتهاماتهما.

كان كل شيء أسود حتى القلنسوتين اللتين تغطيان وجه المدعيين؛ كان أحدهما يرتدي ثياب راهبة ومن تحت القلنسوة تظهر التجعيدات المائلة إلى الأحمر للشعر المستعار. إنها الأسقف بوببلا، مانويل فرنانديز من سانتا كروز في دور الأخت فيلوتي. الآخر هو أنطونيو نونيز دي ميراندا، راهب اعتراف الأخت جوانا، يمثل نفسه. ينتأ أنفه الأعقف من تحت القلنسوة، يتحرك وكأنه يريد أن يتحرر من مالكة.

### الأخت فيلوتي:

(تطرز على إطنان): غامض هو الله. لماذا يضع رأس رجل على جسد الأخت جوانا، لكي تهتم بقضايا الأرض البائسة؟ إنها ترفض ما تنص عليه الكتب المقدسة.

### كاهن الاعتراف:

(مشيراً إلى الأخت جوانا بصليب خشبي): العاقبة!

### الأخت جوانا:

(عيناها مثبتتان على المسيح فوق رؤوس المدعيين): إنني فعلاً أردُ على كرم الله بشكل سيء. أنا أدرس

لأرى إن كانت الدراسة ستجعلني أقل جهلاً، لأقود خطواتي نحو قمم اللاهوت المقدس. إلا أنني درست أشياء كثيرة ولم أتعلّم شيئاً. إن الحقائق المقدسة تبقى بعيدة عني، دائماً بعيدة. أشعر أحياناً أنها قريبة مع ذلك أعرف أنها بعيدة. منذ أن كنت فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة من عمري بحثت عن تلك المفاتيح في كتب جدّي. تلك المفاتيح... قرأت وقرأت وحين عاقبوني بدأت أقرأ بشكل سري.

### كاهن الاعتراف:

(مخاطباً الأخت فيلوتي): لم تقبل أبداً إرادة الله. إنها تكتب الآن مثل رجل. لقد رأيت مخطوطات قصائدها.

### الأخت جوانا:

...البحث... عرفت باكراً أن الجامعات ليست للنساء، وعرفت أن النساء اللواتي يعرفن ما هو أكثر من الصلاة الربانية يُعتبرن فاحشات. كنت أملك كتباً خرساء لمدرسين، ومحبرة من صديقة مدرسة حين منعت الكتب عني كما حصل أكثر من مرة في هذا الدير، درست أشياء العالم، إن المرء يستطيع أن يكتشف أسرار الطبيعة حتى وهو يطبخ.

### الأخت فيلوتي:

الجامعة الملكية والأسقفية للفطائر المحلاة. مقالة حرم الجامعة.

### الأخت جوانا:

ما الذي نستطيع أن نعرفه نحن النساء ما عدا فلسفة المطبخ؟ إن أرسطو لو طبخ لكتب أكثر مما كتبه. هذا يضحككم أليس كذلك؟ حسناً! اضحكوا! إذا كان هذا

يسركم. يشعر الرجال أنهم حكماء جداً لمجرد كونهم رجالاً. لقد توج المسيح أيضاً بالشوك، وضحك عليه.

### كاهن الاعتراف:

(يمحو ابتسامته. يضرب الطاولة بقبضته): هل سمعت مثل هذا الكلام؟ هذه الراهبة الصغيرة المتفكهة؟ تستطيع أن تكتب بعض الأغاني وتريد أن تقارن نفسها بالمسيح.

### الأخت جوانا:

لقد عانى المسيح أيضاً من هذا الظلم. هل هو واحد منهم؟ وهكذا عليه أن يموت. لقد اتهم، ولهذا السبب يجب أن يعاني.

### كاهن الاعتراف:

يجب أن تتواضعي.

### الأخت فيلوتي:

فعلاً يا ابنتي، إنك تخيفين الله بكبريائك.

### الأخت جوانا:

كبريائي؟ (تبتسم بحزن) لقد استخدمت هذا منذ وقت طويل.

### كاهن الاعتراف:

لقد صفق العامة لشعرها وهكذا تظنّ نفسها من النخبة. إنها أشعار تجلب العار إلى منزل الله هذا، إنها تمجيد للجسد (يسعل) إنها الفنون الشريرة للحيوان الذكري.

## الأخت جوانا:

أشعاري المسكينة! إن التصفيق مجرد غبار، ظلّ،  
عظمة متلاشية هل طلبت أنا هذا، أيّ وحي إلهي يمنع  
النساء من الكتابة؟ بنعمة الله أو بلعنته، إن السماء هي  
التي جعلتني أصبح شاعرة.

## كاهن الاعتراف:

(ينظر إلى السقف ويرفع يديه مبتهلاً): إنها توسّخ  
طهارة الإيمان وتلوم السماء على ذلك.

## الأخت فيلوتي:

(تضع الإطار المطرز جانباً وتضع يديها على  
معدتها): تمتلك جوانا كثيراً من الأغاني للروح الإنسانية  
و قليلاً منها للروح المقدّسة.

## الأخت جوانا:

ألا تعلمنا الأناجيل أن السماوي يعبر عن نفسه في  
الدينيوي؟ إن قوة جبارة تدفع يدي.

## كاهن الاعتراف:

(ملوحاً بالصليب الخشبي وكأنه يريد أن يضرب  
جوانا من بعيد) أهذه قوة الله أم قوة الشيطان؟

## الأخت جوانا:

سأستمر في الكتابة، سأظل خائفة ما دام يوجد ظل  
لجسدي. لقد هربت من نفسي حين ارتديت رداء  
الراهبة وسببت البؤس لنفسي.

## الأخت فيلوتي:

إنها تستحمّ في العري. يوجد أدلة.

## الأخت جوانا:

يا إلهي أطفئ ضوء فهمي واترك فقط ما يكفي لحفظ شريعتك. أليس الباقي غير ضروري للمرأة؟

## كاهن الاعتراف:

(صارخاً بحدّة كغراب): لقد جلبت العار إلى نفسك. أميتي قلبك أيتها العاقبة.

## الأخت جوانا:

أطفئني! أطفئني يا إلهي!

(تستمر المسرحية بحوار مشابه إلى عام 1693).

## 1691: بلاستيا

أداريو، زعيم هنود المورون  
يتحدث مع البارون لاهونتان،  
المستعمر الفرنسي لنيوفاوندلاند

إنك بائس بما يكفي ولا أستطيع أن أراك خارج ذلك، أي نوع من الرجال هم الأوروبيون؟ إلى أية أنواع من المخلوقات ينتمون؟ إن الأوروبيين يجب أن يُجبروا على القيام بالأعمال الجيدة، ولا يوجد لديهم باعث آخر لتجنب الشر سوى الخوف من العقاب.

من منحكم هذه البلدان التي تسكنونها الآن؟ بأية حق تمتلكونها؟ لقد كانت سابقاً للألكونكونيز. إنني يا أخي العزيز آسف عليك من أعماق قلبي وبشكلٍ جدي. اسمع نصيحتي وتحول إلى هورني، لأنني أرى بوضوح فرقا كبيرا بين حالتك وحالتي؛ أنا سيد نفسي ووضعي، أنا سيد جسدي، أمتلك السيطرة على

نفسى، أفعُل ما يسرّني، أنا الأول والآخري في أمتي، لا أخاف من أي رجل وأعتمد فقط على الروح العظيمة. إلا أن روحك وجسدك مقدر عليهما أن يعتمدا على الضابط الكبير، نائب ملككم، وليس لك حرية أن تفعل ما تريد، أنت خائف من اللصوص وشهود الزور ومن القتلة... الخ. وتعتمد على عدد لا نهائي من الأشخاص الذين رفعتهم منزلتهم فوقك، أصحيح هذا أم لا؟

## 1692: قرية سالم

### ساحرات سالم

لا يعلم سوى المسيح كم شيطان يوجد هنا؟ يزأر المحترم صموئيل باريس، راعي أبرشية بلدة سالم ويتحدث عن يهوذا والشيطان الجالس على مائدة الرب، الذي باع نفسه بثلاثين قطعة فضية، تعادل بالباوندات البريطانية سعر عبدة أنثى يثير السخرية.

يصيح راعي الأبرشية أنه لا يوجد حياض ممكن أو ملاذ مؤكد في حرب الحملان ضد التنانين.

لقد زرعت الشياطين نفسها في منزله؛ كان أول من عدّبه الشياطين ابنة المحترم باريس وابنة أخيه أيضاً، الشياطين التي عصفت بهذه البلدة البيوريتانية. ربتت الفتاتان الصغيرتان على كرة كريستالية لتعرفا قدرهما فشهدتا الموت. منذ أن حدث هذا بدأت كثيرات من فتيات سالم، يشعرن بحمى الجحيم في أجسادهن، الحمى المهلكة التي تحرقهن من الداخل، فيتلوين ويدرن ويتدحرجن على الأرض وتمتلئ أفواههن بالرغوة ويجدّفن ويفحشن بكلمات وضعها الشيطان على شفاههن.

يشخص الطبيب ويليم كريكز رقى شريرة. تُقدّم لكلب كعكة من طحين الشعير خلطت ببول الفتيات المسوسات، يأكلها الكلب ويهزّ ذيله وينام بسلام. يفضل الشيطان المساكن البشرية.

بين تشنج وآخر، تتهم الضحايا.

كان أول من سُئِق النساء والفقراء. سُئِقَت امرأتان بيضاوان وواحدة سوداء: سارة أوسبورن؛ عجوز محنية دعت منذ سنوات خادماتها الإيرلندية، التي كانت تنام في الاصطبل ومنحتها مكاناً في فراشها. وسارة كود؛ الشحاذة الفوضوية التي تدخن غليوناً وتدمم حين تقدّم لها الصدقات، وتيتوبا؛ العبدة السوداء سيدة شيطان مشعر له أنف طويل، وابنة سارة كود؛ ساحرة صغيرة في سن الرابعة وضعت في سجن بوسطن مغلولة القدمين.

إلا أن الصرخات المؤلمة لفتيات سالم لم تتوقف، وتكاثرت الاتهامات والأحكام، وانتشر اصطيد الساحرات من قرية سالم التي تقع في الضواحي إلى مركز بلدة سالم، من البلدة إلى المرفأ، ومن الأضعف إلى الأقوى. لم تنج حتى زوجة الحاكم من إصبع الاتهام.

تدلى على المشانق مزارعون أثرياء ورجال أعمال، مالكو حوانيت يتاجرون مع لندن، وأعضاء الكنيسة، أصحاب الامتيازات الذين يتمتعون بحق العشاء الرباني.

قيل إن مطراً كبريتياً انهمر على بلدة سالم، مرفأ ماسأتشوسيتس الثاني، حيث الشيطان يعمل بجد ويطوف واعداد المدن البيوريتانية بالذهب والأحذية الفرنسية.

## 1692: كوابولو

### تأميم الفن الإستعماري

بدأ ميغيل الذي هو من سانتياغو بعرض لوحاته الزيتية في حرم كوبولو، القرية التي تطل على كويتو.

رسم ميغيل، تمجيداً للعذراء المحلية، مجترحة المعجزات العظيمة، هذه الجبال والسهول والسماء والمناظر الطبيعية التي

كانت ستحتوي على حياة فقيرة لو أن الناس الذين يتحركون فيها لا يضيئونها .

تحرك بشر محليون في خلفيات محلية، في مواكب أو لوحدهم. توقف الفنان عن نسخ أعمال من مدريد أو روما عن حياة القديس أوغسطين ورسم مدينة كويتو المضيئة المحاطة بالبراكين، أبراج الكنائس، هنود بوجيلي وماشنفازا، هضبة بيلاستا ووادي كوابولو والشموس التي خلف الجبال، سحب دخان النار الصاعدة والأنهار الضبابية التي لا تتوقف أبداً عن الغناء، والتي تنتمي كلها إلى هنا.

لم يعمل ميغيل وحده؛ كانت الأيدي المجهولة لرسامين محليين أو هجن تهرّب الإلامات إلى لوحاتهم الخاصة بعيد الميلاد بدلاً من الجمال، وأناناساً وبلحاً وقرون ذرة وأفوكاتة إلى النقوش الخضراء لواجهة الكنيسة، وشموساً معصوبة الرأس إلى قرب المذبح .

يوجد في جميع الجوانب عذراوات حبالى، ومسيح يحزن كالبحر، كبشر هذه الأمكنة، من أجل حزن هذا العالم.

## 1692: مدينة مكسيكو

### جوانا في الثانية والأربعين

دموع بطول الحياة، تنبع من الزمن والألم وتبلل وجهها، ترى العالم حزينا وضبابيا مثلها، تودّعه منهزمة.

كانت تعترف طوال أيام بخطايا وجودها كله للأب أنطونيو نونيز ميراندا الذي لا يعرف الصّبح، وكرّست أيامها الأخرى للتوبة. كتبت رسالة مستخدمة دمها حبرا، إلى المحكمة المقدّسة وطلبت الغفران.

إن سفينتها ستتوقف عن الإبحار في بحار الشعر، تهجر جوانا دراساتها البشرية وتشجب الأدب، تطلب من الله هبة النسيان وتختار الصمت أو تقبله، وهكذا تخسر أميركا أفضل شعرائها.



لن يعيش جسدها طويلاً بعد انتحار الروح هذا: "ليلحق العار بالحياة لأنها استمرت طويلاً معي.."

## 1692: سانتافي، نيو مكسيكو

### ثلاثة عشر عاماً من الاستقلال

مرّ ثلاثة عشر عاماً على احتفال الأجراس في سانتافي بموت إله المسيحيين وأمه مريم.

احتاج الإسبان إلى ثلاثة عشر عاماً لإعادة فتح أراضي الشمال الوحشية. حين كانت هدنة الاستقلال سارية استعاد الهنود حرّيتهم وأسماءهم ودينهم وعاداتهم، وأدخلوا في خدمتهم المحراث والعجلة وأدوات أخرى أحضرها الإسبان.

لم تكن إعادة الغزو سهلة على القوى الاستعمارية؛ كانت كلّ قرية هندية في المكسيك الجديدة حصناً محكم الإغلاق محاطاً بأسوار حجرية وطوبية عالية.

عاش في وادي ريوغراند بشر غير معتادين على الطاعة أو على العبودية.

## أغنية هنود المكسيك للصورة التي تهرب من الرمل

رسمت الساحرة

صورتك في الصحراء

عينك من رمل ذهبي

وفمك من ثلج رملي أحمر  
ومن رمل أزرق شعرك  
ودموعي هي من رمل أبيض

ترعرعت كإلهة  
على ضخامة القماش الأصفر  
ستبعثر ريح الليل ظلك  
وألوان ظلك  
ولن يبقى شيء لي وفق القانون القديم  
لا شيء سوى بقية دموعي  
التي هي الرمال الفضية

## 1694: ماكاكوس

### الحملة الأخيرة على بالماريس

وُلد صياد الهنود العظيم، الذي يقتلهم على بعد فراسخ عديدة، من أم هندية، يتحدث اللغة الكورانية وقليلًا من البرتغالية، إنه دومينغوز خورخي فيلهو؛ قائد مالكي سان باولو، قائد الهجن الذي بذروا الرعب في نصف البرازيل باسم سادتهم المستعمرين وطهروا بوحشية نصف دمهم.

أجر دومينغوز خدماته في الأعوام الستة الماضية للتاج البرتغالي ضد هنود الجانديوم المتمردين في المناطق الواقعة خلف ساحل برنامبكو وفي ريوغراند دي نورتي. بعد حملة طويلة من الذبح يصل منتصرا إلى ريسيف وهناك تبرم معه اتفاقية لتدمير بالماريس؛ قدموا له غنيمة مدهنة من الأرض والعبيد السود ليبيعهم في ريودي جانيرو وبوينس

آيرس ووعده بإعفاءات لا نهائية وبأربع مراتب دينية وثلاثين رتبة عسكرية ليوزعها على رجاله.

سار الضابط دومينغوز باستعراض على ظهر حصانه بمنظار معلق على صدره العاري وبسترته الملوثة بالشحم في شوارع ريسيف على رأس ضباطه الهجن وضباط صفه قاطعي رؤوس الهنود، راكبين وسط سحب من الغبار وهبات من بارود المدفعية والروم وسط التصفيق وخفق المناديل البيضاء؛ سينقذنا هذا المسيح من السود المتمردين. يؤمن الناس أو يأملون، مقتنعين أن الهاربين يجب أن يلاموا على قلة الأيدي في مطاحن السكر، وعلى الأمراض والقحط الذي يلتهم الشمال الشرقي، بما أن الله لن يرسل الصحة أو المطر ما دامت فضيحة بالماريس قائمة.

نُظمت الحملة الصليبية الكبيرة، أتى المتطوعون من جميع الجهات يدفعهم الجوع للبحث عن أرزاق مؤكدة، فرغت السجون وانضم المجرمون المزمنون إلى أكبر جيش تمت تعبئته في البرازيل.

تقدّم الكشافة الهنود إلى الأمام وحمى الحمّالون السود المؤخرة، عبر تسعة آلاف رجل الدغل ووصلوا إلى الجبال، تسلقوا إلى القمة حيث تنتصب تحصينات الماكاكوز. أحضروا معهم المدافع هذه المرة.

استمر الحصار عدة أيام، دمرت المدفعية المتاريس الثلاثية المصنوعة من الخشب والصخر. قاتلوا رجلاً لرجل على حافة الهاوية، تكدّس الكثير من الموتى ولم يبق مكان للساقطين واستمرّ الذبح بين الأشجار. حاول كثير من السود الهرب وسقطوا عن الجرف في الفراغ؛ اختار كثيرون الجرف وسقطوا.

التهمت السنة للهب عاصمة بالماريس، شوهدت من مدينة بورنو كالفو البعيدة النار الكبيرة المشتعلة في الليل، تحرق ذاكرتها، أعلنت الأبواق دون توقف النصر.

هرب الزعيم زومبي الذي جُرح، انطلق من القمم الشامخة إلى الأدغال، تجوّل عبر الأنفاق الخضراء باحثاً عن قومه في الأجمات.

## شكوى شعب آزاندي

الطفل ميت  
لنغطّ وجوهنا  
بتراب أبيض  
أنجبتُ أربعة أبناء  
في كوخ زوجي  
عاش منهم الرابع فقط  
أريد أن أبكي  
إلا أن الحزن  
ممنوع في هذه القرية

## 1695: سيرا دوا إرموس

### زومي

ينبسط منظر الأدغال، تنبسط أدغال الروح. يدخن زومبي في غليونه وعيناه تراقبان الصخور الحمراء العالية والكهوف المفتوحة كجراح ولا يرى أن النهار يشرق بضوء العدو، ولا يرى أن الطيور تحلق مرتعبة.

لا يرى الخائن يقترب، يشاهد رفيقه سوريس وينهض ليعانقه، يطعنه أنطونيو سوريس عدة طعنات بالخنجر في ظهره، يثبت الجنود رأسه على رأس رمح ويأخذونه إلى ريسيف، ليتركوه يتعفن في الساحة وليخبروا العبيد أن زومبي ليس خالداً.

توقفت بالماريس عن التنفس، استمرت فسحة الحرية الواسعة هذه التي تأسست في أميركا المستعمرة قرناً وتصدت لأكثر من أربعين حملة. طيرت الريح رماد المتاريس السوداء بعيداً عن ماكاكوز وسوبوبيرا ودامبرابانكا وأوبينغا وتابوكاز وأروتيرين. انتهى قرن بالماريس بالنسبة للفاتحين حين قضى الخنجر على زومبي. سيخيم الليل ولن يبقى شيء تحت النجوم الباردة، لكن ما الذي يعرفه المستيقظون إذا ما قورن بما يعرفه الحالم؟

يحلّم المهورون بزومبي ويعرف الحلم أنه طالما بقي رجل مالكاً لرجل آخر في هذه الأراضي، سيظل شبحه يمشي؛ سيمشي أعرج لأن رصاصة أعطبت رجله، سيمشي صعوداً وهبوطاً في الزمن، وأعرج سيقاقل في أدغال النخيل وفي جميع أراضي البرازيل. وسيسمى جميع زعماء التمردات السوداء التي لا تتوقف باسم زومبي.

## 1695: ساو سلفادور دي باهيا

### عاصمة البرازيل

يوجد في هذه المدينة المضيئة كنيسة لكل يوم من أيام العام، وكل يوم هو يوم قديس؛ تتوهج الأبراج والأجراس والنخيل السامق، تتوهج الأجساد والهواء الدبق بالزيت، سيحتفل اليوم بقديس وغدا بعاشق في مدينة جميع القديسين واللاقداسة التي تدعى باهيا. إن ساو سلفادور دي باهيا، مقر نائب الملك والأسقف، هي أكثر المدن البرتغالية اكتظاظاً بالسكان بعد لشبونة، وتثير حسد لشبونة بأبرشياتها وكنائسها الذهبية وبنساتها المثيرات وبمهرجاناتها وبحفلاتها التنكرية ومواكبها. هنا تلبس العاهرات الخلاسيات كالملكات، ويحمل العبيد أسيادهم على المحفات في ممرات ورقية وسط قصور من العظمة التي تثير الهذيان. هكذا يصور غريغوريو دي مانوس المولود في باهيا الأرستقراطيين النبلاء لمزارع السكر:

إن نبلاء البرازيل

ليسوا نبلاء

وليس سلوكهم الجيد جيداً

إذاً إلى ماذا ينتمون؟

إلى كومة من المال

إن العبيد السود هم آجر وملاط هذه القلاع. يصرّ الأب أنطونيو فييرا من على منبر الوعظ على أن يشكر أنغولا، لأنه بدون أنغولا لما كان هناك برازيل، وبدون البرازيل لن توجد البرتغال، لهذا من العدل أن يقال إن جسد البرازيل هو في أميركا أما روحها فهي في أفريقيا. أنغولا التي تتبع عبيد البانتو وأنياب الفيلة، أنغولا، كما تعلن موعظة الأب، هي التي ربّت البرازيل بدمها البائس وروحها السوداء السعيدة وقوتها ودعمتها وخدمتها وحفظتها.

بقي هذا الكاهن الجزويتي إلى سن التسعين العدوّ الأسوأ لمحكمة التفتيش ومحامياً للهنود المستعبدين والمتهم الملحّ لأسياد الاستعمار، الذين يؤمنون أن العمل هو للحيوانات ويبصقون على الأيدي التي تغذيهم.

## 1696: ريغلا

عذراء سوداء، إلهة سوداء

جاءت العذراء إلى ميناء ريغلا التي تربطها علاقة ضعيفة مع هافانا، كي تستقر. جاء النقش الأريزي من مدريد ملفوفاً في كيس بين ذراعي نصيرها وتابعها بدروآراندا، إن اليوم هو 18 أيلول، يوم المهرجان في مدينة الحرفيين والبحارة العابقة بالقار والمحار حيث يأكل الناس اللحم والذرة واللوبياء والمنيهوت والطبخات الكوبية والأفريقية والإيكو والأوليلي والإيكرو والكويبومبو والفوفو، بينما

ترحب أنهار الروم وزلازل الطبول بالعدراء السوداء الصغيرة راعية  
وحامية خليج هافانا.

البحر منقط بقشور الجوز وأغصان الريحان الزكية وبنسيم من  
الأصوات التي تغني حين يخيم الليل.

إن عدراء ريغلا السوداء هي أيضاً العدراء الأفريقية يمايا، إلهة  
البحار الفضية، وأم الأسماك، وأم وعاشقة شانغو الإله المحارب،  
المحب للمشاكل، وزير النساء.

## 1697: كاب فرانسيسز

### دوكاسي

تصل سفن دوكاسي حاكم هاييتي وزعيم القراصنة الفرنسيين في  
جزر الأنثيل محملة بالذهب وبالعملة الذهبية الصعبة وبدبلونات  
مضاعفة ومجوهرات وصحون وكؤوس قربان ذهبية وتيجان  
عذراوات وقديسين. أذلّ دوكاسي كارتاجينا، وحولّ وابل مدفعيته  
المقاريس الصخرية للحصن إلى غبار، وترك الكنيسة دون جرس  
والحاكم بلا خواتم.

إلى فرنسا يذهب ذهب المستعمرة الإسبانية المسروقة، يتلقى  
دوكاسي في فرساي لقب أميرال وصولجانا جديرا بملك.

قبل أن يصبح حاكم هاييتي وأميرالاً للأسطول الملكي، كان  
دوكاسي يشتغل وحده ويسرق العبيد من السفن الهولندية والكنوز من  
السفن الإسبانية. كان يعمل منذ عام 1691 للويس الرابع عشر.

## المسحور

رغم أن البواق لم يعلنها، فقد طارت الأنباء في شوارع مدريد: لقد اكتشف المفتشون من سحر الملك تشارلز وستُحرق الساحرة إيزابيل في المحرقة في الساحة الرئيسية.

كانت إسبانيا كلها تصلي لتشارلز الثاني، عندما يستيقظ كان يتناول صحن الثعبان الناجع في منح القوة إلا أنه لم يتحسن، استمر عضوه التناسلي مخدراً غير قادر على إنجاب الأطفال واستمرت الرائحة الكريهة والرغوة بالخروج من الفم الملكي، ولم تخرج كلمة واحدة تستحق الإصغاء.

لم تأت اللعنة من كوب شوكلاته معين وُضعت فيه خصي المشنوقين كما ادّعت بعض ساحرات كمانغار، ولا من الطلسم الذي يرتديه الملك حول عنقه كما اعتقد الساحر فراي مورو. اقترح أحدهم أن أم الملك سحرته بتبع أخضر من أميركا أو باللبان الجاوي. وأشيح أيضاً أن مدير الخدم في القصر، دوق قلعة فلوريت، قدّم للمائدة الملكية فخذ خنزير وضعت فيه أظافر امرأة مغربية أو يهودية أحرقتها محكمة التفتيش.

أخيراً عثر المفتشون على مجموعة الدبابيس وعلى دبابيس الشعر وعلى السمك الصدي وعلى شعرات جلالته الشقراء التي أخبأها إيزابيل قرب المخدع الملكي.

يميل الأنف إلى الأمام، تتدلى الشفة، يتدلى الذقن، تبدو عيناه وقد لمعتا. يرفع قزم شمعة لينظر إلى الصورة التي رسمها له كارينو منذ أعوام.

أثناء ذلك، لم يوجد خارج القصر خبز أو أسماك أو خمرة، كأن مدريد مدينة محاصرة.



## 1699: ماكوبا

### شرح عملي

أخبر الأب جان بابتيست لابات عبيده ليزرع فيهم النشاط في أرض الكسل والنعاس هذه، أنه كان أسود قبل أن يأتي إلى المارتينيك، وأن الله وهبه اللون الأبيض مكافأة على حماية خضوعه الذي خدم به أسياده في فرنسا.

حاول نجار الكنيسة الأسود أن يضع تعشيقه صعبة في لوح خشبي ولم يستطع الحصول على الزاوية الصحيحة. رسم الأب لابات بعض الخطوط مستخدماً مسطرة وبوصلة وأمر: "اقطعه من هنا". كانت الزاوية صحيحة.

قال العبد ناظراً إليه في عينيه: "أصدّقك الآن. لا يستطيع أي رجل أبيض أن يفعل هذا".

## 1700: أورو بريتو

### البرازيل كلها، إلى الجنوب

أظهرت الخريطة في الأيام القديمة باهيا قريبة من مناجم بوتوسي المكتشفة حديثاً، وكتب الحاكم إلى لشبونة قائلاً إن أرض البرازيل والبيرو واحدة. ليحولوا جبال البارانا بياكابا إلى سلسلة جبال الأنديز، أحضر البرتغاليون مثني لامة إلى سان باولو وجلسوا لينتظروا ظهور الذهب والفضة.

اكتشف الذهب بعد قرن ونصف. كانت مجاري الأنهار والجداول المتدفقة على منحدرات جبال اسبينهاكو مليئة بالأحجار المشعة. وعثر ممالك ساو باولو على الذهب حين كانوا يصطادون هنود كاتاكواز.

نشرت الريح الأنباء في أنحاء البرازيل واستجاب الكثيرون، كان كل ما عليك فعله للحصول على الذهب في إقليم ميناस جيراس هو أن تجمع حفنة رمل أو تقلع باقة عشب وتهزها.

جاء الجوع مع الذهب، كان سعر القطة أو الكلب في المعسكرات ١٠٥ غرامات من الذهب، وهو المبلغ الذي يحصل عليه العبد مقابل عمل يوميين.

## 1700: جزيرة القديس توماس

الرجل الذي يجعل الأشياء تتحدّث

تدق أجراس حزينة وتقرع طبول كئيبة في الجزيرة الدنماركية في جزر الأنтил، والتي هي مركز للتهديب والقرصنة. يتوجّه عبد إلى المحرقة، حكم عليه الرئيس الكبير فانبل بالإعدام لأنه يتحوّل إلى مطر حين يشعر بذلك، ولأنه ركع أمام ثلاث أشجار برتقال ويمتلك تمثالا طينيا يجيب على أسئلته كلها ويربحة من جميع الشكوك.

يتقدّم الرجل المحكوم نحو المحرقة ناظراً إليها مبتسماً ابتسامة عريضة.

يعترضه فانبل: "لن تثرثر مع وثنك مرة أخرى أيها الساحر الأسود".

يجيب العبد بهدوء من دون أن ينظر إليه: "أستطيع أن أجعل قصبك هذه تتكلم".

"قف"! يصيح فانبل بالحرس: "حلّوا وثاقه".

يرمي القصة إليه أمام الحشد المنتظر ويقول له: "افعل هذا".

يركع العبد ويهوي بيديه على القصة المركوزة في الأرض، يدور حولها عدة دورات ويركع ثانية ويلاطفها.

يقول السيد: "أريد أن أعرف إذا كانت السفينة التي ستأتي إلى هنا قد أبحرت ومتى ستصل ومن عليها وماذا حدث..."

يتراجع العبد عدة خطوات إلى الوراء ويقول:

- "اقترب يا سيدي، سأخبرك".

حين يقرب فانبل أذنه الى القصبة يسمع أن السفينة قد أبحرت منذ فترة من هلسنغور في الدنمارك، ولكن عاصفة حطمت شراعها الثاني وحملت شراع المؤخرة حين وصلت إلى المنطقة الإستوائية. يرتعش عنق فانبل كبطن ضفدع، يرى المراقبون أنه ابيض.

يقول فانبل بينما تتابع القصبة كلامها وتقول له أسماء القبطان والبحارة: "لا أسمع أي شيء".

يصرخ: "لا شيء!"

تهمس القصبة له: "ستصل السفينة بعد ثلاثة أيام. ستجعلك حمولتها سعيداً". ينفجر فانبل يكسر صولجانه، يصرخ: "أحرقوا الزنجي".

يزأر: "أحرقوه".

يعوي: "أحرقوا الساحر".

## أغنية شعب البانتو عن النار

أيتها النار التي يراقبها البشر في الليل،

في الليل العميق

أيتها النار التي تلتهب دون أن تحرق

التي تشع دون أن تلتهب

أيتها النار التي تطير بلا جسد

أيتها النار التي لا تملك قلباً ولا تعرف  
منزلاً أو أكوأخاً

يا نار ورق النخيل الشفافة

يحرّضك الإنسان بدون خوف

يا نار السحرة أين والدك؟

أين أمك؟

من غذاك؟

أنت والدك وأمك

تعبرين ولا تتركين أثراً

لا يولدك الخشب الجاف

ولا تملكين شرارات للبنات

تموتين ولا تموتين

تتحول فيك الروح الرحالة

ولا يعرفها أحد

يا نار السحرة

يا روح المياه في الأسفل والهواء في الأعلى

أيتها النار المتوقدة، أيتها الدودة المتوهجة التي تضيء

المستنقع

يا طائراً بلا جناحين، يا شيئاً بلا جسد

يا روح قوة النار

اسمعي صوتي

ثمة إنسان يحرضك

دون خوف

## الظلّ الناقص للخريف

لم يستطع أبداً أن يرتدي ثيابه لوحده أو أن يقرأ بطلاقة أو أن يقف معتمداً على نفسه، يستلقي في سن الأربعين؛ رجلاً صغيراً عجوزاً بلا سلالة محتضراً ومحاطاً بكهنة الاعتراف وطاردي الأرواح الشريرة وبالحاشية والسفراء الذين يتنازعون على العرش.

أزاح الأطباء المنهزمون الحمامات الميتة وأحشاء الخروف عنه، لم يعد الأطباء يغطون جسده ولا يقدمون له الرّوم ليشرّب أو ماء الحياة الذي أحضر من ملقة لأنه لم يبق شيء سوى انتظار الشهقة التي ستزيله من العالم.

في ضوء المشاعل، يترأس مسيح نازف على رأس السرير الطقس الأخير. يرشّ الكاردينال ماء مقدساً من أشنان داود، تفوح غرفة النوم برائحة الشمع والبخور والوسخ، تضرب الرياح مصاريع القصر المغلقة بشكل سيء.

سيأخذونه إلى مقبرة الإسكوريال، حيث ينتظره المدفن الرخامي الذي نقش عليه اسمه منذ أعوام، كانت هذه هي رحلته المفضّلة، وكان قد مرّ وقت لم يزر فيه مدفنه أو يخرج من قصره.

ملينة مدريد بالحفر وبالقامة وبالشردين المسلحين وبالجنود الذين يعيشون على الحساء الرقيق للأبرشيات ولا يخرجون للدفاع عن الملك. في المرة الأخيرة التي تجاسر أن يخرج فيها ركضت النساء الغاسلات وفقراء الشوارع خلف عربته وقذفوه باللعنات والأحجار.

تشارلز الثاني، ذو العينين الجاحظتين المحمرّتين يرتجف ويهذي، أصبح قطعة صغيرة صفراء من اللحم تنفذ تحت الأغطية كما ينفذ القرن أيضاً.

وهكذا انتهت السلالة التي غزت أميركا.

على هذه الرمال الحامية التي تقدر أن تسلق بيض السلاحف يقف القراصنة صامتين في أثناء قدّاس طويل بأجسادهم المرفّعة وستراتهم المتسخة ولحاهم المدهنة ووجوههم التي تشبه السكاكين التي ثلمتها السنون.. إذا تجرأ أي شخص على السعال أو الضحك في أثناء القدّاس يسقطونه بطلقة ويرسمون إشارة الصليب. إن كل قرصان يشكّل مستودع أسلحة؛ يحمل على خصره أربع سكاكين وحرية موضوعة في غمد مصنوع من جلد تمساح ويحمل مسدسين وسيفاً وبنديقيّة معلقة على الصدر.

توزّع الغنائم بعد القدّاس بدءاً بالمبتورين؛ كل من فقد ذراعه اليمنى يحصل على ستمائة بيزو أو على ستة عبيد، وكل من فقد الذراع اليسرى يحصل على خمسمائة بيزو أو خمسة عبيد. وينطبق هذا الثمن على القدمين وكل من فقد عيناً أو إصباعاً على شواطئ كوبا وفنزويلا له الحق بمائة بيزو وعبد واحد.

يبدؤون عمل اليوم بكؤوس الروم وينهونه بشواء شرائح لحم السلاحف، يطيّ لحم السلاحف المقطّع ببطء تحت الرمل المغطى بالجمر داخل الدروع مع محّ البيض والبهارات وهذا يعتبر أفضل طبق للحفلات في الجزيرة. يشعل القراصنة غلايينهم مستلقين على الرمال مسلمين أنفسهم للدخان والحنين.

حين يخيم الليل يغطون باللائئ جسد امرأة خلاسية ويهمسون لها قصص الرعب والعجائب، قصصاً عن الشنق والتحميل والكنوز ويقسمون لها إنهم لن يبحروا ثانية في وقت قريب. يشربون ويمارسون الحب دون أن ينزعوا أبواطهم؛ الأباط التي ستصل غداً حصى المرفأ باحثة عن سفينة من أجل غارة أخرى.



من روايات إدواردو غاليانو أيضاً في منشورات دار الحوار:

قرن الريح

الوجوه والأقنعة

الأغنية التي لنا

أشباح المدينة

للطباعة والنشر والتوزيع

دار الحوار

سوريا - اللاذقية - ص. ب. 1018 هاتف 422339

